تراث العبيد

في حكم مصر المعاصرة

دراسة في علم الاجتماع التاريخي

للدكتور: ع . ع

KAMEL GRAPHICS

المكتب العربي للمعارف



تراث العبيد

في حكم مصر المعاصرة

دراسة في علم الاجتماع التاريخي

دكتور: ع. ع



الإهداء

إلى الذين يحبّون مصر وردة ناضرة ذات أريج

ع . ع

الجمع التصويري : المكتب العربي للمعارف

تصميم الغلاف : كامل جرافيك

التجهيزات الفنية والإخراج

العصر للطباعة

رقم الإيداع : ١١٤١٣ / ٩٥

الترقيم الدولي : 5 _ 133 _ 276 _ 977

الناشر



١٠ ش الفريق محمد رشاد حسن ـ ميدان الحجاز ـ مصر الجديدة

مقدّمة

يتناول هذا البحث مصر المعاصرة مع ما فيه من صفحات طوال تعود بالحدث المعاصر إلى بداية تاريخ حكم الرقيق الأبيض في مصر الذى بدأ تقريبا في أواخر النصف الأول من القرن التاسع للميلاد ، فلم تكن دولة المماليك المعروفة التى بدأت سنة ١٢٥٠م هى البداية الحقيقية لحكمهم ، ورغم أن محمد علي – الذى نشأ بدوره نشأة مملوكية – قد وجَّه ضربة مهّمة لهم سنة ١٨١١ ، إلاَّ أن هذه الضربة أذهبت دولتهم أو أسقطتهم سياسيًّا فقط ، ثم انتقل تراثهم إلى الإدارة ، فقد كان معظم المديرين وحكَّام الأقاليم زمن أسرة محمد علي من سلالة مملوكية .

وفي عهد ثورة ٢٣ يوليو وبعد صدور قانون الإصلاح الزراعى ومجانية التعليم زاحمت العناصر غير المملوكية بقايا المماليك في أجهزة الإدارة ، لكن التراث المملوكي كان له الغلبة ، بحكم ما للمماليك من خبرات طويلة توارثوها جيلا بعد جيل ، فالتراث الثقافى يورَّث أيضا وإن كان بدرجة أقل مما يرث الإنسان ملامح والديه . لذلك فهذا الكتاب يجيب بوضوح عن أسئلة طالما بدت وكأنه لا إجابة لها :

- لماذا يتصارع المصريون في الخارج ، صراعًا لا تشهده الجاليات الأخرى ؟

- لماذا لم تثمر حركة التغريب (الأخذ بأساليب الحضارة الغربية في الحكم والإدارة) النتائج نفسها التى أثمرتها في الغرب ؟

- لماذا ظهرت حركة التشرذم في جماعة الإخوان المسلمين رغم بداياتها الشعبية ؟

ـ هل كانت شخصية حسن التهامى شخصية ضرورية للسياسة المصرية في عهدى عبدالناصر والسادات ؟

ـ ما علاقة الجامعات بالتراث المملوكي ؟

ـ لماذا يحس الأجانب بالتوتر الشديد عند تعاملهم مع جهاز الإدارة ؟

ـ لماذا يخشى المصرى دخول قسم الشرطة حتى لو كان بريئا ؟

ـ ماهى الجذور التاريخية لبعض الشتائم السائدة ؟

ـ ما أثر الحياة الجنسيّة للمماليك في الحكم والإدارة ؟

ـ العقاب الجنسى مادوره ؟ وكيف تطور ؟

وغير ذلك من القضايا المهمة والحسّاسة .

وإذا كان مجمل التاريخ المصرى المعروف على نحو ما حوالي ٦٠٠٠ سنة ـ (منذ كانت عاصمتها أون أو هليوبوليس سنة ٤٢٤٢ ق . م) ، أو حوالي ٥٠٠٠ سنة منذ توحيد البلاد على يد الملك مينا (نعرمر أو نارو ـ ٣٢٠٠ ق.م) ـ فإن تاريخ حكم الرقيق الأبيض يشكل أكثر من خُمُس التاريخ المصري (حوالي ٢٣ ٪ منه) ، وإذا اعتبرنا ، أن الحقبة التاريخية التى مازالت تؤثر بشكل فعال في الشخصية المصرية لاتزيد على ٢٠٠٠ سنة ، اتضح لنا أن حكم الرقيق الأبيض قدترك بصماته بشكل صارخ .

ولا يهتم هذا الكتاب بالعرض التاريخي التقليدي ، وإنما هو كتاب محوره مصر المعاصرة ، فهو يحلّل نسيجها ، ويتبيّن تركيبه ، انه كتاب في علم الاجتماع التاريخي ، نحسبه ذا منهج جديد ، وإن كان هذا لايقلل من اهمية ماكتبه اساتذة أجلاء عن شخصية مصر وتاريخها .

والله من وراء القصد ،

دكتور / ع . ع

الأستاذ الجامعي

الفصل الأول

حكم الرقيق الأبيض في مصر

متى بدأ وكيف استمر حتى الآن ؟

- أكثر من ١٢٠٠ سنة من حكم الرقيق الأبيض .
- كيف يكوّن المملوك (العبد) جماعته .
- العصابة (العُصبة) كبديل للقبيلـــة .
- شراء الرجال (ده بتاعنا) .
- (الزمبة) و (الدبّوس) و (المهموز) كتراث مملوكى .
- الترابى .
- معنى (النزاهة) في الفكر الشعبي.
- عسكرى المراسلة .
- مفهوم الوظيفة .
- (الجدْعنة) وأصولها التاريخية .
- رابطة الأُنـــس .
- الانتقام الجنسى .
- الفلاح والإقطاع والجْنِس
- الضربة الأولى غير الحاسمة للتراث المملوكى – عصر محمد علي
- الرهائن .
- الضربة الثانية المؤثرة للنظام المملوكى – عصر عبدالناصر

يرجع حكم الرقيق الأبيض أو العبيد البيض للدولة المصرية لأكثر من ١٢٠٠ سنة، وظل العبُد الأبيض هو الحاكم الرسمى والفعْلى لمصر طوال ألف سنة* بلا انقطاع .حتى عندما استطاع أهل مصر تنْحيته عن العرش ، استطاع هذا العبد الأبيض أن يصبح هو الحاكم الفعلى رغم فقدانه عرش مصر من الناحية الرسمية ، فقد ظل هو - بالضرورة - العُمدة وشيخ البلد ، ومدير المديرية ومحافظ المحافظة ومسئول الشرطة والوزير ، كما كان هو الأقدر على الوصول لمناصب المديرين والمديرين العموم . وبذلك أصبح هو الحاكم الفعلى حقا وصدقا رغم فقدانه (العرش) من الناحية الرسمية ، ولم تعد تُجْدِى معه فَرْمانات سلطان أو قرارات حاكم ، فلُيصدر الحاكم ما شاء من قرارات ، فالعبد الأبيض بماله من خبرة عملية في الحكم لا ينفذ منها إلاّ ما يشاء وبالطريقة التى يشاء ، وبالأسلوب الذى يفرغ به هذه القرارات من مضمونها تماما ، إذا رغب في ذلك . وحتى عندما استطاع شعب مصر قتل بعضٍ من هؤلاء العبيد البيض، فإنه لم ينجح في القضاء على تراثهم وأفكارهم وخبراتهم في الحكم التى توارثها عنهم أبناؤهم جيلاً بعد جيل ، وظل أحفاد العبد الأبيض هم وحدهم القادرين على تولى معظم المناصب النافذه التى تنطوى على سيادة ونفوذ وحكم . المسألة ليست تعصبًا ضد هذا العبد الأبيض الذى يملك - بلا شك - خبرات هائلة في الحكم والادارة توارثها جيلا بعد جيل ، وإنما المسألة أن كثير من خبراته هذه مضر ومعوق لكل تقدم .

وكان أول عبد أبيض يحاول الاستقلال بمُلك مصر هو أحمد بن طولون . وكان هذا سنة ٢٥٤ للهجرة الموافقة لسنة ٨٦٨ للميلاد ، واستطاع الرجل أن يكوِّن له دولة مستقلة عن الدولة العباسية توارثها أبناؤه . ولا يمكن وصف أبنائه بطبيعة الحال بأنهم رقيق ، لكن المؤكد أنهم أبناء رجل كان واحدا من

رقيق أو عبيد الخليفة العباسى المعتز بن المتوكل ، ومن المؤكد أن أحمد بن طولون قد أَوْرث أبناءه طريقته في الحكم ، وطريقته في شراء الرقيق وطريقته في تربيتهم وتدريبهم والاعتماد عليهم ، وطريقته في الاحتفاظ بالتوازن بين مجموعاتهم ، وغير ذلك من تراث المماليك (العبيد البيض) عندما يحكمون

وقد اعتبرنا عام ٢٥٤ للهجرة الموافق للعام ٨٦٨ ميلادى بداية تقريبية لحكم العبيد واستشراء تراثهم في الحكم على سبيل التجاوز لأن احمد بن طولون كما سبق القول استطاع تكوين دولة توارثت فيها ذريته الحكم ثمانية وثلاثين عامًا ، وحقيقة الأمر أن الخلفاء العباسيين سبق لهم أن عينوا عبيدًا بيضًا من الترك خاصة، كولاة على مصر قبل أحمد بن طولون، ومن هؤلاء :

- الوالي علي بن يحيى الأرمنى في الفترة من ٢٢٦ هـ (٨٤١م) إلى ٢٢٨ هـ (٨٤٣م) ، وعاد فتولاها مرّة أخرى في الفترة من ٢٣٤ هـ (٨٤٩م) حتى ٢٣٥ هـ (٨٤٩م)

- يزيد بن عبدالله التركي في الفترة من ٢٤٢ هـ (٨٥٦م) إلى ٢٥٣ هـ (٨٦٧م) .

- أَزْجور التركي في الفترة من ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) إلى رمضان من العام نفسه . وغيرهم .

ومن هذا يتضح أن حكم العبيد (الرقيق الابيض) في مصر يعود لأبعد من سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨م) واستمر على نحو أو آخر - كما سيتضح من هذه الدراسة حتى أيامنا هذه .

ليست المشكلة مشكلة عنصرية كما سبق أن ذكرنا فقد كان لهؤلاء الحكام جهود مهمة سجلها التاريخ في المجال العسكري والعمراني ، لكن المشكلة أن

للعبد (المملوك) أسلوبًا في الحكم والإدارة لايمكنه أن يتخلّى عنه ، فما هو هذا الأسلوب ؟

- سيقوم بشراء الرجال أو العبيد الذين سيعتمد عليهم في تكوين جهاز أمن لضمان سلامته ولتسيير دفة الأمور ، وسيكوّن منهم جيشًا ، وسيجعل منهم جباة ضرائب . . الخ ، وهو في هذا قد يشتري هؤلاء « الرجال» صغارًا ثم يقوم بتربيتهم وتنشئتهم، وبذلك يشبّون على طاعته ويكونون طَوْع أمره . وهذا هو الأضمن . والمملوك أو العبد الذى تمّ شراؤه وهو صغير يعرف باسم «التُّرابى» . وقد يكون الوالى أو الحاكم العبد في عجلة من أمره وليس لديه من الوقت ما يتيح له الانتظار حتى يكبر هؤلاء العبيد الصغار ، فيضطر لشراء عبيد (رجال) كبار ، لكن هؤلاء المجاليب - وهذا هو اسمهم - لا يكونون على الدرجة نفسها من الولاء الذى يكنه التُّرابيون لسيدهم ، الذى كان هو بدوره في وقت من الأوقات (مجلوبا) أو ترابيًا .

(والترابى) في أصله كما سبق القول رقيق أبيض لكن سلالته قد يقربها بعض السمرة أو السواد بسبب التزاوج مع العناصر السمراء أو السوداء .

- أما الطريق الثانية التى يجد العبد الأبيض الحاكم أنه لابد أن يسلكها للاحتفاظ بالولاية فهى إظهار الولاء بشكل مستمر «للخليفة» أو « السلطان » أو «الملك» الذى عيّنه، وإرضاء حاشيته أو « رجال بلاطه » أو « طاقم مكتبه» فعن طريق هؤلاء يمكن أن تتوطّد العلاقة بينه وبين الخليفة (أو السلطان) كما يمكن أن تسوء ، ويكون ذلك ـ عادة ـ بتقديم الهدايا بشكل دورى، وقد تكون هذه الهدايا على شكل جوار ونساء حسناوات ، وقد يعمد إلى تزويج بناته » من رجال الحاشية أو من الخليفة نفسه. وقد زوّج خُمارَوَيْه بن أحمد بن طولون ابنته قطر الندى للخليفة العباسي المعتضد بالله سنة٢٨١هـ الموافقة لسنة ٨٩٤م

وقبل ذلك بشهور قلائل كان الخليفة قد أرسل إلى خُمارَوْيه رسالة يقرّه فيها على ولاية المناطق الممتدة من برقة (في ليبيا) إلى الفرات لمدة ثلاثين سنة ، لكن ذلك على أية حال لم يطبّق تماما ، ففى سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٤م) تمت مبايعة شيبان بن احمد بن طولون المعروف بأبى المناقب ، ولم توافق الدولة العباسية على ذلك فأسقطته وبذلك انتهت الدولة الطولونية .

ومع هذا فإن رجوع مصر لحضن الدولة العباسية لم يعفها من ولاة من النوع نفسه ، ولهم التراث نفسه وإن لم يستطيعوا تكوين دول شبه مستقلة حتى قيام الدولة الإخشيدية التى أسسها أيضا أحد الموالى العباسيين الذين كانوا يتولون أمر الجيش في مصر ، ومن هؤلاء الولاة :

- زكا الأعور (٣٠٣ - ٣٠٧ هـ / ٩١٥ - ٩١٩م)
- أحمد بن كيغلغ (٣١١ هـ / ٩٢٣م) ، (٣٢١هـ / ٩٢٣م)
- أبو بكر محمد بن طغج (٣٢١ هـ / ٩٢٣م) وغيرهم

وحتى لا يقطع علينا السرد التاريخى جوهر الفكرة التى نريد توضيحها ، نعود فنقول انه مما يؤسف له أن كتب علم النفس والاجتماع المكتوبة بالعربية على الأقل ليس من بينها دراسات عن علم اجتماع العبيد مع أن الكتابات في هذا المجال Slavery Sociology موجودة في الفكر الأمريكي ولم أحاول في الواقع طلب هذه الكتب من الخارج لأن مفهوم الرق أو العبودية التى نقصدها هنا يختلف عن الرق في الولايات المتحدة الأمريكية ، فالرقيق الأمريكي لم ينط به الحكم والإدارة ، وإنما تولّى الخدمة والأعمال الشاقة ، ولم يكن الرقيق الأمريكى هو محور (البلاط) الأمريكى على نحو ما كان هو محور (البلاط) العباسى ، ولم تقم للرقيق في الولايات المتحدة (دولة) تبلور

فيها نظام حكم الرقيق وتبلورت فيه نظمهم السلوكية الحاكمة بشكل نهائى كما حدث في (دولة المماليك) وحكم المماليك في ظل الدولة العثمانية. نحن – إذن – في مصر وبعض بقاع العالم العربى والإسلامى متفرّدون في هذا النظام الغريب (الرقيق حاكم الأحرار) أو (الرقيق مسترق الأحرار) وهل يقبل رقيق أن يكون محكومه حرًا؟!

ومن الطبيعى أن يتفنّن العبد عندما يصبح حاكمًا في الإيقاع بين مجموعات العبيد (المماليك) التابعين له ، خاصة إذا كانوا من المجلوبين أو المجاليب ولم يكونوا قد تربوا على يديه صغارا فكان لهم (استاذًا) وهو أمر لا بأس به في السياسة إذ كثيرًا ما يوصف ذلك بأنه « إحداث للتوازن الاستراتيجي بين القوات » لكن خطورة الأمر أن هذا المسلك في ظل الحاكم العبد يُعد بمثابة مسلك عام يصبغ روح الحكم كله . ونتج عن ذلك تبلور مفاهيم « المهموز» و « الدبّوس» و «الزُنّب» (جمع زنبه بضم الزاى وتسكين النون وفتح الباء) وهى مفاهيم مملوكية أصيلة مازالت مستخدمة بألفاظها غالبا ، وإن كان المصريون قد عبّروا – بعد ذلك – عن المعنى نفسه بألفاظ أخرى « كالتدبيس » بمعنى تلفيق التهمة ، أي إسناد تهمة لشخص برىء ، والكلمة تستخدم غالبًا في مجال إظهار البراعة (براعة الكاذب في إسناد التهمة للبرىء).

« و التلبيس » ومعناها لايختلف كثيرًا عن « التدبيس » واحيانا تستخدم كلمة قبيحة تعنى إدخال الإصبع في مؤخرة شخص ما ، وهى كلمة يتوالى فيها حرفا : « الباء » و « الصاد » ، ولا يقصد بهذه الكلمة الأخيرة المعنى الحرفى وإنما لا يختلف معناها كثيرًا عن إعطاء « دبوس » أو « مهموز » لفلان من الناس أو تدبيسه » في عمل صعب ، أو « تلبيسه » تهمة ، إنه تراث مملوكى أصيل ، وربما يمكن القول أن مثل هذه الأمور لا يخلو منها مجتمع إنسانى .

وهذا صحيح أما أن تصبح هذه الأمور هى (النسق العام) و (المسلك الطبيعى) بحيث لا تؤدى لأى إحساس بالندم بمعنى فصل الأخلاق عن السياسة الداخلية وبمعنى (الشُّغل شغل) . . الخ فإن هذا يؤدى لعواقب وخيمة لا تصلح معها قوانين إصلاحية أو تشريعات ، فيصبح الحاصلون على (المكافآت) ليسوا هم بالضرورة من يستحقونها ، ومن يحصلون على علاوات تشجيعية ليسوا هم بالفعل من يستحقون التشجيع . . الخ وقد رصد الفكر الشعبى كثيراً من هذه الأمور في حكمه وأمثاله .

وإذا صحَّ ماذكره بعض الباحثين نقلا عن د. أيولون D. Ayolon في كتابه عن المجتمع العسكرى المملوكي Mamluk Military تبين أن استخدام المماليك بدأ منذ العصر الأموى فإن عُمقهم التاريخي في منطقتنا العربية يوغل أبعد مما قدرنا .

وقد استخدم الفاطميون أيضا المماليك (العبيد البيض وغير البيض) في حكم البلاد ، وليس لدينا إحصاءات دقيقة عن أعداد المماليك (العبيد البيض) الذين استقروا في مصر منذ القرن العاشر للميلاد ، حتى القرن التاسع عشر، لكننا سنحاول في دراسة قادمة إن شاء الله القيام بهذه المغامرة بجمع أعداد العبيد البيض الذين استقروا في مصر طوال هذه القرون العديدة ، واستخلاص نسبة تمثيلهم في دماء المصريين المعاصرين ، وهى نسبة كبيرة من واقع الشواهد الأولية ، ربما تفسر - بالإضافة - إلى عوامل اخرى سرعة استجابة المصريين للحضارة الغربية ، لكن يكفى في هذا البحث إيراد بعض الأرقام الدالة:

- ٠٠٠ر٢٤ مملوك من أصول تركية في بداية الدولة الطولونية بالاضافة إلى ٠٠٠ر٤٠ من العبيد السود (المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار للمقريزي) .

- ٨ ر ٠٠٠ مملوك (بالإضافة لما سبق) استجـلبتهم الدولة الاخشيدية (من التـرك والديلم) (النجـوم الزاهرة في ملـوك مصر والقاهرة لابـن تغري بردي) .

- في عهد الدولة الفاطمية تم استخدامـهم ايضا وكانت جيوش الفاطميين تضم عددًا كبيرًا من المماليك .

٢٥ ٠٠٠ مملوك اشتراهم الملك المنصور

١٢ ٠٠٠ مملوك اشتراهم الأشرف خليل

أكثر من ١٢ ٠٠٠ مـملوك اشتراهم السـلطان الناصر مـحمد ... وهذه مجرد أمثله .

فكل أمـير مملوكـى يحرص علـى أن يكون له المـماليك (بـتوعه) ، وإذا وصل مملوك إلى عـرش السلطنة حرص على تـكوين مجموعة مملـوكية جديدة حتى يضمن أنها ستكون (بتاعته) لأنـه لا يضمن ولاء مجموعته التى كان منها .... وظلـت فكرة (البـتاع) و (البتـوع) تتوارث جيـلاً بعد جيـل ، وهى مازالت موجودة على نحو أوآخر فمن المحال محو أكثر من ألف عام من التراث المملوكى .. فلابد للمدير العام أن يكون له (بتوع) غير بتوع المدير العام الآخر وإن نظرة للأرقام الـتى ابرزناها آنفا وهى قـليل من كثير ، تبـين إذا وضعنا في اعتبارنا تناسل المماليك غير المخصيين (غير الطواشيين) أن نسبة الدماء المملوكية في مصـر لا تقل بأى حال مـن الاحوال عن نسبة الـدماء العربيـة ، خاصة أن المماليك كانوا يـأكلون أجود الطعام من لحوم وألبان وبهـارات تساعد على شدّة البأس في مضمار الـتناسل بالاضافة إلى أنهم كانوا من الأصـحاء فليس التراث المملوكى فقط هو أحد العوامل الأساسية الـفاعلة ، وإنما الدماء المملوكية أيضا والتراث على أية حال يتوارث كما تتوارث الصفات الفيزيقية ..

من المحال إذن ان يمارس (مـدير) أو (مدير عام) أو (محافـظ) عمله ، ويباشر اختصاصه في ظل القانون فقـط أو وفقا لبنود اللائحة ، هذا محال في ظل تراث الرقيـق الأبيض ، ومن المحال أن تكون قاعدة جـهاز الادارة حساسة لأوامر وتوجيـهات القيادة إلاّ في ظروف مـعينة قوامهـا الرعب والخوف، وإذا طال الـعهد بمسئول الإدارة (أصبـح له أقدميـة في المكـان) نجح في تكـوين مجموعة ممـلوكية خاصة به ، فتتم الاسـتجابة لتوجيهاتـه (توجيهات الادارة) بفضـل هذه المجموعـة ، وإذا حدث فتغـير رأس الإدارة ، فإن الرأس الجـديد سرعان ما يغيّر مجموعة مملوكية بمجموعة أخرى حتى تستطيع تسيير العمل على نحو أعرج . وفـي ظل هذه الظروف التى لايكـشفها ولا يوضحهـا سوى علم الاجتماع التاريخي ، هل تصبح القوانين فعّاله ؟ وهل هي وحدها تكفى ؟

وهل محاضـرات المحاضرين عن الإدارة النـاجحة ، ومقوماتـها تجدى في هذه الحال ، أم أننا ننقل بذوراً لم نهيِّىء لها تربتنا الإدارية تهيئة كاملة .

وقد عبرَّ الفكر الشعبى عن ذلـك وشخّصه دون معرفة جذوره التاريخية إذ يقال دائمًا (نحـن نخاف ومنختشيش) بمعـنى أننا نخاف لكن ينقـصنا الحياء ، فقد لاحـظ المفكر الـشعبى أن المـوظف لايؤدى عمـله الاّ خوفًا من مـديره ، والمدير لابد أن يكون لديه دافع شخصى لمباشـرة العمل غير راتبه الذى يتقاضاه وحوافزه التى يحصـدها ، والمدير بدوره يمكن أن يصدر أوامر مخالـفة للقانون والنظام إذا ضمـن العاقبة ولم يكن هنـاك ما يخيفه ، فقد أمـر أحد المحافظين سائق قـطار سريع بالـتوقف في طنـطا وهي ليسـت محطة وقوف ، مـع ما قد يترتب على ذلـك من إخلال بجدول السكك الحديديـة كله ، وإرباك قد يؤدى لحوادث مؤسـفة . كل ذلك كى يـنزل هو في محـطة طنطا ، ولـيس لأى أمر استراتيجي أو حتى تكتيكي يهم القوات المسلحة (مثلا) . فالعلاقات المملوكية

أساسها الخوف : الخوف من أميرهم ، والخوف من مماليك الأمير الآخر ، وخوف السلطان من مماليكه هو بعد أن يصل إلى السلطنة وخوف مماليكه هم أنفسهم منه خوفا من تكوين مجموعة اخرى ، ومن الطبيعى ألاّ يرحب المماليك القدامى بمملوك آخر ينضم إليهم فقد يشاركهم كميات اللحوم والخبز والحلوى التى توزع عليهم فتقل أنصبتهم تبعًا لذلك ، وقد تزيد حظوته عن حظوتهم عند (استاذهم) أو أميرهم .

فالمماليك القُدامى ينظرون لـلمملوك الجديد على نحو ما تنظر الزوجة القديمة للزوجة الجديدة التى قد تحظى بحب زوجها أكثر مما تحظى هي ، وقد يميز أبناءها ويحبهم أكثر من حبه لأولاد (القديمة) .

وهذا أحد الأسباب التى يحارب المصريون بعضهم بعضا إذا عاشوا في بلاد الغربة ، بدلا من التكتل ، وهو ردّ الفعل الذى يبدو - لأول وهلة - منطقيًا، لكنه لو حدث لكان غير منطقى وكان خروجًا عن منطق مجتمع العبيد البيض، ففى بلاد الغربة يتنافس المماليك لكسب رضا (الاستاذ) أو (الأمير) وهو هنا صاحب العمل الاجنبي ، وفي بلاد الغربة لم يعد المصريون يخشون بعضهم بعضا ، فقد تساوت الرؤوس ، وأصبحت السلطة للأمير (أو رب العمل) الأجنبي .

وكان مجتمع المماليك يتعايش معًا بحكم (الضرورة) فالعلاقات بين المماليك (البرجية) أو (البحرية) أو مماليك الملك الصالح (الصالحية) . . . ألخ ليست علاقات قربى (كما هو مفترض في مجتمع القبيلة أو العشيرة) وليست علاقات جوار اختياري ، والعلاقة بينهم وبين أميرهم (وكان مملوكا مثلهم) ليست علاقة (أبوّة) على الحقيقة ، ولاهى علاقه (بنوّة) على الحقيقة ، والعلاقات بينهم ليست علاقة (صداقة) على الحقيقة ، ولا شك أن

أميرهم أو أستاذهم أو صاحبهم أو مالكهم كان يراقب بعين الحذر أي تكتلات أو صداقات بينهم . . إنما هى علاقات يحكمها (الخوف) و (الضرورة) رغم غطاء المجاملات السميك سماكة الخوف الكامنة ، والكلمات العسلية اللّزجة لزوجة الخوف الكامن والغيرة الكافية ، لذلك نجد في المجتمعات التى تعمق فيها تراث المماليك كّما هائلاً من كلمات المجاملة والنفاق ، وجميعها غير صادق : « عيونى » « أعطيك عيونى » « عيونى فداك » « نعوزوا ترابك » « منستغناش عنك » « يانوارتنا » « يا عسل » « يا فُل » « إنت أجدع راجل » « مش عارفين من غيرك كنا ح نعمل إيه » . . . وهذا قليل من كثير .

جانب كبير إذن من علاقات المصريين ذوى التراث المملوكى تحكمه الضرورة بحكم التراث ، بالإضافة لضيق المكان (اصبر على جارك السّو «السيئ» يا يرحل ، يا مصيبه تاخده) أى اصبر - إن كان لك جار سيئ فالفرج قد يأتى برحيله (إلى مكان آخر وهذا أمر صعب بحكم أزمة الإسكان) أو أن تأتيه مصيبة (أي يموت ونرتاح منه أو يقبض عليه وما إلى ذلك) ، ومن هنا كان (الاحترام واجب) وهي عبارة ذات مضمون غير ما يظهر من كلماتها، و (السّلام بتاع ربنا) وهي أيضا تعنى مجرد الشكليات أي أنك تخطىء إذا لم تلق السلام على من ظلمك أو سرقك ، فالسلام (بتاع ربنا) ولا علاقة له بأنه ظلمك ، وإذا اجتمع من يحكم في خلاف كنت أنت مخطئا لانك لم تلق السلام، أما ظلمه لك فهذه مسألة أخرى تسويها معه .

وفي مجتمع الرقيق الأبيض بحكم تكوينه لابد أن تكون (الجدعنة) تعنى الإتيان بغير المألوف ، وغير المألوف في مثل هذا المجتمع قد يعنى الشجاعة الفائقة في الحرب ، ولأنه لا ينبغى أن يكون (أجدع) من الآخرين فإن جزاءه عادة ما يكون القتل ، وقد يتحالف ويتمكن من الوصول للسلطنة فيكون بذلك

هو (الأجدع) بالفعل ولأنه يعلم أنهم لن يتركوه فإنه يحتاط بشراء مماليك جدد، ويتصارع المماليك الجدد مع القدامى صراعًا دائمًا .

وفي عهد الدولة العثمانية قنَّن الفقهاء مسألة الصراع هذه تقنينا دمويا فاعتمدوا على أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فهموا منها أنه إن تنازع اثنان على السلطة وجب قتل أحدهما ، هكذا (قتل) لذلك فقد كان السلاطين العثمانيون الأوائل يقتل الواحد منهم ابنا أو أكثر من أبنائه ليضمن ان ولى عهده (ابنه الذى اختاره لولاية العهد) لن ينازعه أحد آخر ، وهكذا طغت فكرة الصراع (غير الطبيعي) على عاطفة الأبوّة وهي عاطفة طبيعية . لقد طغى ما هو مصطنع على ماهو فطرى .

لذلك فإن عددًا كبيرًا من المؤلفين والكتاب والمبدعين يستخدمون الألفاظ بمعناها القاموسي أو المعجمى ، وهم لايدرون أن المتلقِّي يفهم معنى آخر تمامًا ، وفيما يلى بعض الأمثلة :

ـ النزاهة : معناها المعجمى في المعجم الوجيز هو البعد عن السوء وترك الشبهات (مادة ن ز هـ) وهو المعنى الذى يفهمه المثقفون ، لكن كثيرين لا يفهمون معنى النزاهة على هذا النحو كما يتضح من خلال الحوارات التالية ، وهى حوارات واقعية اجراها المؤلف ، ويمكن للقارىء أن يجرى حوارات مثلها:

حوار (١)

- . . . .

- كيف الحال ياحاج

- الحمد لله

- وكيف النجل الكريم فلان

- بيشتغل سوّاق تاكسى

- ياخبر ياحاج ، ده خد الثانوية العامة وكنا منتظرين له مستقبل ، ليه ماكملش . .

- كده أحسن . . وشُغلانة التاكس شغلانة نزيهة يركّب اللّى هُوَّ عاوزه ، واللى مش عاوزه ميركبّوش .

حوار (٢)

- . . . .

- لكن ده عمده نزيه ، ما يتعشّاش غير بالكباب ويشرب ميه بيضه (خمره)

ملحوظة : نطق محدّثى (نزيه) بكسر النون ، ووجدت ذلك شائعًا - أي نطق نزيه بكسر النون - في قرى محافظة الغربية .

حوار (٣)

- « ده واد نزيه مش بتاع شغل »

وكان الحديث عن فلاح يقضى وقته على المقاهى في البندر (المدينة) .

ماذا يفهم هؤلاء ومثلهم كثير من كلمة النزاهة عندما يتحدث بها السياسيون أو تجرى على لسان شخوص المسرحيات والمسلسلات ، أم أن كتاب السيناريو . . ومؤلفى المسلسلات يكتبون للمثقفين فقط ؟

الشهامة والجدعنة

والمعنى القاموسى للشهامة . كما في مادة (ش هـ م) بالمعجم الوجيز هو عزة النفس وحرصها على مباشرة أمور عظيمة تستتبع الذِّكْر الجميل ، أما جدع فمعناها المقصود ليس قاموسيا ، والمفترض أن الجدعنة هى الشهامة ، لكن قطاعًا كبيرًا من الشعب لا تعطى له الكلمتان هذا المضمون القاموسى ، كما يتضح من خلال التعبيرات والسياقات التالية :

- ده واد جدع يحط (يضع) صوبعه (إصبعه) في عين التخين .
- والمكلّفون بالتعذيب عادة من الجدعان بهذا المعنى .
- غالبا ما يختلط معنى (الجدعنة) . . (الشهامة) بمعانى (النزاهة) الآنف ذكرها .
- ارتبطت الجدعنة أحيانا بالخروج على القانون .
- كأن ينظر أحيانًا إلى اللصوص والخارجين على القانون بشئ من الإعجاب على أساس أنهم (جدعان) و (عيال آخر شهامة) .

وهذا يفسّر التعاطف النسبى مع بعض المجرمين والخارجين على القانون والدولة بعد كل مواجهة (مسلّحة) مما يجعل هذه (المواجهات) غير مطلوبة في أحيان كثيره . وكل هذه المفاهيم من بقايا تراث العبيد البيض .

الحكم بمعنى الركوب أو الركوب بمعنى الحكم :

المعنى القاموسي للحكم كما ورد في المعجم الوجيز « حكم في الأمر قضى فيه ، ويقال حكم له ، وحكم عليه وحكم بينهما » والمعنى القاموسي للركوب كما في مادة ركب في القاموس آنف الذكر هو « عُلو الشيء » ويقال

أيضا ركب الدَّابة ، بالاضافة إلى أن لكلمة الركوب مدلولا جنسيا لا يخفى .

ومازلت أذكر سنة ١٩٧٠ م عندما توفى عبدالناصر يرحمه الله ، فسألنى فلاح عجوز (عبدالناصر - الله يرحمه - مات ؟) فقلت : (نعم) قال : (الف رحمه تنزل عليه) ثم صمت قليلا وقال سائلا: (والحين ، مين ركب ؟) أي من الذى ركب ، ولم أفطن إلاّ بعد جهد وحوار غير قصير إلى أن الرجل يسأل : من الذى سيحكم (سيركب) مصر بعد عبدالناصر ؟ فعدت بعقلي إلى تاريخ المماليك ، قبل أن أقول له إنه الرئيس السادات .

العقاب الجنسى :

كانت الإشارات إلى دلالات جنسية مجالا أساسيًا في المداعبة والمزاح في مجتمع العبيد البيض إنه مجتمع (العزّاب) المجاليب الأغراب ، ومجتمع من لا يعرفون آباءهم ، وتتسرب المفاهيم نفسها بعد الزواج ، وكانت أحد أساليب المجموعة المملوكية المنتصرة لإذلال المجموعة المملوكية الاخرى (المنهزمة) - إذا كانت العاقبة مأمونة - هو ممارسة (اللواط) مع أحد أو بعض أفرادها ، بالإجبار أي اغتصابا . وذلك كنوع من (الإذلال) .

والإذلال بممارسة الجنس مع الرجال أو النساء خاصية من خواص الشرق (المملوكى) ، فالعلاقة الجنسية في المجتمعات التى لم تتشرب تراث العبيد البيض ، علاقة (نفعية متبادلة) يستفيد منها الطرفان ، إن تمت في ظروف الموافقة ، وهي نوع من الاعتداء اذا تمت في ظروف لم يكن فيها احد الطرفين راضيا ، فهى اعتداء يمكن للرجل الانجليزي أو الفرنسى أو الأمريكى . . ألخ أن يُعلنه ويبوح به - ببساطة شديدة - دون أي أحساس بالعار ، وإنما هو يذكره باعتباره (اعتداء) وقع عليه ، تماما كسرقة بعض ماله ، أو تخطِّية في الترقية أو تعرضه لحادث سيارة . . إنه يقول : إن فلانا قد (. . .) بدون رغبتى ، تماما

كما يقول : إن فلانا قد صدمنى بسيارته أو خطف قبعتى ، وربما يشرح تفاصيل العمـلية الجنسـية التى حـدثت معه (اللـواط) على شاشات الـتليفـزيون وأمام ميكروفونات الإذاعة إنه يشرح مجرد حادث اعتداء تعرض له .

والمغتصب في المجتمعات الغربية لا يفكر ابدًا في إذلال من اغتصبه (رجلا كان أو امرأة) وأنما هو يريد ان يحصل عـلى المتعة (من طرف واحد)، ومن هنا فلم نسمع عن ممارسة الجنس قهـرا مع المخالفين السياسيين أو هتك أعراض نسائهم في المجتـمعات الغربية وإنما كان هذا قصرا على مـجتمعات الشرق ذات التراث المملوكي ، وعملية الاغتصـاب قد تكون مرافقة للحـروب (الحرب بين دولة ودولة) لكنـها ابدا وبالنسبة لمجـتمعات الغرب - لا يمكن أن تـكون على مستوى المجتمع الواحد كنوع من العقاب بالإذلال .

العقاب الجنسى ، ومقاومة الإقطاع :

وحتى مـنتصف الـقرن العشـرين كان للـفلاح المصرى وسـيلة غريـبة في الانتقام من معذّبـيه أو من يعمل عندهم بأجر بخـس ، فقد كان هناك فلاح ذو حظوة يرافق أولاد الـعمدة أو أولاد البك الاقطاعى أو أولاد الـباشا . . . وقد تعوّد هذا الـفلاح الماكر أن يضع إصـبعه بشكل رقـيق في مؤخرة الطـفل الذى يحمله (ابن البك) وشيئا فشيئا (بمرور الـوقت) يوغل بإصبعه ، فينشأ الطفل المسكين وقد تعوّد أن يكون في مؤخرتـه (شئ ما) ، فإذا كبر طلب بنفسه أن يوضع هذا (الشيء) في مؤخرته ، ويتسع معنى (الشئ) فلا يكون قصرًا على الإصبع . وكم تكون سعادة الفلاح (اللئيـم) عندما يجلس مع رفاقه الفلاحين ويتحدثـون معا عن ابن البـك الفلاني ، وابن البـاشا العلاّنى ، وابن الـعمدة الذين أصابهم داء قوم لوط .

المجاورون

وكبار السن الذين كانوا في عمر يسمح لهم بالإدراك قبل قوانين الإصلاح الزراعى ، ربما كان يدهشهم أن عددا غير قليل من العمد ومشايخ البلد كانوا يرسلون واحدًا من أبنائهم على الأقل ليقيم إقامة دائمة في مكة (المكرمة) أو المدينة (المنوّرة) ليصبح مجاورًا ، وكانوا يرسلون له الأموال كما كان بدوره يستقبل أهل بلدته أو أهل بيته عندما يصلون إلى الديار المقدسة ، حاجين أو معتمرين .

يقول الفلاحون بصوت عال : « ماأحسن هذا ، ابن العمدة جاور النبي »

فيرد الفلاحون الآخرون : « عليه الصلاة والسلام »

يقول فلاح آخر : « العقبى لنا »

فيقول فلاح ثالث غامزا : « نَحُج ونعود ، ونزور النبي ونرجع ، كفايه علينا زيارة . . »

فإذا اجتمع رهط الفلاحين في أمسية آمنه لاخطر فيها : قال قائلهم : «يعنى مش ح يلاقى اللى ينيّله هناك » أي أنه لن يعدم أن يجد شخصا في الديار المقدسة يضع له (شيئا) في مؤخرته . والتحفظ وارد هنا ، فلم يكن كل المجاورين كذلك ، فقد كان منهم الصالحون والعلماء والفقراء ، الذين جاوروا لأسباب دينية وعلمية .

ومن الطبيعي ألا تختلف ردود فعل « عساكر المراسلة » عن ردود فعل الفلاح باستخدام (شئ) أو (آخر) ليرد الاعتبار لنفسه ، فهذا هو رد الفعل الاجتماعي لعلاقات (الذُّل) .

« البَسْطة » العراقية و « القلبة » الكويتية - اختلاف ثقافي :

وقد عرف العراق مثلا التراث المملوكي بشكل ربّما كان أعمق مما عرفناه في مصر ، لذلك فممارسة الجنس مع الرجال في التراث الشعبى العراقى تنطوى ايضا على الرَّغبة في الإذلال ، فالعراقى يهدد صديقه إذا لم يقتنع بوجهة نظره أن (يبسطه) أي يمدّده على الأرض جاعلا وجهه إلى الأرض والمعنى مفهوم لكن العراق ايضا عرف معنى هذه العلاقة (بالتراضى) بمعنى مجرد تبادل منافع ، لكنها - على أية حال - أمر معيب لا يعلن عنه العراقى .

والعكس تماما في مجتمع الكويت(مثلاً) حيث لم يصل التراث المملوكي ، فهذا العمل يعبرّ عنه بعبارة لا تخلو من دلالة هي (قَلْبه بقلْبه) وينطقونها بجيم مفخَّمة غير معطشة (جَلْبة بِجَلْبة) ، فهذه المسألة كانت تتم في مجتمع الكويت دون أي (إذلال) وإنما هى علاقة مصلحية متبادلة فهو (يقلب) صاحبه في مقابل (أن يقلبه) صاحبُه، وهو ممتن وشاكر لصاحبه في الحالين (قالبا ومقلوبا) ويقابل الكويتيون كبار السن الذين عاصروا مجتمع الغوص(قبل ظهور البترول) رفاقهم القدامى ببشاشة فائقة وبالأحضان) ويذكر بعضهم بعضا بما كان ، (بامتنان) ودون أية دلالة إذلالية سواء كان قالبا أو مقلوبا ، إنه تأثير أوربى واضح ، لذلك فأغلب الظن أن هذا (العمل) ليس أحد الأساليب العقابية في الكويت وربما مجتمع الخليج عامة .

وبالنسبة لمصر فقد كان المماليك لا يجدون مبررا في فعل هذا العمل مع المصريين من باب الرغبة والمتعة فالرجل المصرى وفقا للمقاييس المملوكية (غير جميل)، كما كان المماليك يأنفون من أن يتركوا المصرى يفعل بهم هذا الشيء فقد كان هذا الأمر محصورا بينهم، واستمر هذا حتى زمن أسرة محمد على ، يقول إدريس أفندى - وهو فرنسى تظاهر باعتناق الاسلام واسمه الاصلي بريس دافين - بصدد حديثه عن عباس باشا (ابن طوسون بن محمد علي) :

« أما أخلاق عباس فكانت كأخلاق جميع سلاطين الشرق ، حيث يدلل الغلمان أكثر مما يدلّل الجواري لقد كان عباس يستسلم لمجونه في الخفاء مع مماليكه الذين كان يجعلهم يؤلفون حلقة لإمتاعه ولكن كرامته ، كانت تأبى عليه أن يكون الاداة السلبية للذة فلاح أو عبد أسود (راجع إدريس افندى في مصر ترجمة انور لوقا) .

معانى التعبيرات في النص :

- يؤلفون حلقة لإمتاعه : يتناوبون ركوبه .

- الاداة السلبية للذة فلاح : لم يكن يسمح أن يركبه فلاح وإنما لابد أن يكون الراكب مملوكا (انتهت المعاني) .

أما سعيد باشا فكانت له طريقة مبتكرة في إذلال اوربا فقد كان يجمع غلمانه (مماليكه) حوله في ليالي الأنس ويخلع ملابسه كاملة ويأمرهم بخلع ملابسهم مثله ، ثم يقلد أحدهم أحد الأوسمة التى اهدتها له إحدى الدول الأوروبية ثم يباشره أي يفعل معه فاحشة اللواط ، وهو - أي سعيد باشا - يظن أنه (يلوط) الملك الأوربي الذى أهداه هذا الوسام . وهكذا لاتنتهى الليلة إلاّ ويكون الباشا قد لاط (نا . . .) أوربا كلها ، وأذلها ، وانتصر عليها .

وما زلنا نذكر حادثة بعذ حرب ١٩٦٧ ، كان يرددها الفلسطينيون وهي أن شابا فلسطينيا ضاجع إحدى بنات الهوى الإسرائيليات ، وكانت مجندة في جيش الدفاع الاسرائيلي ، وبعد أن تمّ له ما أراد ، أخذ (الكاب) أو البيريه) أو غطاء الرأس الخاص بها وعليه نجمة داود ، ومسح به ذكره (عضوه التناسلي) يقصد إهانة (إذلال) دولة إسرائيل ، وشكته المجندة الاسرائيلية للقاضى لا لأنه مارس الجنس معها وإنما لاهانته رمز اسرائيل ، ويقال إن

القاضى شكـره (لفك أزمة) المجندة ، لكنه حـكم عليه بالسجن لإهـانته الرمز الإسرائيلي . فالإهانة بالجنس تراث مملوكى .

معنى الوظيفة في التراث المملوكى :

كان الخليفة أو السلطان يحرص ألاّ تطول مدة الوالى حتى لا يعمل لحسابه وأدى هذا إلـى عدم استـمرار السـياسات الإصـلاحيـة ، ولـم يعـرف مجتـمع المماليك الوظائف الفنية (ضابط حسابات ، كاتب مالية . . . الخ)

فهذه الوظائف كان يشغلها في الـغالب الأعم قبط مصر ، وكان وزير مالية صلاح الدين على سـبيل المثال - هو الأسعد بن مماتى ، وهـو مصرى قبطى ، وضع كتابـه الشهير قوانين الدواويـن عن ضبط ماتغلّه أرض مصـر وما يرد من نواحيها .

لكن المـماليك كانوا هم دائـما المحافظين أو المديـرين أو مسئولى الأقـاليم المصـرية ، وكانت هـذه الوظيفـة (منحة) أو (هـبة) أو (عطيـة) أكثر منـها واجبا أو التزاما ، واستـمر هذا على نحو ما إلى أيام أسرة محـمد علي، يقول لنا إدريس أفندى الفرنسى الآنف ذكره عن تـعيين محافظ الجيزة في عهد عباس باشا فـيقول : « إن الطريقـة التى يجعـلون موظفا يـقفز من منصـب إلى آخر جديرة بالـملاحظة ، فعابديـن باشا موظف في سك الـنقود كان قد بلـغ مرتبة البكباشـى وهو في السابعة عشرة مـن عمره ، واصبح سكرتيرا خـاصا لعباس باشا ، ثم غضب عليه الوالى فنقله رئيسا لجوقة الموسيقى (المفروزة) أي فرقة الحرس المنتخبين . ولما لم يكن يصلح قط لهذه الوظيفة فقد نقلوه مديرا لإقليم الجيزة وكثيرا ما رآه النـاس يفر من مكتبه مصطحبا حجّابه إلـى حيث يلهو على شـاطىء النهر . . . . » .

الضربة الأولى ـ غير الحاسمة
للتراث المملوكى في عصر محمد علي

لمحمد علي نفســه تراث مملوكى ، وقد نشأ الرجل نشأة لا تــبعد كثيراً عن نشأة المماليك ، ومع هذا يشاء القدر ان تكون أول ضربة للنظام المملوكى ، بل وللعــرق المملوكى - إلــى حد ما - على يــد محمد عــلي ، وهذا أمر طبــيعي فالمصلحون يستخدمون الأساليب نفسها التى يستخدمها الطرف الآخر الذى يُراد إصلاحه ، فلا يفل الحديد إلاّ الحديد كما يقــال . وثمة مثال مع الفارق الكبير وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رغم محاربته للقبلية ومناداته بالأخوة في الاسلام ، فقد كان انتماؤه لقبيلة قريش القوية أحد الأسباب التى هيأها الله له لنجاح دعوته ، وهذا لم يمنعه صلى الــله عليه وسلم من القول بالمساواة فلا فرق بين عربــى وأعجمى إلاّ بالتــقوى ، ولو سرقت فاطــمة بنت محمــد لقطع محمدٌاً يدها . . . الخ .

وكان والد مــحمد علــي هو إبراهيم أغــا بن علي مــن جنس تركــى يقوم بوظيفــة رئيس الحرس في قولة وإن كــان الأمير ردولف من أسرة آل هــبسبرج النمساوية الذى زار مصر في أواخر عهد إسمــاعيل يصف محمد علي بأنه ابن الكنّاس) الذى اصبح حاكمًا عظيمًا يسير على خطى بلديّاته الاسكندر المقدوني

كما أن وصف والد محمد علي - ومن ثم مــحمد علي نفسه - بأنه تركى العرق - مــسألة غيــر مؤكدة أو مسألــة غير مفــهومة على وجــهها الصــحيح ، فالدولــة العثمانــية كانت بمــثابة مرجل كــبير اختلــطت فيه الأجــناس وذابت ، فأصبح يطــلق على كل من تحدث التــركية تركيا ، وليس الأمــر كذلك ، فأهل

البوسنة والهرسك صرب وسلوفاك رغم تحدثهم باللغة التركية ، وأهل سالونيكا في اليونان يونانيون رغم تحدثهم بالتركية . . . وهكذا .

وتروى كتب التاريخ التى ألفت في العصر الملكي (قبل ثورة يوليو١٩٥٢) للتدليل على ذكاء محمد علي وجرأته منذ كان شابا أن أهل بروسطة (في اليونان) امتنعوا عن دفع المال المطلوب منهم لحاكم « قوله » وكان اسمه الشوربجي، فتكدّر واستعصى عليه حل المشكلة لعدم ميله - أو عدم إمكانه - استخدام العنف ، فتقدم محمد علي وأخذ على نفسه مهمة ! إخضاع (بروسطة) وجمع المال المطلوب ، فذهب ومعه عشرة رجال مسلحين فقط ، وذهب إلى بروسطة وقصد إلى مسجدها ، فصلّى ثم أرسل يطلب أربعة من كبار الأعيان في القرية ليبلغهم أمرًا يهمهم ، فأسرع الرجال بالحضور ، ولما دخلوا المسجد ، أشار محمد علي لرجاله فقبضوا عليهم ، فتجمهر أهل القرية حول محمد علي طالبين إطلاق سراح الأعيان ، فوقف محمد علي وسط رجاله وهدد أهل القرية بذبح الأعيان أمامهم ، وقادهم إلى « قوله» قائلا لهم إنه لن يطلق سراحهم إلاّ إذا دفعت القرية المبلغ المطلوب ، وفي الصباح الباكر كان المبلغ قد تم دفعه .

هذا تراث مملوكى ، ولم ينشأ محمد علي في أسرة تقليدية فقد كفله عمه بعد موت أبيه ، ثم عاش في قصر الشوربجى (حاكم قوله) فعلمه ركوب الخيل واستعمال السيف . . نشأة لا تختلف كثيرًا عن نشأة المماليك ، لكن محمد علي اختلط بالحضارة الأوربية منذ وقت باكر فقد كان منذ صباه يتردد علي تاجر فرنسى اسمه (المسيو ليون) من مرسيليا ، وكان يتردد على « قوله» منذ سنة ١٧٧١ فتعلم منه محمد علي أساليب تجارة الدخان . . وظل محمد علي يتذكر ليون هذا حتى بعد أن ملك مصر ، فظل يسأل عنه حتى اهتدى إلى

عنوانه سنة ١٨٢٠ م .

فإذا عدنا إلى الرواية السابقة عن قرية (بروسطة) فإننا نلمح ظاهرة جديرة بالملاحظة :

- نظام الرهائن ضمانا للطاعة أو لاسترداد المال أو فرضه ، وهو نظام ينطوى على أخذ بريء بذنب مذنب ، فلا علاقة لأهل المتهم بتهمته ، فالضغط عليه بهم أو تهديده في عرض أمه أو شرف أخيه ، أمر يتنافى تمامًا مع الفردية بمعناها الأوربى ، والدينى أيضا ، وإذلال المتهم بعرض أمه أو اخته مسألة لا علاقة لها بدين أو حضارة وهى تراث مملوكى (وبعضه بدوى) ، ومبدأ أن (الحسنة تخُص والسيئة تعم) مبدأ في حاجة إلى مراجعة ، ومعنى المثل أو المبدأ كما هو معمول به في أي تجمع (قرية أو مدينة أو كتيبة أو لواء) أنه إذا حدث خطأ أو تجاوز من فصل من فصول المدرسة مثلا تم عقاب الفصل كله ، وإن تفوق طالب في هذا الفصل تم تكريم الطالب المتفوق فقط ، ولا علاقة لزملائه بذلك ، وإذا أبلى جندى بلاء حسنا كان التكريم له ، ولاتنال الكتيبة من شرف بلائه شيئا ، إنه تراث مملوكى ، أيمكن أن يكون هذا أحد أسباب كراهيتنا للنجاح والناجحين ، لابد من أن هناك طريقة أخرى للإرشاد عن المذنب أو المخطئ بدلاً من مبدأ أن (السيئة تَعُم) .

❁ ❁ ❁

وتاريخ محمد علي في مصر معروف ، وإنجازاته المهمة معروفة ، واعتباره مؤسسا لمصر الحديثة مسألة لم يعد فيها كبير خلاف ولا يهمنا في هذا الصدد سوى مذبحته الشهيرة التى أجراها للمماليك سنة ١٨١١ م والتى ملخصها أنه

دعا امراءهم وأعيانهم ليحضروا بملابسهم الرسمية للاحتفال بتقليد ابنه طوسون رياسة الحملة المتوجهة لشبه الجزيرة العربية لقتال الوهابيين (السلفيين) ، فجاءوا إلى القلعة فقابلهم محمد علي بلطف وترحاب ثم سار الموكب وخرج بعض الجنود والمشايخ وبينما أمراء المماليك سائرون في الطريق الجبلي إلى (باب العزب) أقفلت الأبواب واطلقت النيران من كل صوب على صفوف المماليك المحصورين بين الأسوار في ذلك الطريق الضيق، فحصدتهم النيران ، واستمر الضرب حتى فنوا جميعا إلاّ اثنين على مايقال ، ثم سرى الخبر إلى خارج القلعة فتم قتل عدد كبير منهم في القاهرة وفي الأقاليم بأمر الباشا .

ويهمنا هنا أن محمد علي أخذ أبناء المماليك المقتولين وأدخلهم في خدمته وزوّج نساءهم لضباط جيشه وأتباعه .

وقد أكمل إبراهيم باشا ابن محمد علي مذبحة أبيه بمذبحة أخري ، فتابع المماليك الذين نجوا من مذبحة أبيه وهربوا إلى النوبة ودنقلة ، والتمسوا المأوى لدى قبائل البشارية والعبابدة في الجبال ، واضطر المماليك إلى قبول عروض الصلح التى وصلت من طرف مندوبين أرسلهم ابراهيم باشا مؤكدًا لهم سلامة حياتهم ويعدهم بالمناصب ورد ممتلكاتهم شريطة الاعتراف بحكومة محمد علي، وقد صدق حوالى أربعمائة هذه الوعود ، وفي نهاية ١٨١٢م اتجهوا نحو إسنا حيث مقر قيادة ابراهيم باشا ، فلما اجتمعوا ورأى أنه لن يأتى مزيد منهم ، أصدر أمره بالإجهاز عليهم فتم ذبحهم بلا رحمة وأنقذت وساطة طبيب فرنسى مملوكين من أصول فرنسية ، وعفا عن مملوك آخر كان جميلا وصغير السن ، وبالطبع أرسل ابراهيم باشا زوجات المماليك القتلى للقاهرة ليزوجهن محمد علي لأعوانه ، كما ضم أولادهم إلى مماليك الأسرة .

من هذا العرض التاريخى تظهر عدة نقاط هامة ظل بعضها غير واضح في كتابات المؤرخين وباحثى التاريخ :

أولا : أن محمد علي قضى على حكم المماليك ، وهزمهم عسكريا ، وقتل عددًا كبيرًا منهم ، وبذلك يكون قد قضى على حكومة المماليك ، وقطع دابر أملهم في الوصول للسلطة العليا ، لكنه لم يقض على العنصر نفسه ـ كما يشاع ـ رغم أنه قتل معظم قادتهم وأمرائهم (قتل محمد علي حوالي ١٢٠٠ وقتل ابراهيم حوالي ٤٠٠ فيكون المجموع حوالي ١٦٠٠ بالإضافة لعمليات القتل الفردية التى لحقت بهم في الأقاليم بعد إذاعة خبر مذبحة القلعة) أما العنصر نفسه فقد بقى واختلط بالدماء المصرية وذاب فيها ، ووصل عدد منهم للسودان .

ثانيا : أن محمد علي زوّج زوجات المماليك القتلى لأتباعه من الأتراك والأرناؤوط ومشايخ العربان ، فاندمجت الدماء المملوكية عن طريق الزوجات في الشعب المصرى .

ثالثًا : وهذا هو الأهم ، أن محمد علي استبقى أولاد المماليك ووزعهم على أفراد أسرته وأتباعه ليجعلوا منهم مماليك لهم ، كما استبقى لنفسه عددًا منهم، وأولاد المماليك هؤلاء هم الذين شكلوا الجهاز الإدارى المصرى في غالبه في عصر الأسرة العلوية بشكل واضح حتى أيام الملك أحمد فؤاد واستمر وجودهم بعد دخول عناصر من أصول عربية وفلاحية وأوربية بعد ثورة يوليو ١٩٥٢م ، وإن ظل من الواضح أن الذين تشير اسماؤهم إلى أعراق مملوكية هم الأقدر على الوصول للمناصب العليا ، يليهم الذين تشير تصرفاتهم إلى استيعاب كامل للتراث المملوكى ، ثم يليهم القبط بحكم خبرتهم الطويلة في الأعمال المالية والصرافة وقياس الأراضى وضبط النهر ، فقد ظلوا يتولون هذه

الأعمال طوال فترة التاريخ الإسلامي، وفي الصفحات السابقة حديث مفصل على نحو ما عن مجتمع المماليك في قصر عباس باشا وسعيد باشا . . . الخ .

وعن كيفية تولية المناصب الإدارية الكبري فقد تخلى المماليك عن دورهم العسكرى ليدخلوا - بعد المذبحة - في دور إداري ليفسدوه كما أفسدوا الحياة الأمنية والسياسية في مصر في طورهم الأول (العسكرى).

وقبل إنهاء هذه الفقرة يجب القول أن العنصر المملوكى أسهم في تحسين عنصر سكان مصر من حيث طول القامة ووسامة الخلقة ، لكن هذا لا يوازى ما تركه نظامهم الاجتماعى من اضرار مازلنا نعانى منها حتى اليوم .



الضربة الثانية للتراث المملوكى

في عهد عبدالناصر

من المدهش أن يحاول الكتاب الغربيون والروس الذين كتبوا عن ثورة يوليو، أن يعطوا الأبعاد الكافية (لأعراق) القائمين على الثورة لما لذلك من أهمية ، فالدكتور ايغور بيليايف وزميله الدكتور افغينى بريماكوف في كتابهما مصر في عهد عبدالناصر (ترجم عن الروسية - ونشرته دار الطليعة - بيروت)

يذكر أن « اليوزباشية والصاغات والبكباشية المنضمين إلى تنظيم «الضباط الأحرار» الذى أعلن ونفذ وقلب نظام الحكم في مصر لم يكونوا يمثلون على الإطلاق تلك الجماعات الطبقية التقليدية التى كان الجيش المصرى واقعًا في أيديها على مر عشرات السنين فقد كان جميع أعضاء التنظيم من المصريين (يقصد الأعراق العربية والفلاحية كما سنشرح فيما بعد) ولم يكونوا من الأتراك أو المماليك أو الألبان أو الشراكسة كما كان الحال من قبل وكانت الأغلبية العظمى لأعضاء التنظيم من أبناء الفئات الاجتماعية المتوسطة ، وفيما يلى قائمة بأسماء الذين انضموا إلى التشكيل الأول لتنظيم الضباط الأحرار.

عبدالحكيم عامر صاغ : (رائد) من مواليد ١٩١٩م وهو من قرية أسطال في محافظة المنيا ، تخرج في الكلية الحربية المصرية ١٩٣٨ وأنهى دراسته في كلية أركان الحرب ١٩٤٨ وعمل ضابطا بالمشاه ، وكان قبل انضمامه للضباط الأحرار منتميا لجماعة الإخوان المسلمين .

عبداللطيف البغدادي : بكباشى (مقدم) بقرية شوا بمحافظة الدقهلية أنهى تعليمه في الكلية الحربية المصرية سنة ١٩٣٨ ثم تخرج في كلية الطيران

١٩٣٩م وبعد انقضاء عشرة أعوام درس في كلية أركان الحرب وخدم في سلاح الطيران، واشترك في النشاط الفدائى ضد الإنجليز في عامى ١٩٤١ ، ١٩٤٢م

كمال الدين حسين : صاغ (رائد) من مواليد بنها ١٩٢١ وتخرج في الكلية الحربية ١٩٣٩ ثم كلية أركان الحرب ، وكان ينتمى لجماعة الإخوان المسلمين قبل انضمامه للضباط الأحرار .

حسن ابراهيم : صاغ بسلاح الطيران ولد بالاسكندرية ١٩١٧م وتخرج ١٩٣٩م في الكلية الحربية وكان عضوا في (مصر الفتاة) ذى النزعة القومية قبل انضمامه للضباط الأحرار .

زكريا محيى الدين : بكباشى من مواليد ١٩١٨م ولد بقرية كفر شكر (بنها) أنهى تعليمه في الكلية الحربية ١٩٣٨ ثم كلية أركان الحرب ١٩٤٨ خدم في سلاح المشاه ولم يكن ينتمى لأى حزب سياسى قبل انضمامه للضباط الأحرار .

خالد محيى الدين : صاغ من مواليد ١٩٢٢بكفر شكر وحصل على بكالوريوس تجارة بعد التوجيهية (الثانوية العامة) وفي ١٩٤٠ أنهى تعليمه بالكلية الحربية وكلية الأركان ١٩٥٠م خدم في سلاح المدرعات كان ينتمى بمعتقداته للجماعات التقدمية (المؤلفان روسيان شيوعيان كما أوردنا في فقرة سابقة بين قوسين ، وقد ذكر خالد محيى الدين في كتابه « الآن اتكلم» أنه كان ينتمى إلى (حدتو) أو الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى وهي حركة يسارية ، ولا يخفى اتجاهاته الاشتراكية ولكنه يؤكد دائما أنه مسلم صميم).

محمد نجيب : لواء ولد بالخرطوم ١٩٠١م أنهى تعليمه بالكلية الحربية وتخرج في كلية الأركان ١٩٢٩م حاصل على ليسانس الآداب ، خدم في سلاح المشاه وشغل منصب قائد القوات البرية المصرية ١٩٥٠م .

جمال عبد الناصر : بكباشى (مقدم) ولد ١٩١٨م بالاسكندرية . درس في كلية الحقوق لفترة ١٩٣٦ . وفي ١٩٣٨ أنهى تعليمه في الكلية الحربية المصرية . خدم في سلاح المشاه . درّس في مدرسة المدربين العسكريين للقوات البرية ثم قام بتدريس التكنيك وكان في شبابه واقعا تحت تأثير مختلف القيادات السياسية (بما في ذلك حركة الاخوان المسلمين) .

أنور السادات : بكباشى من مواليد ١٩١٨م ، يعود في أصوله إلى قرية ميت أبو الكوم بالمنوفية ، وكان والده يعمل كاتبا زراعيا. أنهى تعليمه ١٩٣٨ في الكلية الحربية. خدم في سلاحى الاشارة والمشاه . وكان قبل انضمامه للضباط الأحرار قريبا إلى (مصر الفتاة) و (الاخوان المسلمين) وإلى الدوائر التى كان يقوم أفرادها بنشاط معاد للإنجليز .

جمال سالم : بكباشي بسلاح الطيران الجوى ، ولد ١٩١٨م بالسودان حيث كان يعيش والده آنذاك . أنهى تعليمه في الكلية الحربية المصرية ١٩٣٨م خدم في سلاح الطيران . كان قبل انتمائه إلى الضباط الأحرار عضوا في الحزب الاشتراكى المصرى .

صلاح سالم : صاغ ولد ١٩٢٠م بالسودان . تخرج في الكلية الحربية ١٩٣٨م . خدم في قيادة أركان الجيش ، وقام بتدريس التكاتيك في كلية أركان الحرب .

حسين الشافعى : ولد ١٩١٨ في مدينة طنطا تخرج سنة ١٩٣٨م في الكلية الحربية ثم تخرج في كلية أركان الحرب . خدم في سلاح الدبابات .

علي صبرى : بكباشي ، رأس مخابرات سلاح الطيران المصرى . . .

وهم جميعا من أبناء الفلاحين ذوى الدخول المتوسطة ، وفيما عدا بعض الاستثناءات النادرة لم يكونوا ملاكا لأية قطع كبيرة من الأراضى الزراعية أو أية

ملكيات أخرى بما في ذلك الملكيات الثابتة ، أما علي صبرى فكان عمه يحمل رتبة باشا ، وكان أبوه أحد كبار موظفى الدولة » .

وكانت الكلية الحربية هى الميدان الذى تعرف فيه الضباط الأحرار على بعضهم ، إذ أن دفعاتهم متقاربة فلم يتم تكتلهم بطريقة التشرذم المملوكية وانما تم بطريقة طبيعية (أبناء الدّفعة الواحدة أو الفوج الواحد ، أو الدفعات المتقاربة»

وأحداث ثورة ٢٣ يوليو معروفة مشهورة فلا داعى لتكرارها هنا ، لكن الذى نريد تأكيده أن ما فرضته الثورة بعد قيامها من قوانين للإصلاح الزراعى ؛ وتوسع في التعليم وإباحته بالمجان ، قد جعل العناصر الفلاحية والعمالية غير المملوكية تقتحم كليات الشرطة والحربية وكل الكليات الأخرى فتخرج عدد أكبر من الضباط غير المماليك ، ودخل خريجو المدارس والجامعات من أبناء العمال والفلاحين مجال الحكم والإدارة على نطاق واسع، لكن كان أصحاب التراث المملوكي أو الاعراق المملوكية هم الأقدر على التكتل والوصول للمناصب العليا ، بحكم خبرتهم في الحكم والإدارة التى توارثوها عن آبائهم وأجدادهم فالتراث والخبرات ثورّت أيضا على نحو ماتورث الصفات الفيزيقية ، وإن كان التوريث هنا بطريقة مختلفة كتوارث الخبرات مثلا ، وهذا ما سنوضحه في الفصول التالية عامة ، والفصل الأخير (السابع) على نحو خاص .



الفصل الثاني

الحركة الإسلامية في مصر والتراث المملوكي

- لماذا تأخر (التشرذم) المملوكى في حركة الإخوان المسلمين .
- رأى المؤرخ عبدالعظيم رمضان في أن حركة الإخوان هى أخطر حركة في تاريخ مصر الحديث .
- كيف تحولت فكرة الجهاد لدى الإخوان من جهاد ضد الإنجليز إلى حرب للمجتمع .
- بداية التجنيد وفق المواصفات المملوكية .
- التركيب العرقى والتراثى للإخوان بعد ١٩٥٢
- تأصيل (التشرذم) : الجهاد والتكفير . . . الخ
- هل يمكن أن يختفى الإسلام من مسرح السياسة المصرية .
- الهجرة ليست مشكلة في مجتمع التكدس السكانى .
- مشروع لشغل المساجد .
- تحريم أموال الحكومة .
- خالد محيى الدين ، اشتراكى ومسلم .
- برنامج مفصل لشغل المساجد - في غير أوقات الصلوات - لتكون مدارس لتدريس مناهج وزارة التعليم وتحت إشرافها .

ليس غريبا ألاّ تحقّق المحاولات التى شكّلت ردّ الفعل الطبيعى ضد انهيار الدولة العثمانية والهجمة الغربيّة - أهدافها كاملة أو جانبا كبيرا من أهدافها على المستوى الاجتماعى والإصلاحى. لقد كانت ردود الفعل هذه تتمثل في واحدة من الاستجابات الآتية - وهو تقسيم نظرى كما سيتضح في هذا الفصل :

- الاتجاه الإسلامى .

- محاكاة الغرب والأخذ بأساليبه باعتبار تقدمه العلمى والحضارى هو سبب انتصاره على العالم الإسلامى .

- محاولة التوفيق بين ماهو أصيل إسلامى وما هو غربى معاصر .

ولو أن المناخ الذى جرت فيه أىٌّ من هذه المحاولات كان مناخا طبيعيا أو أنّ التربة كانت ملائمة لحققت نجاحا واضحا خاصة بالنسبة للاتجاه الأول (الاسلامى) والاتجاه الثالث (التوفيقى) لكن الملاحظ أن أيا من هذه الاتجاهات لم يحقق النجاح المطلوب رغم ما أتيح له من فرص للنجاح ، ولنبدأ بالاتجاه الإسلامى وسنركز على دور التراث المماليكى (تراث الرقيق الأبيض) في الانحراف بهذا الاتجاه ، والواقع الذى نريد تأكيده أن هذا الاتجاه الإسلامى ممثلاً في حركة الاخوان المسلمين ظل مبرأ إلى حد كبير من التشرذم المملوكى ، وحقق من ثم انتشارًا جماهيريا واسعًا - ولم تبدأ الضربات تقصم هذا الاتجاه بشكل واضح إلاّ بعد تغير اسلوب الدعوة وأسلوب اختيار الدعاة ووضع مواصفات جديدة لأعضاء الجماعة لم يكن معمولاً بها في المرحلة الأولى الناجحة ، ونحيل القارىء لمعرفة الحقائق الاساسية عن الحركة الاسلامية في مصر (الإخوان خاصة) إلى كتاب رتشارد ميتشل عن الاخوان المسلمين (مترجم للعربية) ولكتاب عبدالعظيم رمضان عن الاخوان المسلمين والتنظيم السرى (والمؤلف محايد وليس من جماعة الاخوان).

كانت البذور الأولى للحركة الاسلامية المعاصرة متمثلة في حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في الجزيرة العربية ، والجهود الفكرية لجمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده وكانت جميعا حركات (سلفية) تهدف للعودة بالاسلام إلى نقائه الأوّل وليس من قبيل الصُّدفة - فيما نرى - أنّ حركة محمد بن عبدالوهاب هى الحركة الوحيدة التى تمخّض عنها أول وحدة ناجحة (محدودة) في التاريخ العربى والاسلامى الحديث ، ومن منطلق علم الاجتماع التاريخي الذى أتبناه هنا ، لا أجد تفسيراً لذلك سوى أن البيئة التى انطلقت منها حركة محمد بن عبدالوهاب كانت بيئة خالية تقريبًا من التراث المملوكى في الحكم (تراث الرقيق الأبيض) ، حقيقة لقد عرفت منطقة نجد في وسط شبه الجزيرة العربية - العبيد والجواري ، مثلها في ذلك مثل المجتمعات العربية الأخرى ، لكن هذه المنطقة لم تشهد طوال التاريخ حكم المماليك أو العبيد البيض ، وإنما شهدت حكومات الأسر الحاكمة التى استطاعت أن ترتبط في مرحلة التوحيد بالأسر الأخرى بالمصاهرة والنسب ، وكان ذلك بالإضافة لشرعية الدعوة للإسلام ومراعاة التوازنات الدولية ، واستغلال التناقضات الدولية هو السبب الرئيسى في نجاح هذه الوحدة العربية الأولى في تاريخ العرب الحديث ، أما التطورات التى حدثت بعد ذلك فليس ذلك مجال بحثنا هنا ، إلاّ أنّه يمكن القول أن الدولة قد بدأت منذ وقت غير بعيد في استخدام (المماليك) لدعم الحكومة ، وتمثل هؤلاء (المماليك) في الفلسطينيين بعد النكبة وبعض الأقليات في البلدان العربية كالأكراد وغيرهم ، والمماليك كما سبق القول ليس لهم ولاء ثابت ، فهم كثيراً ما يتآمرون ضد أميرهم ، كما أن المملوك لايعرف إلاّ مصلحته . . وعلى أية حال فإن الدولة التى حققت بوجودها أول وحدة عربية مازالت قائمة ولم تظهر حتى الآن نتيجة واضحة للصراع المملوكى أو التراث المملوكى الذى لابد أن يُدْخله هؤلاء .

والإخوة الفلسطينيون - مثلهم ، في ذلك مثل بعض الشعوب العربية والاسلامية ، مشبَّعون بالتراث المملوكى ، إلاّ أن ظروف النكبة بعد ١٩٤٨م وما تلاها ، جعلتهم يحسون بالخطر ، فكانوا رغم التشرذم على وعى كامل بمصالحهم الخاصة التى تحتم عليهم قدرًا كبيرًا من مراعاة (المجموعة) الفلسطينية ككُل ، فالفردية في مجتمع العبيد البيض ليس لها أبدا مزايا الفردية في المجتمعات التى تخلو من هذا التراث (غرب أوربا مثلا) .

واستطاع الفلسطينيون والأكراد خاصة أن يشكِّلوا العصب الادارى في بعض البلاد البترولية الصغيرة ، فكان معظم السكرتيرين منهم ، ومعظم مديري المكاتب منهم ، ومعظم المخبرين السِّريين من غير أهل البلاد منهم . . . وهكذا تسلَّل التراث المملوكى إلى مجتمعات لم تعرف التراث المملوكى عبر التاريخ .

وقد تجذَّر التيار الإسلامى بشكل واضح وانتشر في مصر منذ نشأة جماعة الإخوان المسلمين ١٩٢٨ ، واتخذت هذه الحركة في بدايتها أبعادا اجتماعية كما طالبت بالعودة إلى الاسلام في نقائه الأول مع بعض المرونة التى اقتضتها طبيعة المجتمع المصرى ، فلم تكن دعوة الإخوان المسلمين تتَّسم بالتشدد الصارم المتمثل في حركة محمد بن عبدالوهاب في شبه الجزيرة العربية ، وقد أتاحت الظروف لهذه الحركة أن تنتشر في أعقاب النكسات أو ما تحقق للأمانى الوطنية من فشل ، فقد اتسعت رُقعتها بعد معاهدة ١٩٣٦م وبعد حادث ٤ فبراير ١٩٥٢م ، حيث بدا حزب الوفد - ربّما على غير الحقيقة - صنيعة للإنجليز . وكان أمرًا غريبا ألاّ تحدث انشقاقات واضحة وتشرذمات خطيرة في هذه الحركة (منذ ١٩٢٨ إلى بعيد ١٩٥٢) مما يتنافى مع الروح المملوكية ، ومما يتنافى مع التراث المملوكي الضارب بجذوره في المجتمع - عرقًا وفكرًا ، وبدا على

السطح علـى الأقل - أن الحركة ربما قد برئت من هـذا التراث ، وهو الأمر - الذى لو كـان حدث - لكان نـقلة حضاريـة هامة ، لكـن الحقيقـة أن التراث المملوكي لم يُعف الحركة، كل مافـي الأمر أن ظهوره بشكل واضح قد تأخر ، فطوال الفتـرة من ١٩٢٨ (بداية الحركة) حتى ١٩٣٨ كانـت الحركة ذات أبعاد اجتمـاعية ودينية فـقط ، وبالتالى كـان التشرذم الذى قلـلت من حدته طبـيعة الدعوة الدينية التى لبَّستْ لبوسًا صوفيا رقيقا يتناسب مع طبيعة المجتمع المصري - غير واضح أو يكـاد يكون غير موجود ، وبعـد ١٩٣٨ (لاحظ ارتباط هذا التاريخ بخيبة الأمل التى اجتاحت جانبًا كبيرًا من المصريين بعد معاهدة ١٩٣٦) وجدت الجماعة أن أرضيّتها قد اتسعت وأنها اصبحت من القوة بحيث يمكنها أن تطالب بحكومة إسلامية ، ومما يدعو للـدهشة أن كثيرا جدا مما كانت تطالب به الحركة بـعد أن بدأت تدخل المـعترك السيـاسى ، قد تحقق بـالفعل في بـرنامج حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م ، وكان هذا هو بداية الـتشرذم المملوكى في الحركة ، لقد انفجر تراث الرقيق الأبيض بشكل واضح ، فكما قتل بيبرس السلطان قطز بعد عودته منتصرا على المغول ، حاول الإخوان قتل عبدالناصر بعد خلع الملك وإعلان الجـمهورية وإصـدار قانون الاصلاح الـزراعى الذى لـم يكن برنـامج الاخوان المسلمين يخلو من شيء منه قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

لقد كانت وقـفة محمود عبداللـطيف يوم الثلاثاء ٢٦ أكتـوبر ١٩٥٤ لقتل عبدالناصر - تلك المحاوْلة التى فشلت - وقفة ذات طابع مملوكى .

وحتى لوصح التشـكيك في هذه المحاولة وأنها كانت من تدبـير عبدالناصر نفسه (وقـد أورد شيئا كهذا الـدكتور عبدالعظـيم رمضان وهو كاتـب محايد ، والدكتـور فؤاد زكريا وهو لايـخفى خلافه مع فـكر الإخوان المسلـمين)، فإن الأمر لا يخلو من تراث مملوكى أيضا، سواء مـن ناحية عبدالناصر أم من ناحية

الإخوان المسلمين فالمؤكد - تاريخيا - أن كل بقايا جماعات ما قبل ١٩٥٢ كانوا معبئين ضد عبدالناصر قبل إلقائه خطاب الاسكندرية الشهير الذى وقعت أثناءه محاولة الاغتيال .

لقد أسس جماعة الاخوان في مصر الشيخ حسن البنا ، ورغم أنَّه نشأ في أسرة دينية عريقة إلاَّ أن ما يهمنا هنا هو التأمل في الاسم في حد ذاته ، (فالبنا) ليس لقبا مملوكيا ، وانما هو يدل على أن الجد الأعلى للأسرة كان يعمل في حرفة البناء وهى حرفة لم يحترفها المماليك . فتراث الأسرة - إذن - بعيد إلى حد ما عن التراث المملوكي (تراث العبيد البيض) والتراث - كما سبق القول يُتوارث كما تَتوارث الصفات الفيزيقية أو الجسمية. وهذا يفسر أن الدعوة ظلت لفترة طويلة تتخذ أساليب غير مملوكية فالمؤرخ عبدالعظيم رمضان يقرر أنه من الثابت لديه أن فكرة العنف لم تكن واردة في عقله اصلا، وإنما نشأت الحركة - على يد البنا - كرد فعل سلفى لحركة التغريب في المجتمع المصرى مع الاعتراف بما في حضارة الغرب من مفردات لابد أن ينقلها العالم الاسلامى إن اراد التقدم ، وكان الملتفون الأساسيون حول البنا من أصول فلاحية وعمالية وبورجوازية صغيرة ، ويرى المؤرخ عبدالعظيم رمضان أن البنا - وجماعته الأولى - لم يلتفتوا إلى الكفاح السياسى ، ولما عُيِّن حسن البنا في الاسماعيلية بعد حصوله على دبلوم دار العلوم ١٩٢٧ اصطبغت دعوته بصبغة مصرية هادئة فاختار المقاهى - وليس المساجد - مجالاً للدعوة ، وكون من شلّة المقهى مجالا لدعوته، فتأثرت شلّة المقاهى بدعوته الهادئة وطلبوا منه تشكيل جمعية أو نقابة، والطريف أن حسن البنا رفض فكرة التشكيل المنظم ،

وقال لهم ليس المهم الشكل وإنما نحـن جميعا إخوان مسلمون - ويرى رمضان أن هذه الكلمة كانت بداية (أخطر حركة في تاريخ مصر الحديث) وأسلوب البنا حتى الآن أقرب إلى أسلـوب المصرى القبطى الذى يفضل الـتستّر أو عدم لفت النـظر، وهو أبـعد مايـكون عن أسلـوب التشـرذم المملـوكى ، وظلـت دعوة الاخوان تـتبـنّى الأسلوب الـسلمـى والعـمل الاجتـماعي واصـدار الصـحف والمجلات ، والوعـظ والإرشاد، وحتى بعـدما تبلـور فكر الاخوان المسـلمين حول ضرورة قيام دولة إسلامية، والتـركيز على أن الاسلام دين ودنيا ، وكان ذلك قد تم الاعلان عنه بوضوح سنة ١٩٣٨ أي بـعد حوالي عشر سنوات من نشأة الجماعـة ومع هذا فقد كان هذا الاعلان مـقترنا بالثقة فـي « جلالة الملك المسلـم » أو (ولى الأمر) وهو أسلـوب غير صدامـى ، يتلمس الـطريق دون صدام مع السلطة ، ولا شك أن إعلان البنا عن هذه الخطوة لم يكن ليتم لولا أنّه أحس أن (تنظـيمه) قد انتشـر انتشارا هائلا وحـتى الآن (١٩٣٨) كان ما حققته الجماعة هائلاً في مجال الاجتماع الـتاريخي ، فلم تعهد مصر (تشكيلا) يتم ويتسع بهدوء دون صراع بين شُعب هذا التشكيل. لم يحدث تشرذم مملوكى ولـم يحدث صراع (حتمى بين شُعب الجماعة ، ولـم يحدث صدام (حتمى) مع السلطة ، فما تفسير ذلك ؟ إن هذا يرجع فيما نرى لجملة أسباب :

أولها : أن تراث التشرذم المملوكى كان أقل ما يمكن أن يكون في شخصية البنا لأسباب اشرنا إليها ، وأن أسلوبه فـي الدعوة كان اجتماعيًا هادئا لا يحمل روحا صدامـية للسلطـة ، وأن البنا لم يـتخلّ عن المسـحة الصوفية لـدية رغم سلـفيته ، وأن الـبنا كان حـريصا علـى عدم الخوض في الـتفاصيـل الفقهـية واللاهوتية ، وكان يركز على ماهو (عملى) و (مفيد) وأن تنظيمه كان ذا عباءة واسعة لاتمانـع من ضم مختلف الاتجـاهات والمناصب ، كعبـاءة الحزب الواحد

التي شهدتها مصر بعد ١٩٥٢ ، وإذا كان تشرذم المماليك يدور - غالبا - حول التآمر لإسقاط السلطان القائم أو الوصول لمكانه - فإن الجماعة حتى ذلك الوقت (١٩٣٨) بإقرار مؤرخ قدير (عبدالعظيم رمضان وهو ليس من جماعة الإخوان) لم تكن تسعى للوصول للسلطة . آه لو استمرت الحركة على هذا المنوال فترة أطول لاستفادت مصر كثيرا ، بل لاستفادت الجماعة نفسها ، ووصلتها السلطة حتى أعتابها ، بدلا من أن تسعى هى إليها .

وحتى بعد إعلان البنا أنه سيدخل حلبة السياسة وطالب بالعمل على قيام الدولة الاسلامية - فإنه أراد أن يصل لهذا في ظل الشرعية كما يراها هو لقد بدأ يُداعب (الملك المسلم) وينضم إلى صفّة ، وقد ازدادت شُعب جمعية الإخوان ومراكزها انتشارا هائلاً تحت عباءة الملك ومباركته بعد ١٩٣٨ ، وليس من هدفنا في هذه الدراسة أن نُدين فريقا ونؤيد فريقا آخر ، فدراستنا هذه التى نراها جديدة تمامًا هى في مجال الاجتماع التاريخى ، ومن ثم فلا يعنينا كثيرًا القول بأن الملك شجّع الاخوان ليضرب بهم حزب الأغلبية أو أن الاخوان انتهزوا الفرصة للوقوف إلى جانب الحكومات الدكتاتورية ضد الديمقراطية وإن كان هذا لا يمنع من أن نشير هنا إلى أن القول بأن حكومة حزب كذا أو حزب كيت كانت تمثل الأغلبية - قول فيه مغالطة من وجهة نظر علم الاجتماع التاريخي لأن الفوز في الانتخابات - وربما مازال الحال كذلك - ليس للأكثر شعبية أو فائدة ، وإنما للأكثر براعة في استخدام أساليب التشرذم المملوكية - وهى تراث مصرى عريق وتشارك دول عربية عديدة في هذا التراث .

وحتى بعد أن أسس الاخوان (فرق الرحلات) وهى فرق أعدت (للجهاد في سبيل اللـه) فإن ذلك تم تحت سمع الملك ومباركته ، بل قيل أن أصحاب القمصان الخضر (حزب مصر الفتاة) كانوا مؤيدين من الملك ضد جماعة

أصحاب القمصان الزرق (الوفدية) ، وأثناء الحرب العالمية الثانية ضم البنا جماعة الرحلات (العسكرية) إلى جماعة الكشافة التابعة للدولة ، بل إن تسليح كتائب الإخوان لم يكن بمنأى عن موافقة الملك الذى اقتنع أو أدخل في روعه أن هذه القوة هى رصيد له ضد الأحزاب الأخرى ، ومن الثابت تاريخيا أن البريطانيين هم أول من تسبب في حدوث أول صدام لجماعة الإخوان مع السلطة ممثلة في وزارة حسين سرى باشا وتم اعتقال حسن البنا وآخرين بتحريض من السفارة البريطانية كما تمت مصادرة صحفهم بتحريض ايضا من السفارة البريطانية ، وكان هذا سنة ١٩٤١ (راجع عبدالعظيم رمضان ، وهو كاتب لاينتمى للجماعة في كتابه « الاخوان المسلمون والتنظيم السرى » ، ص ١٢٩).

وقد وقف الملك إلى جانب الإخوان في هذه المحنة التى أدت إلى أن يعمل الاخوان على توسيع تنظيمهم السرى والعسكرى ، كما أن الوفد وثّق علاقته بالاخوان لاقتناعه بأهميتهم ، ولأن عباءة الاخوان الواسعة لم تكن تمنع أن يكون شخص ما وفديا وإخوانيا في آن واحد .

وليس هنا مجال لانتقاد تحول فكرة الجهاد الاخوانية من جهاد الانجليز ، إلى جهاد المصريين حكامًا وغير حكام إذا خرجوا عن (الطريق الصحيح) كما يراه الاخوان، فقد كتب المؤرخون في ذلك ، لكن ما يهمنا أن هذه الجماعة لم تتشرذم) حتى الآن رغم دخول هذه الفكرة الجديدة ، أو رغم الانحراف بالفكرة القديمة ونعنى بها فكرة الجهاد . . من المفهوم أن تفهم جماهير الاخوان أن الجهاد ضد الانجليز واجب شرعى باعتبارهم يحتلون البلاد ويسلبون أهلها حقهم في الحرية والاستقلال ، لكن كيف تم تحويل الفكرة لتكون جهادًا (داخليا) ضد الاتجاهات المناهضة للإخوان . المنطق يقول إن (خلافا) أو

(انقسامًا) أو (تشرذما) على نحو ما كان لابد أن يظهر بين الجماعة ، والخلاف في هذا الحال أمر مقبول وقائم ولكنه لم يحدث بشكل واضح ، والأقرب من ذلك أن (التشرذم) بمعنى ظهور أفراد يجعلون من الاختلاف حول هذه الفكرة أساسا لتشكيلات أو تكوينات أو تكتلات تهدف للوصول إلى السلطة داخل الجماعة أو إزاحة المرشد والجلوس في منصبه - كل ذلك لم يظهر ، وهو أمر في حاجة للتأمل في مجتمع كالمجتمع المصرى يسرى التراث المملوكى (تراث تشرذم العبيد البيض) فيه مسرى الدم . وهناك تفسيرات كثيرة ، لعل من بينها الجاذبية الشخصية للمرشد العام ، وأسلوب التربية والطاعة ، لكننا من منطلق بحثنا هذا لايمكن أن نغفل ما لاحظه الجميع من أن « الجمعية كانت حريصة الحرص كله على أن تختار في نظامها السرى أو الخاص طائفة من الفقراء ، فقد شهدتم الحداد والمطبعجى والسمكرى والعامل في وزارة الصحة » وقال جمال سالم بعد ذلك (١٩٥٤) : «الحمد لله ، كل الجهاز السرى خردواتية وسمكرية وموظفين في الدرجات الصغيرة.. مفيش مهندس ولا مدير إدارة »

والغريب - مرة أخرى - أنه بعد نكبة الإخوان المسلمين ١٩٤٨ رغم انتقامهم بقتل النقراشى باشا ، فإن هذه الجماعة لم (تتشرذم) داخل المعتقلات بعد الاستيلاء على اموالها ومراكزها وقتل مرشدها حسن البنا على يد رجال القصر الملكى سنة ١٩٤٩ - فيما يقال ، ورغم تعيين الهضيبى مرشدًا عامًا ، وهو تعيين ثارت حوله أقاويل كثيرة - أثبتتها الحوادث بعد ذلك - أنه كان (مفروضا) أو مباركا من الملك ، ورغم أن الهضيبى من الأعضاء البارزين في الجماعة - فإن الخلافات داخل الجماعة لم تنفجر بشكل واضح، وظل الخلاف العلنى يجرى في نطاق الجماعة على نحو ما تجرى الخلافات داخل أي (حزب) متماسك ، وجرى فصل أعضاء أساسيين ومع ذلك فإن ملامح التشرذم

المملوكى المتبوع بالصراع المسلح لم يظهر بين الجماعة ، ونكرر أن هذا أمر غريب ، خاصة أن الجماعة كانت تمتلك جهازا عسكريا ، وأن هذا الجهاز نفسه لم يكن خاليا من الاختلاف بين الولاء للمرشد والولاء لرئيس الجهاز .

ولايمكن من المنظور الذى نتخذه هنا أن نفرع هذه الخلافات رغم أنها لم تصل إلى حد (التشرذم) من تراث مملوكى تسلل للجماعة عن طريق الهضيبي نفسه (تأمل الاسم ، ثم أضف إلى معلوماتك أنه شغل منصبه بتزكية من الملك ، وأنه صهر لناظر الخاصة الملكية ومعنى ذلك أن التراث المملوكي واضح فيه ، بل والعرق أيضا) .

بداية الانقسام ووضوح التراث المملوكى (تراث العبيد البيض) في الحركة الاسلامية :

يرى د. عبدالعظيم رمضان وهو مؤرخ غير إخواني ، ولا يخفى عدم تعاطفه مع فكرهم أن الإخوان المسلمين كانوا يعلمون بميعاد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وأنهم اشتركوا فيها اشتراكًا فعالا ، وأن كتائبهم كانت تحرس قادتها ، وهذا ليس بمستغرب فمعظم ما قامت به الثورة ونادت به - بما في ذلك التعامل مع الكتلة الشرقية (الاتحاد السوفيتي السابق والكتلة الشيوعية) - نجد له جذورا واضحة في فكر الاخوان قبل ١٩٥٢ ، بل لقد تحالفوا لفترة يسيرة مع الشيوعيين المصريين ، ومع كل هذا التوافق الفكرى والمشاركة الفعلية مع ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ إلاّ أن الإخوان رفضوا دخول وزارة الثورة وهنا ـ فيما نرى ـ يظهر أول (تشرذم) ذى طابع مملوكى ، فما دامت المبادئ الأساسية واحدة ، فلماذا شكل الاخوان (كتلة) في مواجهة (كتلة) ثورة يوليو ، لقد قيل في تفسير ذلك مايؤكد ما نذهب إليه ، لقد برّر الاخوان ذلك بأن دخولهم وزارة الثورة ، سيعطى الثورة طابعا إسلاميا ويزيد - بذلك - من شعبيتها ، كما أن

غلبة العناصر العسكرية سيجعل القول الفصل لهذه العناصر وليس للإخوان ، كما أن (الأخطاء) التى سيقع (أو وقع بالفعل) فيها رجال الثورة سينسب جانب منها للإخوان باعتبارهم مشاركين ، ومما يزيد من تأكيدنا على التراث المملوكى المتسرب للإخوان في مرحلة مابعد حسن البنا أنه كان للإخوان تنظيمات (داخل الجيش) ، و (داخل الشرطة) وكانت هذه التنظيمات مشاركة في حركة الجيش في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، فالتشرذمات الهادفة للوصول للسلطة رغم عدم وجود فروق فكرية أو منهجية بينها لا يمكن وصفها إلاّ أنها تراث مملوكى صميم .

وانتهى الأمر على أية حال – كما هو معروف – بأن ضرب عبدالناصر هذه الجماعة ضربة موجعة (لكنها ليست قاضية) سنة ١٩٥٤، ويلاحظ أن الجماعة غيَّرت منذ هذا التاريخ فصاعدا أسلوبها في تجنيد أو ضم الأفراد إليها، كما يلاحظ أنها قللَّت من مجال نشاطاتها في مجال الدعوة وهو ماكان سمة من سماتها قبل ذلك ، كما قلَّت كثيراً من تركيزها على (التربية) ودروس المساجد، ودروس الوعظ والتوجيه وأصبحت تجمعات الأسر أكثر حذرا وأكثر ميلاً للعمل السرّى، ويهمنا في هذا السياق أن نركز على اختيارها للأفراد، فقد كانت الشروط البدنية (الجسميّة) هي العامل الحاسم : الطول ، العرض ، القوة العضلية ، تحمل المشاق . . . الخ ، وغطت تدريبات إطلاق النار والكر والفر على التدريبات الروحية . . . إلخ وبدأ النظر للمجتمع (كعدو) بدلا من اعتباره مجالا للدعوة وتربة للإصلاح، قد يكون ما تعرض له الإخوان من أزمات بعد ١٩٥٤ هو السبب ، لكنه ليس السبب الوحيد، وانما هناك أسباب أخرى وهى اختلاف طريقة تجنيد الأعضاء ، فبعد أن كانت عباءة الإخوان واسعة أيام حسن البنا الذى كان به مس صوفى رقيق، بحيث قبل الإخوان

بينهم حتى شاربى الخمر بأمل إصلاحهم - أصبحت الجماعة تبحث عن (السوبر مان) لتضمه إلى صفوفها ، وبذلك تسلل التراث المملوكى بشكل واضح فأصبح العضو (الألفى) أفضل من (الميهى) والميهى أفضل من (العشرى)، والعشرى أفضل من (الخميسي) ، و(الميتكيس) أفضل من الجميع (والترابي) أفضل من (المجلوب) و(السندى) أفضل من (الشندويلي) . . وهكذا ولعل المطالع لمناظر التائبين وغير التائبين التى عرضها التليفزيون المصرى توضح أنه تم الاختيار بناء على (بسطة) في الجسم ، وعرفنا من عرفوا (بالأفغان) وهم مصريون لديهم (بسطة) في الجسم و (بسطة) في استخدام السلاح ، و(البسطة) في الجسم غالبا ما تعطى صاحبها إحساسا بالزعامة إذا صحبها شيء (قليل) من الثقافة أو العلم ، فتقوِّى لديه الاحساس المملوكى بضرورة التشرذم أو تكوين جماعة للوصول للسلطة أو لضرب (جماعة) أخرى مناوئة ، والغريب أن بعض الاخوان ومنهم الهضيبى لاحظوا أن « روح العصابة » بدأت تهيمن على الإخوان خاصة من كان منهم في التنظيم الخاص، وهذا التعبير (روح العصابة) هو تعبير الهضيبى نفسه بالنص - بل لقد ركز يوسف طلعت مسئول الجهاز السرى بعد السندى أنه لاحظ في الجهاز أشخاصا لاتنطبق عليهم مواصفات الإخوان المسلمين ويقصد أنهم لم يتلقوا (تربية) صحيحة ، وأنهم قد انضموا للجهاز حديثًا . وربما كانت طبيعة الجهاز الخاص (كجهاز سرّى) مثلها في ذلك مثل معظم الأجهزة السرية لا تعفى من يخرج منها - بعد كشف أسرارها - من القتل ، لكننا - من منطلق منظور بحثنا هذا - نرجع هذا التطور الخطير نحو (التشرذم) والصراع إلى تسلل التراث المملوكى ووضوحه بعد ١٩٥٤ خاصة بعد تغيير خطة الضم للجماعة ، ليصبح محورها القدرات الرياضية والعسكرية والصحة البدنية، وإحلال فكرة (الانتقام) محل

فكرة (الهداية) ، والفكرة الثانية (الهداية) فكرة مصرية عريقة مسيحية وإسلامية) والفكرة الثانية (الانتقام) فكرة مملوكية اصيلة وقد تعمقت فكرتا (الانتقام) و(التكفير) أي تكفير المجتمع بعد حركة ١٩٦٥ التى تعرض فيها الإخوان لنكبة شديدة لقد راح عبدالناصر يفرج شيئا فشيئا عن معتقلى الإخوان طالما كان يكتسب مساحات جماهيرية واسعة ، فقد كسب جماهير الفلاحين بعد الإصلاح الزراعى ، وكسب جماهير عمالية عريضة بعد تأميم قناة السويس والسير في الخط الاشتراكى وثبت الاستقلال ، وكسر احتكار السلاح . . . الخ مما بدا وكأنه تطبيق لمطالب الاصلاحيين ، بما فيهم الحركة الإسلامية ، لكن الإخوان هذه المرة (١٩٦٥) كان تركيبهم (الإثنى) أو (الثقافى) أو (التراثى) أكاد أقول حتى (العرقى) كان قد اختلف عنه في بداية الحركة. لقد كان من الطبيعى ألا يعارض (اليسار) ما قام به عبدالناصر ، كما كان من الطبيعى أن بعض أو كل القوى الديمقراطية بدأت تميل إليه ، لذلك عندما خرج الاخوان من المعتقلات وجدوا (حصيرتهم) قد انحصرت ومجال عملهم قد تقلّص ، فلم يعد (العمال) مجال عمل مفتوح أمامهم ولم يعد (الفلاحون) مجالاً سهل المنال بعد أن تمتع الفلاح بمزايا الإصلاح الزراعى ، فلم يجد الإخوان مجال المجتمع مفتوحا أمامهم (فكفروه) وأرادوا (الانتقام منه) لأنه يعيش في (جاهلية) ، وكانت هذه هى الظروف التى خرج بها سيد قطب -رحمه الله - على الناس بفكرة (المجتمع الجاهلى) ، وحدثنا سيد قطب عن (الطليعة) أو (الصفوة) التى يتحتم عليها اسقاط هذا المجتمع الجاهلى. لقد بدأت إذن فكرة (الطليعة) أو (الأقلية المنظّمة) التى تهزم المجتمع (الجاهلى) بامتداده العريض ، بعد أن كانت الحركة ذات عباءة عريضة (شعبية) .

وقتلت جماعة الجهاد (أو الجماعة الإسلامية بمصر كما يسمون أنفسهم) ـ وكل الجماعات والتشرذمات الاسلامية التى خرجت على الساحة هى في حقيقة الأمر تشرذمات مملوكية خرجت من رحم الاخوان المسلمين ـ قتلت أنور السادات في السادس من أكتوبر ١٩٨١ وكان قتله في هذا اليوم أمرًا غريبا ، ولاشك أن إخراج اليهود من سيناء والأراضى المحتله مطلب اسلامى، ولا شك أن السادات أعطى للفكر الاسلامي فرصة التعبير عن نفسه . . لقد كان إذن قتله ردّة مملوكية واضحة ما في ذلك جدال ، وتوالت التشرذمات : الجماعة الاسلامية بمصر (الجهاد) وجماعة المسلمين (التكفير والهجرة) وجماعة التحرر الاسلامى (جماعة الفنية العسكرية) . . بل وظهرت جماعات تحمل اسماء أشخاص (الشوقيين مثلا . . .) أما وقد اقتحم التراث المملوكى التيار الاسلامى اقتحاما عنيفا فليس من المتوقع في المستقبل المنظور على الأقل أن تخف حدة (التشرذمات) أو (التجمعات) بل ستزداد عددًا ، وسيحدث النزاع والاقتتال بينها ربما على غير أساس من خلاف فكرى ، وستزيد المواجهة الأمنية من عدد هذه التشرذمات ، لكن لن يحدث أبدا أن يختفى التيار الاسلامى من المسرح . هذا محال . وهذا ضد منطق التاريخ وهذا ضد طبيعة المجتمع المصرى وهذا ضد أبسط مبادىء الاجتماع .كيف ؟ هذا ماسنوضحه في الفقرات التالية .



هل يمكن أن يختفى التيار الاسلامي من مسرح السياسة المصرية ؟

عنـدما كتب طـه حسين مطـالبا بالأخـذ بحضارة الـغرب اخذا كامـلا ، ما (يستحـب منها ومايعاب) عدّه المـصنفون لدعاة الاصلاح من (صـنف) الداعين للتغريـب ، لكن طه حسين كتب بـاللغة العربية الـفصيحة وظل مدافعـا منافحًا عنها لآخر عـمره فهل اللغة العربـية من معطيات الحضارة الأوربـية؟ وكتب طه حسين كتـابات جيدة في التـاريخ الاسلامي قد يختـلف البعض معـه في بعض جزئياتـها، لكن هذه الكتابـات لا تضعه في موضع أعـداء الاسلام ، وقبل أن يلحق الرجل بـالرفيق الأعلى كان لايكف عن تلاوة الـقرآن الكريم ، وتم دفنه على الطريقة الاسلامية ، فهل القرآن الكريم من معطيات الحضارة الأوربية ؟

كان الـرجل إذن مسـلما له وجـهة نظـره في مسـألة تقدم مـصر والعـالم الاسلامى لاتختلف في جوهرها عن وجهة نظر الجماعات الاسلامية .

وجمال عبـدالناصر كان من المنتـمين لجماعة الاخوان المسلـمين ، وشكل جماعة الضبـاط الأحرار وقام بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ولما وصل لـلسلطة رأى بحكم موقعه مـا لم يكن جمهور التيار الاسلامى بقادر عـلى رؤيته ، ومن هنا اختلف (تكتيكه) لتحقيـق الأهداف نفسها : الاستقلال ، الاصلاح الزراعى ، تأميم قناة السويس ، اعادة الحقوق للعمال . . .إلخ وكلها مطالب كانت مدرجة على نحو أو آخر في برامج التيار الاسلامي قبل ١٩٥٢.

وفي عهد عبدالـناصر لم يتوقف بناء المساجد ، ولـم تحذف مقررات الدين من المدارس ، وتم تـطوير الأزهر، وتم إنـشاء محطـة إذاعة للقـرآن الكريم . الرجل إذن مـسلم ، فهـل إنشاء محطـة إذاعة تظل ترتـل القرآن الكـريم بكرة وأصيلاً من معطيات الحضارة الغربيـة ؟! ولاقى الرجل ربه ودفن على الطريقة الإسلامية في مسجد يحمل اسمه ، ورغم أن المسلمين السلفيين ينكرون الدفن

في المساجد ، فإن هذا الموضوع لم يكن هو السبب في غضبهم على الرجل إلى حد إخراجه من زمرة المسلمين .

وقد تحالف الإخوان المسلمون أنفسهم قبل الثورة مع الشيوعيين في مرحلة من المراحل، فهل يمكن أن نعتبر تحسين عبدالناصر للعلاقة مع الكتلة الشرقية ، والحصول على صفقه السلاح الأولى - لكسر احتكار السلاح - من مصدر غير غربى ، دليلا على خروج الرجل من زمرة المسلمين ، هذا محال .

وخالد محيى الدين في مذكراته (الآن أتكلم) يبدى اعجابا بحياة التصوف والتدين ، ووصف العبارة (اشتراكى مسلم) بأنها عبارة أثارت إعجابه ، وقد طلب منه عبدالناصر أن يؤسس جريدة ذات طابع يسارى فأسس بناء على طلب عبدالناصر (جريدة المساء) لأن اليسار تيار لا يصح ألاّ تكون له صحيفة تمثل رأيه في مصر كما هو في كل أنحاء العالم على حد رأى عبدالناصر ، المسألة إذن مسألة متعلقة بفن الحكم ولا علاقة لها بالخروج عن الإسلام . المسألة إذن مراعاة للاستراتيجية الدولية ولا علاقة لها بالخروج عن الاسلام ، وحزب مصر الفتاة كان يرى أنه من الممكن - أذا كان نواب البرلمان من المؤمنين بتطبيق الشريعة ـ أن يتم بث الروح الاسلامية في الدساتير والشرائع عبر النظام القائم ولا علاقة لهذا الخلاف في الرأى بالخروج عن الإسلام .

من المحال في الواقع شطب أكثر من ١٤٠٠ سنة من التاريخ المصرى ، فالاسلام مكوّن أساسى من مكونات مصر والمجتمع المصري، تماما كالمسيحية ، وقد اختلط التراث الاسلامى بالتراث المسيحى على نحو فريد ، فالفكر الصوفى الإسلامى لايخلو بأى حال من مسحة مسيحية قبطية ، بل إن الافراط في اعتقاد بعض المصريين في كرامات ومعجزات الأولياء هو في حقيقته انعكاس لعقائد قبطية صميمة في قدرة القديسين على الشفاء والإتيان بالمعجزات

ولسنا هنا بصدد نقد للعقائد أو استنكار لبعض الأفكار، وانما نحن نقرر وقائع موجودة من منظور علم الاجتماع التاريخى، والمسيحيون المصريون يقرأون العهدين القديم والجديد باللغة العربية وليس من المتوقع في المستقبل المرئى أن تقرأه جماهير المسيحيين المصريين باللغة القبطية ، مع أن محاولة إحياء هذه اللغة بالتدريس في الكنائس والمؤسسات المسيحية تجرى على قدم وساق ، لكنها - فيما نرى - ستظل حبيسة قاعات الدرس ، ولن تكون لغة حديث عام . ويحدثنا لويس عوض (في مذكراته التى أسماها أوراق العمر) أن المسلمين والمسيحيين كانوا يتبادلون الزيارات والهدايا في أعياد المسلمين والأقباط على نحو يأخذ الطابع الطقسى ، بمعنى أن ذلك يبدو وكأنه فرض إسلامى إذا كان القائم به مسلما ، وكأنه لازم مسيحى إذا كان القائم به مسيحيا، ومسيحيون مصريون كثيرون يحفظون القرآن الكريم باعتباره نصا لغويا أدبيا راقيا .

المشكلة إذن ليست في التيار الاسلامي وإنما في التيار المملوكى (تراث العبيد البيض) الذى اختلط بالتيار الاسلامى اختلاطا خطيراً ، كما اختلط بغيره من التيارات بما في ذلك تيار التغريب - كما سيتضح في سياق هذا البحث .

فحتى الأفكار التشرذمية التى تبدو خطرة يمكن توجيهها وتصفية التراث المملوكى منها ، وتوجيهها لخدمة الدولة والمجتمع .

فتيار تكفير المجتمع والهجرة منه ، لا يخلو من جوانب إيجابية في دولة تعانى من تزايد عدد السكان وتضخم جهازها الإدارى وشيوع البطالة المقنّعة فيه فالصحراء الشرقية وجبال البحر الأحمر والصحراء الغربيه كلها تشكو من ندرة السكان ، وهى مساحات يمكن أن تكون مكانا لمن يريدون إقامة مجتمع الفضيلة قبل أن يصبحوا أقوياء ليقوموا بغزو الوادى والدلتا حيث المجتمع (الكافر) ، وإلى أن يحين وقت الغزو تكون قد جرت في الأمور أمور ، والسيوف

والعصى والبنادق لاتصلح لهذا الغزو ، وفي الوقت نفسه تكون مساحات قد أصبحت خضراء عامرة بالسكان .

وتحريم أموال الحكومة والعمل بها يمكن أن يكون نواة لازدهار المشروعات الصغيرة ، أما الشحنة الخطرة في الموضوع فيمكن امتصاصها بمرور الوقت بل إنها ستختفى بالضرورة ، وستتلاشى حتما لسبب بسيط وهو أن المشروع في حاجة إلى سوق وللسوق قواعده، فلا أحد يفكر إذا كان يبيع لمؤمن أو كافر .

وإذا ما انتقلنا لأخطر مافي التنظيمات الاسلامية التى اختلطت افكارها بالتراث المملوكى ، وهو تجنيد الشبيبة والقيام بعمليات (تربوية) قد تؤدى إلى تشرذم المجتمع ككل وانقسامه ، فإن حل هذا المشكل لايكون بإغلاق المساجد بعد الصلوات لأن في هذا تعطيلا لطاقات (مساحات) هائلة ، ولا يكون بالمواجهة الصدامية مع المصلين ، وانما يكون ببساطة شديدة (بشغل) هذه المساجد لا تعطيلها) ، وقد تبدو الفكرة غريبة بعض الشيء لكن مزيدا من الشرح يوضحها . فالمساحات الزمنية بين صلاة الفجر وصلاة الظهر تكفى ليوم دراسى - تحت إشراف وزارة التربية - لحل مشكلة مدارس التعليم الابتدائى ، وسيقوم الشيوخ بالتمهيد لذلك في الصحف والاذاعة والتليفزيون موضحين - وهذا حقيقى - أن المسجد كان دوما مكانا للعملية التعليمية عبر التاريخ الاسلامي كله ، وسيؤيد موظفو المسجد هذه الفكرة بمجرد تعيين فراش المسجد كفراش للمدرسة ليحصل على أجر إضافى ، ومجرد الاستعانة بإمام المسجد لتدريس الخط العربى أو بعض حصص التربية الاسلامية . سيكون المسجد (مشغولا) بمقررات وزارة التربية طوال الوقت .

أما تفاصيل هذا البرنامج ومايواجهه من عقبات تربوية فقد آثرت أن أجعل له دراسة تفصيلية مستقلة ألحقها بهذا الفصل ، وبذلك لا تتم مداهمات

للشرطة ولا تلقى في المساجد في غير أوقات الصلوات مايفككك أواصر المجتمع وفي الوقت نفسه لا تعطل الصلوات ولاتغلق المساجد ، والمدرس تابع لوزارة التربية والتعليم ، والمقررات هى نفسها مقررات وزارة التربية، إن هذه المدارس لن تكون بؤرًا للتطرف كما قد يتبادر إلى الذهن[١] .



(١) انظر الملحق حيث أوردنا برنامجًا مفصلاً لشغل المساجد - في غير أوقات الصلوات ـ لتكون مدارس لتدريس مناهج وزارة التعليم وتحت إشرافها .

الفصل الثالث

حركة التغريب والتحديث

والتراث المملوكي

- التغريب : عندما اختلطت مفردات الحضارة الغربية بتراث العبيد البيض
- الطرخانات .
- الدقشرمة .
- تشكيل الجهاز الإدارى واحد في أوربا والدولة العثمانية ، والفارق - فيما يقول باحث غربى - أن الثانى مشكل من الرقيق السلطانى .
- تداخل اليمين واليسار .
- انفجار الانفتاح وتراث الرقيق الأبيض .
- لماذا يخاف المصرى من قسم الشرطة ؟
- ماجدوى القوانين إذا كان سيطبقها أولاد الدقشرمة .
- المثالية ورد الفعل السَّلفى .
- لماذا لم يحقق تطبيق النظم الغربية النتائج نفسها التى تحققت في الغرب
- الاتصال غير الحساس بين قمة الهرم وقاعدته .
- جذور تاريخية لبعض الشتائم .

عندما اختلطت مفردات الحضارة الغربية بتراث المماليك :

لم تسر الأمور في شرق أوربا بالوضوح نـفسه الذى سارت عليه في غرب أوربا منذ عصر النهضة الأوربية المعروفة (القرنين الخامس عشر والسادس عشر) لسـبب نراه واضحـا وهو أن شرق أوروبا تـعرض ـ وبقـوة ـ لتأثيـرات التراث المملوكى (تراث الرقيق الأبيض) في ظل الدولة العثمانية ، كما كان شرق أوربا (بالإضافـة لمناطق أخرى) موردًا لـلرقيق الأبيض الـذى حكم في معظـم أنحاء العالـم العربى والاسـلامي وترك تراثا خـطيرا مازال فاعـلاً مؤثرا ، فقـد امتد سلطان الـدولة العثمانيـة إلى معظم أنحاء شـرق أوربا، وبالتالى امتـد جهازها الإدارى من الرقيق الأبيض إلى أنحائها وثمة فارق جوهرى بين الجهاز الإدارى العـثمانى والجـهاز الادارى في غرب أوروبـا في هذه الفـترة رغم أنهـما - أي الجهازيـن - كانا من النـاحية الشكلـية (فقط) متـشابهين ، ولنـدع واحدا من المهتـمين بالافكـار الاجتماعـية في التاريـخ يحدثنـا عن ذلك ، يقـول المراقب الهولندى ريكوت Raycot ان توسع البيروقراطية العثمانية ونموها كان متوازيا مع بيروقراطية القوى الأوربية مع وجود فارق واحد هام، فإن الإنسان إذا تأمل نسيج (تكوين) الحكـومة العثمانية ككل فسيجدها مـصنعًا للرقيق . . . . . وقد أدى اهتمـام السلطة المركـزية بالرق وجعلـه أساس النظام الـعثمانى العـسكرى والإدارى . . . وليس للرقيـق أن يفكر في الأحوال العادية ، وإنما عـليه انتظار أوامر السلطان .

عندما تحوّل السّباهى إلى جامع ريع :

يقـول بول كولـز في كتـابه (العثـمانيـون في أوربا) وهـو مؤرخ مهـتم بالتحليـل الاجتماعى إن السباهيين فـي القرن السابع عشر مالوا لـلاستقرار في مزارعهم وعقاراتهـم المستقلة . . فالمقاتلون الذين لا جـذور لهم والذين عاشوا

على صهوات الجياد ولم يكونوا يهتمون كثيراً بأصولهم ولاحتى بنسلهم تحولوا إلى أصحاب أراض كسالى وهم لايقطنون حتى في أرضهم وأنما يقطنون المدن حيث ينعمون بالملذات ، ويتولى أتباعهم متابعة الأرض وموافاتهم بعوائد مزارعهم (ريعها) . . . » وهى نفس فكرة الطرخانية التى مارسها النظام المملوكى أيام دولة المماليك في مصر ، إذ كان يهب المملوك العجوز الذى لم يعد قادراً على الحرب والتآمر قطعة أرض يعيش من ريعها، وهذه الأرض هى الطرخانية، أما هو فيصبح (طرخان) يعيش من ريع هذه الأرض، وقد اعتاد العمال الزراعيون في هذه الطرخانيات في مصر أو هذه الاقطاعات العثمانية في شرق أوربا أن يعيشوا في غيبة (صاحب الأرض) . . في ضوء هذه المعلومات هل يمكننا أن نفسر انتشار الشيوعية في شرق أوربا وعدم انتشارها - بالقدر نفسه - في غرب أوربا ؟ بمعنى أن تأصل فكرة المال الذى لاصاحب له أو الأرض التى لا مالك لها (لأن السباهى أو الطرخان غير موجود غالبًا) ساعدت على انتشار فكرة ملكية الدولة (والدولة مالك غائب) ؟ وأظن أنه يمكننا وفقا لهذا أن نفسر أن الأحزاب الاشتراكية أو الشيوعية في غرب أوربا عندما وصلت للسلطة لم تعطّل حركة الانتاج، ولم يثبت أن إنتاجية العامل الإيطالى أو الفرنسى قلت في ظل حكومة اشتراكية أو زادت في ظل حكومة يمينية . لقد كان التغير الحادث هو - فقط - في السياسات ، وفى التوجهات ، بمعنى أنه يمكننا القول بشىء من التعميم الخطر أن الحواجز الفعلية بين اليمين واليسار في غرب أوربا لم يكن لها وجود ، لسبب نراه بسيطا من وجهة نظر مبحثنا هذا هو عدم تأصل التراث المملوكى أو تراث الرقيق الأبيض في أوربا الغربية .

وبعد أن خاضت مصر تجربة اشتراكية غير متطرفة في عهد عبدالناصر ، دخلت مصر سياسة الانفتاح في عهد السادات ، وفي عهد السادات أطلت

التشرذمات المملوكية برأسها بشكل واضح في السياسة والاقتصاد وبدا واضحا أن الانفتاحيين الاقتصاديين لم يستفيدوا شيئا من التجارب السّابقة، وبدا وكأن التجربة الاشتراكية قد مرّت عليهم دون أن تترك بصماتها عليهم ، ودون أن تزيدهم خبرة ، وإنما زادتهم رغبة في تحدى قوانين الطبيعة والحياة، فشركات استثمار الأموال لم تستثمر الأموال في المشروعات الاقتصادية ، وانما استثمرتها في التجارة بالعملة والمضاربة ، وكلاهما عملية غير اقتصادية ، وتجار اللحوم الفاسدة ، وراغبو الثراء السريع، وتجار المخدرات. . كل هذا اتخذ الشكل نفسه وربما أقسى مما كان عليه الحال قبل التجربة الاشتراكية التى لم تكن بدورها ايضا تخلو من أخطاء متصلة بتراث الرقيق الأبيض ، لكن شيئا كهذا لم يحدث في غرب أوربا؟ فقد قاومت الرأسمالية الاتجاهات الشيوعية والاشتراكية بأسلوب بسيط وهو استيعاب محاسن الشيوعية والاشتراكية . ومن فرط ما استوعبت رأسمالية غرب أوربا من مزايا الاشتراكية ، أصبحت الفروق بين الاتجاهين بسيطة لاتكاد ترى ، واصبحت الحياة العامة في أوربا لاتنقلب انقلابا دراماتيكيا إذا اعتلى الحزب الاشتراكى أو حتى الشيوعى سدّة الحكم، أو إذا سقط في الانتخابات وحل محله حزب يمينى . إنه العقل المنظم الخالى من التشرذمات المملوكية ، والذى أصبح إحدى سمات دول غرب أوربا منذ عصر النهضة .

وكانت السباهيات أو الطرخانات التى تمنح للسباهى في شرق أوربا (وغيرها) لا تورث، فالمبدأ القانونى العثماني (المملوكى) مؤداه أن هذه الممتلكات تمنح للمقاتلين خلال فترة حياتهم فقط، الاّ أنه في سنة ١٥٣٠ وافق السلطان العثماني على ترك نسبة من هذه السباهيات لأولاد المتوفى ، وكانت علاقة الدولة العثمانية بممتلكاتها في شرق أوربا من خلال موظفين ليس لهم

الحق في امتلاك الأراضى أو أية دعاوى توريثية ، ومن ثم فقد كان هؤلاء الموظفون الجباه يتعاملون مع ممتلكات الدولة على نحو ما يتعامل العامل مع مصنعه في ظل القوانين الاشتراكية التى طبقت في البلاد ذات التراث العريق في حكم الرقيق الأبيض .

الدقشرمة :

وكان شرق أوربا مستودعًا للرقيق من خلال ماعرف بضريبة الدم (الدقشرمة) إذ كان العثمانيون يحصلون من هذه المناطق على الأطفال الصغار ثم يربونهم ويخضعونهم لتدريبات شاقة عسكرية وتدريبات إدارية ثم يلحقونهم بالجيش أو بالمناصب الإدارية الهامة أو بالجيش ثم المناصب الإدارية الهامة، ووصل إلى مصر من هؤلاء خلق كثير، وكان هؤلاء الدقشرمة يعرفون أصولهم (أنهم من البلقان) فقد كانوا يظهرون الجوانب الغليظة من شخصياتهم، وقد وصل إلى مصر عدد غير قليل من هؤلاء سواء مع الحاميات العثمانية أو مع محمد علي ، ومكثوا في مصر وتزوجوا وتناسلوا ، ترى كم من سلالة الدقشرمة بيننا الآن ؟! .

المسألة ليست دعوة للتنقية العرقية وما إلى ذلك، فهذا أمر مستحيل في مصر بعد أن اندمجت الاعراق اندماجا كاملا، ولكن المسألة أن التراث كما ذكرنا في أكثر من موضع في هذه الدراسة يورّث كما تورث الصفات الفيزيقية، وقد أجمع كل الرحالة الأجانب الذين زاروا مصر منذ مطلع القرن السادس عشر ، على أن الدقشرمة (ممثلين في رجال الشرطة والموظفين الحكوميين) يعاملون أهل البلاد معاملة قاسية، ويكنون لهم احتقارا شديدا ، وليس سرا أن المصرى – وكاتب هذه السطور مصرى – يخشى دخول قسم الشرطة لأي سبب كان ، حتى ولو كان هذا للسؤال عن كيفية استخراج البطاقة الشخصية ، أو

العائلية ، ويخشى الدخول شاهدا ، وإذا أراد الدخول شاكيًا فلابد من أن يتسلح بكروت التوصية والمعارف ، ولابد أن ينتظر المقبوض عليه جمع من أقاربه وأصدقائه ، وحبذا لو كان يعرف معرفة شخصية أحد العاملين في قسم الشرطة فهذا ادعى للأمان. إنه تراث الدقشرمة، فبمجرد أن يلبس المسئول البدلة الرسمية يصبح (حكومة) ويصبح الآخرون أمام ناظريه (أهالى) ، ومع أن الأعراق اندمجت كما قلنا، وأصبح المسئولون هم أهلنا واخواننا وأبناءنا إلاّ أن تراث العبيد البيض أو تراث (المجاليب) أو تراث الدقشرمة مازال قائما .

يقول رتشارد بيرتون وهو رحالة زار مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر: « ان المصرى إذا تعامل مع ضابط الشرطة أو دخل مركز الشرطة لأى أمر كان فلا بد أن يضربه الضابط أو المسئول على قفاه Upon his kafa حتى قبل أن تثبت عليه التهمة » يقول بيرتون « إنك تمر مع المتهمين الآخرين ليأخذ كل منهم (قفا) فإذا جاء دورك أخذت الذى أخذوا، والقفا خاص بالمصرى دون سواه، فإذا كنت أجنبيا تحرزوا في إعطائك القفا وأحالوك إلى قنصلية بلادك» أما عن الضرب بالفلكة (الفلقة) فيفيض بيرتون في الحديث عنه، وأظن أن الضرب على (العروسة) قد حل بعد ذلك محل الضرب بالفلكة. ويحدثنا رحّالة آخر هو الأمير ردولف من الاسرة الحاكمة النمساوية (الهبسبرج) الذى زار مصر في أواخر عهد اسماعيل أن المصرى يخاف خوفًا مرعبًا من الذين يلبسون ملابس رسمية، وقص قصة (خولى) أو رئيس أنفار دخل هاربا بين أعواد القصب بمجرد رؤية خادم ملكى يرتدى ملابس رسمية، ويدهش ردولف لذلك مع أنه أمير نمساوى وكانت النمسا في ذلك الوقت مشهورة بالحكم القمعى العنيف ومعاملة الفلاحين معاملة سيئة لماذا. ـ إذن ـ يعتبر المسئول ذو الملابس الرسمية بمجرد تعيينه (حكومة) وبقية الناس (أهالى).

انه تراث الرقيق الأبيض أو التراث المملوكى ، أو تراث الدقشرمة .

ماجدوى التشريعات والقوانين إذن مادام سيطبقها أولاد الدقشرمة ، وما جدوى قرعات الدكتور سرور رئيس مجلس الشعب على المنصة ؟ أم أن الأمور تحتاج لما هو أهم من التشريعات والقوانين ، وتحتاج إلى إعادة هيكلة النظام - بل والمجتمع - بما يتفق مع حقائق علم الاجتماع التاريخي الذى نزعم أن كتابنا هذا من بحوثه المهمّة .

وفي تراث العبيد البيض، تجد الشرطى يمسح حذاءه مجانا (من باب الواجب) ويأتيه - أثناء عمله - شايه وقهوته مجانا من المقهى الذى يحدده هو (من باب الواجب) وإذا كان ذا رتبة عالية أتاه طعام الغداء لأسرته من مطعم يحدده هو، وأحيانا يقسّم هو هذا الواجب فطعام الافطار - يأتيه في بكور الصباح من مطعم كذا ، والغداء من مطعم (كيت) والعشاء من ذاك وهكذا وابن (الباشا) عادة لايدفع أجرا للدرس الخصوصى وبنت (الباشا) تحيك ثيابها مجانا من باب (الاحترام والواجب) وهكذا ، فالباشا (حكومة) وأصحاب المطاعم وماسحو الأحذية والمدرسون . . . . . . آلخ (أهالى) هكذا كان تراث (الدقشرمة) فاعلا مؤثرا رغم نقل النظم الإدارية الغربية .

وفي ظل هذه الحقائق الاجتماعية والتاريخية نتساءل عن جدوى الدورات التدريبية في علوم الادارة التى يتلقاها المديرون والعاملون في الادارة على يد انجليز ويابانيين وأمريكان ؟ وما دام (التراث الدقشرمى أو المملوكى) حتى الآن متغلغلا فهل ستخرج كليات الادارة ، موظفين أو اصحاب اعمال مبّرئين من عيوب (التشرذم) المملوكى و(للفردية) المختلفة عن (الفردية) الأوربية المتطورة، وتراث (الدقشرمة) الذى يفرق بين (الحكومة) و (الأهالى) ؟ .

المثالية ورد الفعل السَّلفى :

لم يطرح الحل السلفى في مصر وحدها ، ولا في القرن العشرين وحده ، وانما هو حل مطروح منذ عانى العالم العربي والاسلامى من التراث المملوكى، ولم ينجح الحل السلفى النجاح المأمول حتى عندما وصل للحكم ، وقد أتيح للسلفيين ذلك وأكثر من مرة وفي أكثر من مكان، وحتى عندما تم التزاوج بين السلفية والتغريب (الحضارة الغربية) ووقف السلفيون أنفسهم بل وغير السلفيين كذلك مندهشين من ذلك . فما تفسير هذا ؟ لقد وصل السلفيون للحكم في السودان ، ووصل الاسلاميون للحكم في إيران ؟ وكان السلفيون على وشك الوصول للحكم في الجزائر، وحكم دعاة التغريب ، وحكم الاشتراكيون . . وكانت النتيجة في الأحوال جميعًا واحدة فلم يكن دخول العصر الحديث نتيجة لأي منها، ولم ينتقل العالم العربي والإسلامي في ظل أي منها إلى مصاف الدول المتقدمة ، إن التآمر الخارجى والرغبة في أن تظل منطقتنا متخلفة وأن تظل سوقا للدول المتقدمة - أمر وارد لا ننكره ، لكن ذلك ليس السبب الوحيد بل وليس هو أهم الأسباب فما دام التطبيق الاشتراكى سيتم على أيدى المماليك والدقشرمة فسيتحول إلى اقتصاد (ريع) (وطرخانية) (وسباهية) وإلى اقتصاد (سمسرة) حيث يربح من لاينتج ، ربما ضعف الذين ينتجون ،ومادام التطبيق الرأسمالى سيتم على يد المماليك والدقشرمة، فلابد من سحق كل الأهالى فنحن (دقشرمة) وهم (أهالى) ولابد من إثارة الاحقاد بتصرفاتنا ورعونتنا ومباهاتنا للمحرومين بما نملك، ولا مبرر لتخصيص نسبة معلومة من أرباحنا للعمل الاجتماعى ولايد إن فعلنا - من أن نجعل ما ننفقه وسيلة من وسائل التشرذم والتكتل وإثارة الاضطراب أو لنقل (رياء الناس) .

ولا بأس من إيراد أمثله للحلول السلفية من واقع كتابات المهتمين بالجوانب الاجتماعية للتاريخ يقول بول كولز في كتابه عن العثمانيين في أوربا (نشرته هيئة الكتاب ضمن سلسلة الألف كتاب الثانى) :

« . . . لقد تلقى مراد الرابع (السلطان العثمانى من القاضى المسلم المشهور خوجه بك مذكرة عن أسباب التدهور، وإذا ما قارنا مذكرة خوجة بك هذه بالانتاج الفكرى السياسى المتسم بالبحث والتعمق الفعلى والذى أفرزته عقول أوربا في الفترة الزمنية نفسها ، ألفيناها مذكرة تدعو للإشفاق والأسى، فلم تكن هذه المذكرة التى قدمها هذا القاضى المسلم أكثر من قائمة بملاحظات سطحية، ولا تطالب المذكرة بتجديد وأنما تطالب بالعودة إلى الممارسات التقليدية بنقائها في أصولها الأولى » . .

وعلى أية حال فإن (الجهاد) خارج الحدود كان إحدى الوسائل لتغطية القصور في الداخل ، وإنه لقول مشهود منذ زمن طويل أنه (لاصوت يعلو على صوت المعركة) . « لقد استمر العثمانيون - غالبا - في حروب مستمرة بعد سنة ١٥٧٠ لكن هذه الحروب في هذه المرحلة نادرا ما كانت تجلل بانتصارات حاسمة وفتوحات دائمة» وفي هذه الفترة نفسها كان الرقيق السلطانى ـ هو المؤسسة الرئيسية التى يمارس السلطان من خلالها سيطرته على الشئون المدنية والعسكرية مهددًا بالانفلات من أيدى السلطة ، فقد كانت المالية تعتمد في الأساس على غنائم الدولة ، ومن هذا الدخل كان الأفراد يحصلون على أجورهم . . . » . ونلاحظ هنا عدة نقاط ذات إسقاطات على التاريخ المصري المعاصر:

١ - أن الجهاز الإدارى (الرقيق السلطانى) لم يعد حساسًا إزاء أوامر الإدارة العليا ، فلتُصدر الإدارة العليا ما تشاء من قرارات ، لكن (عم عوضين)

في مركز الشرطة أو الجمارك أو غير ذلك من الهيئات ينفذ مايشاء هو، لا ماتريده الادارة العليا ، وذلك بطريقته الخاصة ودون خرق واضح ولا مخالفة صريحة للسلطة ، ففى مصر (الاحترام واجب) في كل الأحوال ، وهذا هو المضمون الاجتماعى لهذه العبارة الخطيرة ، التى تبدو في الظاهر وكأنها نوع من (الأدب) أو (اللّياقة) أو أنها تجسيد (لأخلاق القرية). لم يعد الهرم الإدارى مترابطا إلاّ في الظاهر ، ولم تعد القاعدة حسّاسة ومتفهمة للأوامر .

٢ - وساعدت قلة الرواتب والأجور على إطلاق التراث المملوكى في نفوس أفراد الجهاز الإدارى فهو لا ينفذ أوامر الإدارة العليا إلاّ بتلكؤ شديد ، أو هو ينفّذها لتحقق عكس أهدافها (على قد فلوسهم) (هم بيّدونا حاجه) (دول واكلينها) (كله ماشى) (وسع مخّك) (كبّر مخّك) (خليك مفتح) (ك .... أمهم) والحرف الأول من هذه العبارة الأخيرة له تكملة حرف آخر ذو جَرْس. وفي الشام (ك ... أختهم) (أخوات القحبة) ... ألخ ، والأصل أن المملوك لايعمل إلاّ لحساب نفسه ، وهو (مضطر) للعمل لحساب الآخرين (اضطرارا).

الدلالات الاجتماعية والتاريخية لبعض العبارات آنفة الذكر :

وما دمنا بصدد بحث اجتماعى ، فلابد من العودة لأصول بعض هذه العبارات (ك. أمهم) أو (ك. أختهم) والعبارة الأخيرة شامية ، أو أن كلامهم (على طيـ ..) يضاف للكلمة الأخيرة حرف أغلظ جرسًا من السين، والعبارة فلسطينية . ولم يظهر السب والاستهزاء - بشكل واضح - بالعضو التناسلى للأم إلاّ في العصر المملوكى ، وازداد في العصر العثمانى (وهو مملوكى في صميمه أيضا) واتسع في عصر الأسرة العلوية ، وهو أمر مألوف في التاريخ المعاصر والأصل أن المملوك المجلوب أو الترابى أو الدقشرمة لا أسرة له ،

وهو لايعرف أباه أو أمـه ، وليس له (سلالة) وقد يقرأ في عـيون أهل البلاد مايفيد ذلك ، لذا فهو غير حريص على (شرف) أهل البلاد أو صحة أنسابهم لأن فـاقد الشيء لا يعطيه ، وأقرب عضو لتلويث محدّثه هو اتهام (ك. أمّه) أو (ك . أخته) . إنها ألفاظ (دقشرمة) ، أما العبارات الاخرى المتعلقة بمؤخرة الرجـل فلم تشـع في مصـر وإنما شاعت فـي الشام فـالشوام أكـثر بياضـا من المصريين، وأكثر امتلاء لذا فقد وجد المماليك في (ك .أختهم) و (ط. أبوهم) مجالاً للـتعامل على سواء ، وقـد اندمج المماليـك والدقشرمة في المجـتمعات العربية والاسلامية وأصـبحوا نسيجًا من أنسجتها وجزءا لايتـجزأ منها ومع هذا ظلت الموروثات كما هي .

وعندما قلنا إن هذه العبارات لم تشع إلاّ منذ زمن المماليك كنا نعنى العبارة تمامـا ، ذلك أنه كان لـهذه العـبارات بعض الـوجود قبـل ذلك ، فنحـن نجد عبدالملك بن مروان عندما يغضب من بعض سياسات الحجاج بن يوسف الثقفى يرسل له خطـابا طويلا يهمنا منه هـذه العبارة (ياابن المستفـرمة عَجَم الزبيب) وتفسـير هذه العبـارة الغريبة أن المـرأة العربيـة إذا تزوجت مرّة ومرة وثـالثة ، وأرادت أن تتزوج الرابع (مثلا) وآنست في نفسها سِعَة (أى أحست أن عضوها التناسلى غدا واسعا أكثر من اللازم) أتت بعجم الزبيب أى البذور الموجودة في الزبيب (العنب المجفف) وطـحنته وسحنته وفرمته وجعلت منه مـايشبه العجينة ووضعت هذه العجيـنة في فرجها لأن عجم الزبيب - كمـا قالت العرب - يشد الجلد المرتخى ، وهو قابض يقبض ما اتسع ويضم ما تهدّل ، والمعنى مفهوم ، فكأنما عبدالملك بن مروان يريد أن يقول للحجاج الثقفى يا ابن الواسع فرجها ، لكنـه صاغ عبارته بأسـلوب فيه كنايـة بليغة ، ولـيس مصادفة أن يكـون عمل الحجـاج بن يوسف الأول فـي مجال الشـرطة ، فهو الحـجاج بن يوسـف بن

الحكم الثقفى الذى ولد بالطائف وقد انتقل للشام فلحق بروح بن زنباع نائب عبدالملك بن مروان فكان من رجال شرطته ، ثم تولى أمر العراق بالاضافة لمكة (المكرمة) والمدينة (المنورة) والطائف ، كما هو معلوم .

عود إلى التراث المملوكى ومفردات الحضارة الغربية :

لقد أخذت الدولة العثمانية - بشكل واضح - بالنظم الغربية منذ صدور القوانين المعروفة بقوانين قصر الزهور (خط كلخانة - والكلمة تعنى قصر الزهور) أو التنظيمات الخيرية في ٤ نوفمبر ١٨٣٩ ، فتم تنظيم الجندية والجيش على النسق الأوربى ، وتم اعتماد تنظيمات لجباية الضرائب ، وتم ضمان ممتلكات الرعايا بصورة كلية بصرف النظر عن معتقداتهم ، وقد وضع هذا (الخط الشريف) دعاة التغريب الذين نشأوا على حب الغرب ومبادئه ، وتم استدعاء الخبراء الفرنسيين والبروسيين لتدريب الضباط وتم افتتاح مدارس لتدريب الأطباء وعقدت برامج تدريبية في الادارة للموظفين ، وتم إنشاء وزارة للمعارف (التربية) وابتعث الأتراك إلى اوربا وتم إعلان مبدأ التعليم المجاني والإجبارى ، ودخلت القوانين الأوربية للمحاكم ، ولم تطبق نصوص الشريعة الاسلامية بشكلها التقليدي إلاّ في قانون الأحوال الشخصية ، وتم إصدار قانون جنائى جديد يعتمد على القانون الفرنسى ، وارتدى السلطان اللباس الأوربى . . »

لكن كل هذا لم يجعل من الدولة العثمانية دولة أوربية ولم يثمر ثمرا كالذى انتجته بذور زرعت في الأرض الأوربية ، لقد أحدث ذلك تقدما - بلا شك - لكنه ليس بالقدر نفسه الحادث في أوربا ، بل ولا حتى قريبا منه .

ومما يدعو للدهشة أن بعض الرحّالة الأجانب لاحظوا ذلك وتوقعوه ، ومن هؤلاء ريتشارد بيرتون الذى قام برحلة مهمة لمصر والحجاز سنة ١٨٥٣

فنجده يسخر من تقليد النظم الغربية ويعتبر أن هذا لاجدوى منه ، وأن الأفضل والأنجح هو استيحاء نظم من تراث الشرق لابأس من تأثرها بحضارة الغرب ، أما استيراد نظم غربية لشعوب شرقية فهو - فيما يقول بيرتون - أمر مضحك ، لذلك فهو - أي بيرتون - يعتقد أن جهود الدولة العثمانية في الإصلاح بإصدار مجموعة قوانين وتنظيمات مستوحاة من الغرب (خط كلخانة) لن تؤتى نتيجة مثمرة ، فالشرق يحتاج لحكومة متمدينة حازمة ، وفحوى حديث بيرتون أن الفرد في الشرق غير الفرد في الغرب وأن تكوين مجتمع الشرق غير تكوين مجتمع الغرب وقد فطن كثيرون لهذا الفرق لكنهم في الواقع لم يدركوا السبب في هذا، إنه التراث المملوكى أو تراث الدقشرمة الذى يغطى أكثر من نصف التاريخ المؤثر والفاعل في كثير من بلادنا العربية والاسلامية إن هذا التراث هو الذى يحول بين أن تكون الديمقراطية في الشرق لها النتائج نفسها لديمقراطية الغرب ، وهذا التراث هو الذى يحول بين أن تكون التنظيمات المنقولة من الغرب إلى بلاد الشرق ، لها المردود نفسه للتنظيمات في الغرب ، وهذا التراث نفسه هو الذى غيّر المفاهيم الاسلامية التى كانت أساساً لنهضة الغرب ، وإلاّ فبم نفسّر أن (الفرد) الشرقى إذا انتزع من تراثه المملوكى وعاش في الغرب حقق تفوقا على أقرانه الأوربيين والأمريكيين ؟ التفسير هو أنه انتزع تماما من تراث الدقشرمة والعبيد البيض ، وكان لديه هو شخصياً استعداد للحياة في بيئة جديدة خالية من هذا التراث .

لقد سارت تركيا أشواطا أبعد كثيراً من خط كلخانة الآنف ذكره ، وتم إعلان الجمهورية التركية ١٩٢٠ وألغى مصطفى كمال اتاتورك لبس الطربوش، وضرب مثلا بنفسه فصحب زوجته الجميلة مكشوفة الوجه، بل والغى بعد ذلك - الحروف العربية واستخدم الحروف الأوربية (اللاتينية) في كتابة التركية

وطبق القوانين الغربية حتى في الأحوال الشخصية بل وجعل العطلة الرسمية يوم الأحد بدلا من الجمعة وأغلق التكايا (جمع تكيّة وهى تراث مملوكى عريق) ومع كل هذا فإن هذا (النقل) الذى يكاد يكون حرفيا من الحضارة الغربية ، لم يجعل من تركيا دولة أوربية ، ولم يحقق الثمار نفسها التى تحققت في أوربا لسبب بسيط هو التراث المملوكى والدقشرمى العريق في تركيا ، فالبذرة وحدها غير كافية، وإنما لابد من التربة الصالحة أيضا - والتفكير الفلاحى البسيط يجعل الفلاح ينظف التربة أولاً ثم يلقى البذرة ويرويها ، والتربة في مصر بها حشائش عميقة الجذور من تراث الرقيق الأبيض ، ونفضل أن ننهى هذا الفصل بإيراد النص الكامل لخط كلخانة (خط قصر الزهور) لمن يريد التمعن فيه [١] .



(١) انظر النص الكامل في الملاحق .

الفصل الرابع

شخصية الدرويش

في التراث المملوكي والسياسة

- شذوذ الطواشي .
- حمامات النظر .
- من الفجور إلى الدروشة .
- الكرامات التى تخرق حدود الزمان والمكان .
- استمرار شخصية الدرويش .
- الأستاذ حسن التهامى والخضر عليه السلام .
- لا يفل الدرويش إلاّ الدرويش .
- شيء من الدروشة كان سببا في سيطرة السادات على مراكز القوى .
- هل اقنع الاستاذ التهامى اليهود بأنه قادر على منع قلبه من الدق .
- أهمية شخصية الدرويش للمباحث والأجهزة الخفية .
- الدراويش وتهيئة الرأى العام .
- الدروشة والشرافة
- عبدالناصر وعالم الدراويش .

شخصية الدرويش

في التراث المملوكى والسياسة المصرية

كان المملوك ـ حتى لو كان طواشيا (خصيا) يعيش حياته بالطول والعرض ويرتكب كل انواع الموبقات والآثام ، وبحكم كونه منبتًا لا أسرة له يكون غير حريص على صحة أنساب الآخرين وحتى لو كوّن أسرة فإن تراثه يجعله في حل من معظم المورثات المتعارف عليها ، ولأن المماليك كانوا يعيشون في مجتمعات مقفلة في مرحلة من المراحل سواء كانوا ترابيين (مجلوبين صغارا) و«مجاليب » ، فإن العلاقات بينهم كانت تتسم أحيانا بشيء من الشذوذ ، وقد يتبادر إلى الذهن أن المملوك الطواشي «المخصي» أو المعد لخدمة النساء لامجال أمامه للفساد الجنسى على الأقل ، لكن هذا غير صحيح فإن بعض الأغوات (بقاياهم حتى الآن في مكة المكرمة) يتزوَّجون ويستمتعون بالنساء « فيما دون الجماع » كاستخدام الأصابع ، والضم والشم ، ومص الشفاه وما إلى ذلك ، ولعق العضو التناسلى للمرأة ، ومداعبة الأثداء وامتصاصها وغير ذلك ، ولا مانع من قيامهم بدور النساء (الشذوذ) وما إلى ذلك . ومن طبيعة الأمور أن المماليك الطواشية (المخصيين) لايحققون الاشباع الكامل ومن هنا فقد كانوا يغرقون أنفسهم في شرب الخمر ، وأحيانا كانوا يعوضون إشباع أنفسهم (بالفرجة) على الآخرين وهم يقومون بالممارسة الجنسية ، وكانت حفلات الفرجة هذه تعقد يوميًا في بعض الأحيان حيث يجتمع بعض المماليك الطواشية (المخصيين) في حلقة ترقص في وسطها نسوة عرايا تماما ، ويقوم الطواشية بالتأمل وإمتاع النظر (حمامات نظر) ولامانع من لمس بعض الأجزاء المنبعجة أو المنقعرة من أجساد هؤلاء النسوة، أما المماليك غير الطواشية فإن مفاسدهم تكون أشمل وأعمق ، وقد حدثنا الرحّالة الأوربيون المعاصرون (راجع رحلة

فارثيما الذى تسمّى بالحاج يونس المصرى - نشرت مترجمة في سلسلة الألف كتاب الثاني الصادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب) أن المماليك كانوا يكمنون في الخانات (الفنادق) ويمد الواحد منهم يده ليسحب أى أمرأة عابرة ، فإذا لم تبد المقاومة الكافية ، أدخلها وشرع في التعامل معها دون أن يرى وجهها لأن النسوة كن محجبات ومصّرات على عدم ابداء وجوههن حتى لايعرفن ، ومن ثم فإن مثار إعجابه أو إقباله على المرأة (المسحوبة) هو بياض بشرتها كما يتبدى من الجزء المكشوف وهو الجزء السفلى ، ومدى امتلائه (اكتنازه باللحم) - أي هذا الجزء السفلى ، وقد أثر الذوق المملوكى في الذوق المصرى العام إلى عهد قريب ، وربما إلى الآن في بعض الأحيان ، وكانت المرأة ترفض أن تخلع خمارها (حجابها) أن أصر المملوك على رؤية وجهها لاعتبارات عدة أهمها رغبتها في عدم معرفة شخصيتها ولاعتبار آخر قد يعتبر البعض أننا نسوقه من قبيل الفكاهة ، ولكنه حقيقة واقعة ، وهى أن المرأة قد تعتقد أن كشف وجهها أو نزع خمارها أمام أجنبى عنها (حرام) أما نزع السروال أمامه فهو (أقل حرمة) ، وبذلك فرّغ المماليك (الخمار) أو (الحجاب) وهو رمز دينى عام بين مختلف الأديان من مضمونه - ويلاحظ أن الأمور الدينية الموجبة للفضيلة كثيراً ما تُفرّغ من مضمونها إذا ساد الجهل أو جرى التركيز على (الشكليات) دون الروح العامة أو الهدف .

وإذا عدنا إلى المملوك الطواشى (الخصى) فإن أهم الأعمال التى كانت تناط به - هو مرافقة الحرائر أو النسوة من زوجات أصحاب النفوذ ، وخدمتهن ومن هنا فقد كان هذا (الطواشى) يعامل باحترام كبير من قبل الزوج ، فقد كان الزوج يعلم أنه محيط (بالأسرار) وأنه حارس على (عرضه) ، وإذا غضب الطواشى من الزوج فإنه يستطيع أن يتستّر على افعال الزوجة أو (يقودها) ومن هنا فإن الطواشى كان مفتاحا من مفاتيح الانتقام من الزوج

وسبق أن أوضحنا العقاب الجنسى كأحد أساليب العقاب .

كان المملوك إذن يعيش حياته بالطول والعرض كما كان يقوم بكثير من أعمال القتل والسلب والنهب وهى أمور لازمة لطبيعة التشرذمات المملوكية وطبيعية الحكم المملوكى فإذا ما بلغ من العمر مبلغا يجعله غير قادر على ممارسة فساده وأحس بقرب أجله ، تذكر دينه ، ولاذ بحضن الدين - على طريقته - وأصبح درويشا فالدروشة جزء من صميم النظام المملوكى لاينفك عنه. إنها - أي الدروشة - عنصر موازن لحياة المملوك الأولى ، أو هى عنصر موازن للقسوة والفساد في المجتمع المملوكى ، وإذا كان المجتمع المملوكى مجتمعا يخلو من الانضباط والقواعد ، فلا أصول للحكم ولا حدود للبطش ، ولا قواعد لوراثة العرش ، فكذلك حياة الدرويش ، فلا التزام بالشريعة وإنما وصول مباشر لله (سبحانه وتعالى) ولا قواعد للطبيعة وانما (كرامات) تخرق هذه القواعد ، فالدرويش يكلم الجن والخضر (عليه السلام) ويطير إذا مات ، ويقهر حدود المكان فهو من (أهل الخطوة) ينتقل من القاهرة الى اسوان في طرفة عين ، وهو يقهر الزمان فيخبر بما هو آت . . . الخ .

كان من الطبيعى - إذن - ألا تخلو الحياة السياسية والاجتماعية من الدرويش في كل التاريخ الحديث الذى هو امتداد لحكم العبيد البيض .

ولاتخلو الكتب التى تهتم بالتفاصيل التى تناولت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وما تلاها من أحداث من اشارات لاستمرار شخصية الدرويش في السياسة المصرية ، سواء عن اقتناع أو كستار، لكنها - أي هذه الشخصية كانت موجودة دائما لنقرأ مثلا ما أورده نائب رئيس المخابرات المصرية (عبدالفتاح أبوالفضل) بعد الثورة :« . . بعد الثورة مباشرة كان حسن التهامى من الزملاء الذين عينوا معنا في المخابرات ، ولم يكن له مكتب خاص بمبنى المخابرات ، ولم نعلم عن عمل محدد يقوم به إلاّ مساهمته فـي إحضار بعض خبراء المخابرات الأمريكيين

لعقد حلقات دراسية لأربعة من ضباط المخابرات المصرية للاستفادة من خبرتهم

وفي فترة متقدمة – بعد البدء في إنشاء برج القاهرة بحيث أخذ يرتفع عن الأرض علمنا أن حسن التهامى احتل الدور الأول ، وأحاط جزءًا من هذا المبنى بأسوار عالية . . وعجزنا في المخابرات أن نعرف أي شيء عن العمل الذى يجرى داخل هذا الحصن . وبعد أن قام على صبرى باستلام العمل في المخابرات العامة محل زكريا محيى الدين بعد العدوان الثلاثى علمت وأنا أعمل بالمقاومة الشعبية في الاسماعيلية أن حسن التهامى قد صدر قرار بنقله من قوة المخابرات . . . وعدت إلى عملى بالقاهرة فعلمت أن الرئيس عبدالناصر وصلته نسخة من شرائط تسجيل مسجل عليها بعض أحاديث عبدالناصر ذات الطابع السرّى ، وكان هذا هو السبب في طرد التهامى من المخابرات ، وعلمت أيضا أن حسن التهامى كان منذ بداية الثورة يعمل وهو موظف مخابرات في عمل خاص كلفه به عبدالناصر وهو مراقبة تليفونات أعضاء مجلس الثورة والوزراء والشخصيات العامة ، وأنه يعرض هذه التسجيلات على عبدالناصر فقط ، ولكنه قام بتسجيل مكالمات عبدالناصر نفسه . ولم يجاز حسن التهامى على فعلته ولكنه نقل للعمل في رياسة الجمهورية وكلف بأعمال لايعلمها أحد وفي هذه الفترة تظاهر بالتدين الشديد وأطلق لحيته ثم أرغمه عبدالناصر على حلقها بعد أن أحضر له الحلاّق وبداية من هذا التاريخ بدأ في الهلوسة وخلط الواقع بالغيبيات سواء أكان عن عمد أو تماديًا في تغطية شيء لا يعلمه إلا الله والعالمون ببواطن الأمور ، ثم يستطرد نائب مدير المخابرات قائلا انه رغم تورط التهامى في أعمال تجسس على الجيش السوفيتى لحساب الولايات المتحدة إلاّ انه استمر قريبًا من الرئيس عبدالناصر . . » .

وفي فترة الرئيس السادات كان حسن التهامى من أقرب المقربين له رغم ما اشتهر عنه من عدم الاتزان وتفسير الاحلام والغيبيات » .

لا يفل الدرويش إلاّ الدرويش :

« . . . ولما كان الرئيس السادات يرأس المؤتمر الاسلامى دخل عليه حسن التهامى شاهرا مسدسه ليراجعه في أحد القرارات ، فما كان من السادات إلاّ أن نظر له في هدوء وقال (إجر يا ولد والعب اللعبة دى مع أحد غيري لأنه فاتك أننى أتقن هذه اللعبة أكثر منك) ومع هذا فقد اختاره السادات - بعد ذلك - كمندوب له للتقارب مع حكام اسرائيل وقابل موشى ديان في قصر الملك الحسن ملك المغرب تمهيدا لزيارة السادات للقدس . والذى لا شك فيه أن شيئا من (شخصية الدرويش) كان وراء نجاح السادات في السيطرة على مراكز القوة، وتثبيت أقدامه على رأس الجمهورية المصرية بعد موت عبدالناصر ، وكان السادات على حد قوله هو في حواره الآنف ذكره مع حسن التهامى لا يقل إتقانا لفن (الاستهبال) أو تقمص شخصية (الدرويش) وعن حسن التهامى نفسه يقول محمد حسنين هيكل في حوار أجراه معه فؤاد مطر ، ونشر في بيروت (١٩٧٥) وإن كان الحديث قد جرى قبل ذلك (١٩٧٣ مثلا) :

« . . بعد وفاة عبدالناصر حدث صراع على السلطة ولكن السادات كسب الجولة الأولى بهذا الانتقال السهل إلى السلطة وأعتقد أن شخصية السادات (المريحة) هى التى جعلت عملية الانتقال سهلة ، فهو كان مستعدًا لاستيعاب كل الاتجاهات ومستعدا لأن يلين أمام العواصف (ص ٢١٨ من كتاب بصراحة عن عبدالناصر. أجرى الحوار فؤاد مطر . بيروت ، ١٩٧٥) .

ويحدثنا محمد ابراهيم كامل (وزير الخارجية المصرية في المراحل الأولى لاتفاقية السلام مع اسرائيل) أنه في كل مساء كان يجتمع أعضاء الوفد المصرى في الاستراحة التى أنزل بها (أى ينزل بها محمد ابراهيم كامل ، وكان الحديث يدور غالبًا حول الموقف الأمريكى . . وكان أعضاء الوفد المصرى يبدو على وجه بعضهم الاطمئنان والثقة ، وبعضهم يبدو عليه القلق والوجوم . . . .

وكان الوقت يمضى ثقيلا مملا حتى يفرغ حسن التهامى من جولاته المجهولة وينضم إلينا في الاستراحة ، وكان الوحيد من بين اعضاء الوفود الذى ينزل في استراحة بمفرده ، كما كان هو وبيجين الوحيدين اللذين يصران على ارتداء بدلهما كاملة مع ربطة عنق طوال المؤتمر ، فما أن يعبر التهامى مدخل الاستراحة حتى يتلاشى عندنا جو الملل والتثاؤب والقلق . . . فتدب الحياة في المجتمعين إذ انه يقول – مثلا – إن موشى ديان قد وافقه منذ ساعة على عودة القدس للعرب ثم يتكلم عن التصوف وتفسير الأحلام ، وينتقل إلى القصص والروايات ، ويحكى كيف أنه حل مشكلة المسلمين في الفلبين، وكيف استطاع أن يؤجل الثورة في الملايو لمدة ثلاث سنوات ، وكيف عالج نفسه من السم الزعاف الذى دس له في الطعام أثناء إحدى زياراته لبعض الدول العربية ، فانسحب إلى غرفته يتلوى من الألم وأغلق على نفسه الباب بالمزلاج لمدة ثلاثة أيام لايأكل ولايشرب وراح يعالج نفسه بترياق السموم الذى يحمله معه دائمًا ثم يتكلم عن فوائد العنبر الذى يستخرج من كبد الحوت وعن مزايا عسل ملكات النحل ، ثم يتوقف فجأة ويتكلم عن القدس ويخاطبى قائلا :

« القدس أمانة في عنقك يا أخ محمد فحذار أن تفرط فيها » .

« . . . وفي أحد الأيام دخلنا غرفة الطعام فوجدنا حسن التهامى واقفا بالقرب من احدى موائد الطعام المخصصة للوفد الاسرائيلى وقد التف حوله العديد من الاسرائيليين يستمعون إليه ويناقشونه في اهتمام وتبين أن التهامى قد أخبرهم بأن في مقدوره أن يوقف قلبه عن الحركة في أي وقت يشاء . . . . »

والغريب أن بعض الرحّالة الأجانب الأذكياء قد اكتشفوا منذ وقت باكر أهمية شخصية الدرويش في مصر والعالم الإسلامى ذى التراث المملوكى يقول الرحالة ريتشارد بيرتون (زار مصر ١٨٥٣) انه بعد « شهر من العمل الشاق في الاسكندرية اتخذت استعدادى لتقمص شخصية درويش متجول بعد أن غيرت

لهجتى من ميرزا Mirza الى الشيخ عبدالله ، فقد أدرجنى أحد الرجال المبروكين الذى لم أهتم بتدوين اسمه - منذ فترة - في طريقته الصوفية وهى الطريقة القادرية مدشنا انضمامى بالكلمة الجليلة (بسم الله - شاه) وبعد فترة تدقيق واختبار رقّانى إلى درجة رفيعة في الطريقة هى درجة (مرشد) . . . وليس هناك شخصية في العالم الاسلامي ملائمة تماما للتنكر أفضل من شخصية الدرويش ، فهى شخصية يتقمصها الشخص ذو المقام الرفيع الذى يتعرض للخزى في مجالس الحاشية ، ويتقمصها الفلاح الذى وصل مستواه للحضيض ، ويتقمصها (الصايع) الذى أرهقته الحياه ، ويتقمصها المبتلى بمرض بغيض والذين يتسولون رغيف الخبز من باب إلى باب . . » ولم يدر بيرتون - هذا الرحّالة الحصيف - أن هذه الشخصية تقمصها أيضا رجال السياسة ، وهذا أمر غريب فهى مناسبة لرجال المباحث والمخابرات باعتبارهم يتقمصون الشخصيات ذات الوجود الفعلى في المجتمع، أما أن يتقمصها التهامى (مثلا) ليعرض (دروشته) على اليهود والأوربيين ، فهذا هو الأمر الغريب .

ويستمر بيرتون قائلا : « . . . والدرويش يحل له مالايحل لغيره ، فمن المسموح له أن يتخطى قواعد اللياقة والأدب باعتباره شخصا ليس من أهل الدنيا أو باعتباره شخصا تخلى عن الدنيا وما فيها ، فقد يصلى وقد يمتنع عن الصلاة وقد يتزوج أو يبقى بلا زوجة وهو محترم سواء ارتدى ثيابا من صوف غليظ أو ارتدى ثيابا موشاة بالذهب فلا أحد يسأل هذا (المتشرد ذا الحصانة) لم أتى هنا؟ ولم ذهب هناك ؟ وقد يقطع طريقه وحيداً سائرا على قدميه ، وقد يركب بغلة عربية يتبعها اثنا عشر خادما وهو يبعث على الرهبة دون أن يحمل سلاحا ، وقد يختال في الطرقات مدججا بالسلاح.» ويلاحظ أن التهامى رفع مسدسه في وجه السادات، ورغم انه هدد عبدالناصر ، وقيل انه رفع مسدسه في وجه موشى ديان في المغرب. وكل هذا من باب الدروشة (يحل له ما لا يحل لغيره)

ويستطرد بيرتون : « والدرويش أعلى الناس مقامًا وأكثرهم اتساما بالعدوانية ، وهو يحظى باحترام من الناس اكثر مما يحظى به الآخرون ، وهذه المزايا مطلوبة للرحالة ذى المزاج الحاد ، ففى ساعة الخطر الوشيك ما عليه إلاّ أن يصبح ممسوسا (به جنّة) فيصبح آمنا ، فالمجنون في بلاد الشرق يشبه الشخص غريب الأطوار في الغرب إذ يسمح له أن يقول أو يفعل ما تمليه عليه الأرواح ، فإذا أضفت إلى شخصية الدرويش قليلا من المعلومات الطبية ومهارة متوسطة في السحر وشهرة بأن همك الوحيد هو قراءة الكتب . . . فإنك بذلك تصبح ذا مزايا خاصة في بلاد الشرق . . . والخطر الوحيد في الاندماج في تلك الطرق الصوفية هو أن ثياب الدرويش الممزقة لا تغطى العورة تماما ، فإذا حوصرت في جماعة من مثل هؤلاء الاخوة ، فقد تصبح على كره منك « تحت العصا أو فوق الوتد» . . ويشير الدراويش لممارساتهم بإشارات باطنية مؤداها أننا و(هو) مظهر لشيء واحد . . . » وقد زار مصر في القرن السابع عشر الرحالة «جوزيف بتسى» الذى عرف باسم الحاج يوسف ، ولاحظ أيضا ظاهرة الدراويش ، أما الرحالة «فارتيما» الذى تسمى باسم الحاج يونس فقد قدم نفسه للمسلمين في الهند باعتباره درويشا وجعلهم يقبلون يديه ورجليه ، وكان هو سعيدا بذلك ، ويحدثنا الأمير النمساوي ردلف (نشرت رحلته في ثلاثة أجزاء في سلسلة الألف كتاب الثانى - الهيئة المصرية العامة للكتاب) الذى زار مصر في أواخر عهد الخديوي اسماعيل عن التوظيف السياسى للدراويش ، فيذكر أن طوائف الدراويش - إبان توسع الخديوي في افريقيا - صممت (رقصاتها) أو مايعرف بحلقات الذكر على النحو التالى :

يدور الدرويش حول نفسه دورات سريعة ، ويقبض إحدى يديه إلى صدره وكأنه يمسك سيفا ، ويرفع يده الأخرى للسماء باسطا كفه الى أعلى ، وكأنه يقول : يد تجاهد في سبيل الله ، وأخرى تطلب العطايا من الرحمن .

وثمة تداخل رقيق بين نظام الدراويش ، والشرافة أو الانتساب لآل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ، فغالبا ما يدعى الدرويش أنه من سلاله النبى ويلبس عمامة خضراء دلالة على ذلك ، وإذا استحال ذلك من الناحية المنطقية لكونه كرديا أو فارسيا أو تركيا ، فالفكر الدراويشى لايعجز أمام الحل ، فهناك ما يعرف (بالنسب الباطنى) أو (نسب الباطن) فهو وفقا لهذا النسب الذى لايعلمه إلاّ الله من سلالة النبى حتى لو كان أمريكيا أو انجليزيًا أو ايطاليا أو حتى لو كان من أصول يهودية، والمتمتع بالشرافة (إدعاء الانتساب لآل البيت) مثله مثل الدرويش يحل له ما لايحل لغيره باعتباره (واصل) .

ويحدثنا رحالة مرافق لفاسكو داجاما الذى دار حول افريقيا سنة ١٤٩٧ ، أن القائد (فاسكو) التقى في شرق أفريقيا بأحد الأشراف (المنتسبين للرسول صلى الله عليه وسلم) وشرب معه الخمر ، ويصف الرحالة هذا الشريف بأنه كان (سكيرا من الدرجة الأولى ، فأشبع داجاما نهمه في هذا المضمار (راجع يوميات داجاما - الألف كتاب الثاني - الهيئة العامة للكتاب).

ولقد لعب السلاطين العثمانيون حتى قبل القرن السادس عشر دورا هامًا في الإبقاء على الدراويش والمتحمسين لآل البيت (الفوارق رقيقة بين النظامين)، وإن كانت سياستهم الثابتة هى مجاراة أهل السنة في محاربة ما يسمى بالبدع والخروج عن الشرع ، فطرق الدراويش كانت جزءا لايتجزأ من الدولة العثمانية بحيث كانت مهاجمتها أمرًا صعبا ، بل إن الانكشارية كانوا أعضاء في طرق الدروشة ، وكانوا يوقرون دراويش البقطاشية ، وكان لكل جماعة من الانكشارية درويش هو بمثابة (بركة) يجلب الانتصار ، وفي مصر كان لأحد وزراء الداخلية في مصر في عهد مابعد السادات (درويش) هو بمثابة (فاسوخة) له وكان يصحبه لمكتبه ، ولا يبعد عن هذا الأمر كثيرا أن الفرق الرياضية تصحب معها (درويشا) أو (شيخا) أو (فاسوخة) ليجلب لها الانتصار

وهو ليس (شيخا) بالمعنى المتعارف عليه أي رجل دين تقى يتلو القرآن الكريم ويطلب النصر ، وإنما هو (درويش) قد يكون عربيدا أو مخلولا أو معتوها . .

ولابد للدرويش من مصدر معلومات غيبى يخترق به حاجز الزمان فيخبر عن الغيب ، وحاجز المكان فيخبر عن الأماكن التى لا يطولها مدى الرؤية ، وقد حل الأستاذ حسن التهامى هذه المشكلة باتصاله بالخضر عليه السلام ، فهو يقف فجأة وهو بين أصدقائه أو مفاوضيه ليقول لشخص ما لايراه أحد :

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

فإذا سأله سائل : على من يرد السلام

قال الاستاذ التهامى : على الخضر عليه السلام

وكما هو معروف في التراث الديني فإن الخضر عليه السلام أوتى العلم (اللّدُنى) أي من لدن الله سبحانه وتعالى ، وأنه استطاع أن ينجى أصحاب السفينة – كما جاء في القرآن الكريم – من سلب سفينتهم بأن جعل فيها عيبا (عابها) حتى لا يستولى عليها الملك وذلك بأن خرقها – أي خرق السفينة؟ فلما جاء الملك وجد السفينة معيبة فلم يغتصبها ، كما أنه من المعروف أنه قتل غلاما لأنه سيكون عندما يكبر معاندا مكابرا يضر والديه الصالحين إلى غير ذلك من الكرامات التى تؤكد أنه يعلم ماسيحدث بإذن ربّه. وقد أخبر الخضر (عليه السلام) فيما يبدو الاستاذ التهامى بمواضع الهجمات المتوقعة على ايران أثناء الحرب العراقية الايرانية ، ولكن الإيرانيين رغم عمق التراث المملوكى ، وتراث الدروشة لديهم استنتجوا من ذلك أن الرجل يعمل مع مخابرات دولة أخرى .

لايعنينا كثيرا في هذا البحث إيراد أسماء أو الاغراق في التحقيقات التاريخية لكننا نتقصى التراث المملوكى ونتتبعه في مصر المعاصرة ، وفي مناطق اخرى استطرادا . وكان أحد وزراء الاقتصاد (د. حسن عباس زكى) هو دليل

عبدالناصر إلى عالم الدراويش ، لكن عبدالناصر من خلال تتبع مفردات حياته رجل عقلانى لا يترك أموراً كثيرة للصدفة ، كما اتضح من سيل الكتب والمذكرات التى كتبت عن عهده ولم يتقمص عبدالناصر شخصية الدرويش ولم يحاول وعلى كثرة المخالفين له بل والمناوئين ، فهناك مايشبه الاجماع على انه لم يكن شارب خمر (التزام إسلامى) ولم يكن مرتشيا (التزام اسلامى) ولم يكن يستمتع بملذات نسائية (التزام إسلامى) وما قام به من تأميم واصلاح زراعى ورد شىء كثير منه في برامج الجماعات الاسلامية قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، ومع هذا فقد وافق عبدالناصر على أن يقابل أحد مشايخ الطرق الصوفية ليحصل منه على البركة ، وهذا فيما نظن نوع من التفكير الاستراتيجي لإحداث توازنه بين الجماعات الاسلامية المقاومة لعبد الناصر والتى كانت في المعتقلات يومئذ ، وبين الجماعات (الاسلامية أيضا) التى لا تعارض أي حاكم ـ بحكم تكوينها واهتماماتها .

وعن طريق (وزير الاقتصاد نفسه قدّم درويش سودانى لعبدالناصر خاتما ليحميه من الموت (كذا) ولما علم هذا الدرويش - بعد ذلك - أن الخاتم فقد من عبدالناصر ، وأن عبدالناصر بحث عنه ولم يجده ، بكى الدرويش بشدة ، فلما سأله وزير الاقتصاد آنف الذكر عن سر بكائه قال له ، بأن معنى هذا أن عبدالناصر سيموت قريبا ، وبالفعل مات عبدالناصر في اليوم التالى أو الذى يليه، وإن صحت هذه الرواية الدراويشية فإن المرء يحق له أن يتساءل : هل مات عبدالناصر ميتة طبيعية ؟!

❀ ❀ ❀

الفصل الخامس

تراث الرقيق البيض من الاقتصاد

- فكرة الرِّيع
- العمولة والسمسرة .
- البقاشيش .
- السلب .
- التشرذم الاقتصادي .
- التجارة في الداخل كأداة للسيطرة والحكم .
- السيطرة والربح .
- كيف تبيع سيارتك أو شقتك ؟
- عن المشروعات الصغيرة .
- عن اتحادات المّلاك .
- عن المزادات وتقسيم الأراضى .
- الفرق بين (الفِرْدَة) و (الضريبة)

أربعة أفكار أساسيّه تحلّقت حولها فكرة العبيد البيض أو المماليك عن الاقتصاد والحياة الاقتصادية :

١ - فكرة (الرِّيع)

٢ - فكرة العمولة أو السمسرة وتداخلت معها فكرة تجارة النفوذ .

٣ - البقاشيش (الفرد : بقشيش) والحلوان (المفرد حلاوة) .

٤ - السَّلب .

ومع أن السلب المصاحب للفوضى وغياب القانون كان يعد أهم ملامح (الاقتصاد الداخلى) في العصور التى ساد فيها تراث العبيد البيض ، إلا أننى استميح القارىء عذرا في ألا أتعرض لهذا الملمح - رغم أهميته - في هذا الفصل لسببين :

أولهما : أن القارىء سيجد معلومات كثيرة عن هذا السلب إذا تصفح كتب التاريخ المملوكى أو كتب التاريخ العثمانى حيث كان المماليك هم الحكام الحقيقيين ، ولم يكن يمثل السلطة العثمانية إلاّ وال عثمانى ضعيف الشأن ، يمثل رمزا أكثر مما يمثل سلطة حقيقية ، بالاضافة إلى أن الدولة العثمانية كانت تقوم فقط - غالبا بدور الحامى للبلاد التابعة لها ضد القوى الأجنبية ، بينما تركت الحكم الداخلى للقوى الموجودة بالفعل : القبائل في الحجاز ووسط الجزيرة ، المماليك في مصر . . . الخ . المعلومات إذن عن الفوضى وغياب القانون ، ومن ثم عمليات السلب والنهب متوفرة في المراجع الكثيرة ، ويمكن للقارىء أن يصل اليها بسهولة .

ثانيهما : أن عمليات السلب والنهب بشكلها المباشر ، وصورتها المادية : قيام المماليك أو العسكر بالهجوم على البيوت والمتاجر والمزارع . . . الخ قد

قلت رويدا رويـدا في التاريخ المصرى مـع تطور الدولة والاحتـكاك الحضارى وقيام المؤسسات . . . الخ أقول لقد تلاشى ذلك أو قل تلاشى بشكله الصارخ آنف الـذكر ، وإن كان هذا لايمـنع من قيـام المماليـك الجدد أو حَمَلة الـتراث المملوكـى بإنشاء تنظـيمات للاستيـلاء على اراضى الدولة أو الأهـالى أو حتى الشقق والمساكن . . . . الخ .

أما الآن – وبعد هذا التـبرير – فلنعد إلى الأفكار الأخـرى الأساسية التى تشكل فكر مجتمع الرقيق الأبيض عن الاقـتصاد ، ولنبدأ بالسمسرة أو العمولة وهي تختلط كما ذكرنا في بداية هـذا الفصل مع تجارة النفوذ . وفي ظل تجارة النفـوذ أو وجود تنظيـمات ضاغطة يـستحيل وجـود اقتصاد حر ، وهـذا يمثل صعوبة عملية البيع والشراء في مجتمعنا ، وفي المجتمعات الأخرى التى يسيطر فيها التراث المملوكى أو تراث العبيد البيض .

وقد يبدو هذا الكلام غير واقعى ، فعمـليات البيع والشراء تتم أمامنا الآن بالآلاف بل الملايين كل ساعة وكل دقيقة ، لكـن الحقيقة أنها – في معظمها – ليست عمـليات بيع وشراء حقيقـية أو (طبيعية (أو لا يحكـمها) إلاّ العرض والطلب) كـما يقال في ظل الاقتـصاد الحر ، ولنضرب أمـثله بسيطة لـتوضيح الفكرة ، ولأننى أضع في اعتباري أننى اكتب في مجال علم الاجتماع التاريخى ولكل الـقراء على سواء ، لذلـك سأتعمد الإقلال قـدر الممكن والمستـطاع من المصطلحات الاكاديمية التى تشكـل حائلا – في كثير من الاحيان – بين القارىء وبين المعنى المقصود :

- بيع سيّارتك الخاصة "

الوضع الطبيعى أن عملية بيع سيارتك الخاصة مسألة سهلة واضحة ، فمن (الطبـيعى) أن يحكـم سعرها : مدى صلاحـيتها (حالـتها الراهنـة) والموديل

وسنة الانتاج ، وتمام أوراقها الرسمية (من فحص وتجديد رخصة تسيير) ويكفي (في الوضع الطبيعي) أن تحدّد سعرها (القابل للتفاوض إلى حدما) ونعلن عن بيعها بوضع ملصق عليها ، أو في الجراج أو في الصحف، أو بمجرد الحديث إلى المعارف. . ثم ـ أو هكذا يمكنك أن تتصوّر ـ يأتي المشترى ، وتتفقان وتتسلم المال (ثمن السيارة) وتصحب المشترى لإتمام إجراءات نقل الملكية ، هكذا ببساطة أو أن تكلف معرضا من معارض السيارات بالقيام بكل ذلك مقابل مبلغ (محدّد) متفق عليه (٥٠٠ أو ٤٠٠ جنيه مثلا) هكذا ببساطة هذه البساطة ، وهذه العملية التجارية الصحيّة والصحيحة لايمكن أن تتم بهذا الشكل في مجتمع المماليك أو المجتمع ذى التراث المتحدر إلينا من مجتمع الرقيق الأبيض . وإنما لابد من تداخلات وتدخلات تفسد المبدأ الاقتصادى المتعلق بالعرض والطلب ، ليدفع المشترى - في النهاية - لمن لا يملك بالقدر نفسه الذى يدفع فيه لمن يملك (صاحب السيارة) كيف يتم هذا ؟

اتفقنا ان مهارة المماليك الأساسية تتمثل في ركوب الخيل والتدرب على القتال ، وذلك للدفاع عن استاذهم (الذى اشتراهم صغارا أو كبارا) ضد الزعماء المماليك الآخرين ، والتدرب على الدس ووضع الزنب) . . الخ ضد بعضهم البعض بغية الوصول للحظوة لدى استاذهم ، أو للوصول للسلطة وللإيقاع بمن وصل للسلطة ، وإذا ما بلغ بالمملوك العمر عتيا (كبر في السن) فإنه إن كان عزيزًا لدى سيده أعطاه (طرخانية) أي قطعة أرض بمن فيها من الفلاحين ليعيش على ريعها . . هذا كل ما يتقنه ، وهذه هى الاساليب التى يرتاح إليها لكسب عيشه.

نعود للسيّارة ، فنجد أن مماليك كثيرين سيتدخلون لإفساد قانون العرض والطلب ، قد يكون المملوك الأول الذى سيتدخل هو عامل الجراج ، فمع انه

مملوك (زعلوك) إلاّ انه يستطيع أن يبخس سـيارتك ثمنها إذا لم تكن قد اتفقت معه ففـى حال الاتفاق ربما استـطاع ان يجعلك تـبيع السيارة بـأكثر من قيمـتها ويمكن لعامل الجراج بالاتفاق مع آخرين أن يمنع وصول المشترين إليك ، فأنت في حاجة إلى (التـربيط) و (الاحتياط) و (التكتيك) وتحتـاج أن تجعل (عينك في وسط رأسـك) حتى يصل إلـيك المشترى . وبـطبيعـة الحال فأنت ستـحتاج لدهـان سيارتك واصـلاح مابها وإظـهارها بمظـهر جيـد قبل عرضـها للبـيع ، وسيتـشمّم صاحب ورشة الدوكـو (الدهان) إن كنت تجـهز سيارتك للـحصول على تـرخيص أم لعرضهـا للبيع ، فإن اتـضح انك ستعـرضها للبيـع فلابد أن يتدخّل ، فهو سيجعل لك السيارة (عروسـة) وبالتالى فإن حساب التكاليف إذا كنت تود دهان السـيارة لنفسك غير حسابـها إن كنت تود دهانها لعرضـها للبيع فالسعر الذى سيـحصل عليه لا علاقة له (بقيمة) الـعمل أو (الجهد) المبذول أو (الخامة) المستعملة ، وأنما له علاقة بمكسـبك أنت عندما تعرض السيارة للبيع ، وهكذا تتحول العـملية الاقتصادية الصحية (مال مقـابل عمل ومادة خام) إلى مال مقابـل مال (والعملية الأولـى اقتصادية ، والعملـية الثانية مالـية والفارق بينهما كبيـر) ، لم يتعود المملوك أن يحصل على مال مـقابل (إنتاج) وأنما هو يحـصل على (ريـع) انتاج الآخـرين ، ولم يتـعوّد المـملوك أن يتاجـر تجارة (داخلية) حرّة ، وإنما هو يسعِّر البضاعة وفقا لنفوذه هو ، وارتبطت التجارة لديه بالنفوذ ، ومن هنا فإن سيارة (الباشا) أعلـى بالتأكيد من سيارة (غير الباشا) مع أن السيارتين من ماركة واحدة ولها نفـس الموديل (سنة الانتاج) وبذلك يظهر عامل ممـلوكى آخر هو تجـارة النفوذ. إذا أضفنـاه للعامل الـسابق ـ اتضـح أن الاقتصـاد الحر في ظل مـثل هذه القـيم لا يمكن أن يـكون حرا وأن الانفـتاح لايمكن أن يكون حقيقيا ، فقد ازدهرت التـشرذمات المملوكية في ظل الاقتصاد الحر بالدرجـة نفسها التى ازدهرت بـها في ظل الاقتصاد الاشتـراكى مع فوارق

اقتضتها طبيعة الاقتصاديين. فالمشكلة إذن ليست في نوع الاقتصاد بقدر ما هى في (التربة) أو (البيئة) أو (الجو العام) الذى يسوده تراث التشرذم المملوكى الذى غطى أكثر من الف سنة في تاريخنا والذي لم يتناوله المؤرخون إلاّ من خلال المعارك الحاسمة ضد المغول وضد الصليبيين، ومن خلال المساجد الباهرة كمسجد السلطان حسن ، ومن خلال المعارك حول منصب السلطنة . كم هو ساذج هذا التناول ؟

كان أحد الأدوات الرئيسية التى تستخدمها مجموعة المماليك للوصول للسلطة هو السيطرة على الاقتصاد و (تجويع) السوق أو الناس ، فتحدث الاضطرابات وينضم الناس لهم ضد المجموعة الاخرى الحاكمة ، وكانت عمليات (التجويع) تتم بقسوة ، لأن المماليك (مماليك) والأهالى (أهالى) ، ولا يتحرك شعور المملوك قيد أنملة إذا تلوّى واحد من الأهالى جوعًا أمامه ، فالمملوك هو (السلطة) وهو السلطة الوافدة وهو السلطة المختلفة (عرقا) عن سائر الناس ، وظل هذا الفكر نفسه إلى عهد قريب ، وربما إلى الآن فالشخص حتى إذا لم يكن مملوكى الأصل بمجرد انتقاله إلى (مجموعه) السلطة نظر للناس على أنهم (أهالى) من فئة أخرى .

ذهب كاتب هذه السطور لحذّاء (جزمجى) ليخصف له نعله (يصلح له حذاءه) في أحد مراكز محافظة القليوبية ، فوجد عنده مخبرا يطالب بتسلّم حذائه الذى اعطاه للحذاء منذ يوم مضى ، فاستمهله الحذّاء ، ثم إن الحذّاء تركنا لبعض شأنه ، فراح المخبر يتجاذب معى أطراف الحديث وراح يشكو من قلة ادب هذا الحذّاء ، وقال من جملة ماقال : إذا كان يتصرف معى بهذا الشكل فكيف يتصرف مع الأهالى ؟ ولما سألته عن عمله ، وضع يده فوق طاقيته وهيّأ من وضعها وقال لي : مخبر ، فقلت له ملتمسا العذر للحذّاء :

معلهش ، غلبان وشغله كثير ، وأجره رخيص ، ثم سألت المخبر : كم أعطيته في إصلاح النّعل ؟ فنظر إلى مستغربًا وقال : انت عاوزه ياخد منّى !

فقلت له : لا مؤاخذه ، ما أخدتــش بالى » فقال المخبر : « ده الاحترام واجب فقلت له : « نــعم ، الاحترام واجب» وقلت لنفســى : « هذا صحيح وهذه ليست قصة فردية ، ولكنها القاعدة .

سلطان تاجر الجملة :

لا يكفى أن يكون عندك مال ودكان لتتعــامل مع تاجر الجملة ، لكن هناك (اسلوبا) خاصا للتعامل معه بحيث يحس انك من (رعيته) أو من (جماعته) أو حتى من (رجاله) ، فهو (المعلّم) أو (الشهبندر) أو (الخوجه) . . وكل هذه الألفاظ تراث مملــوكى وهو الذى يعطيك وهو الــذى يمنعك ، أما إذا اردت أن تتعامل معه بشكل واضح كتاجر تجزئة يــتعامل مع تاجر جملة فلن تحصل على السعر المناسب ، لان الــسعر المناسب (سر) في التراث المملــوكي والبدوى على سواء (سنتــناول إن كان في العمــر بقية التراث الــبدوى في الدولة المصــرية في كتاب قادم إن شاء الله) .

ويحكى لنا احد الرحّالة الاوربيين وهو بــوركهارت عن طريقة الاتفاق على السعر في الحجاز ، فــيقول إن المشترين يتحلقون حول البــائع (بائع الجملة – أي أن البائع والمشترى مــن التجار) ويسلم كل بائع تجزئة عــلى تاجر الجملة ، وعن طريق هذا السلام يتحدد السعر ، فإذا ضغط على يده أربع مرات مثلا كان السعر ٤٠٠ (مــثلا) وإن ضغط مرتين فــالسعر ٢٠٠ أو إن أمسك اصــبعين من أصابعه فالسعر ٢٠٠ وإن أمسك أربعــة أصابع فالسعر ٤٠٠ وهكذا ، وإن كان الحوار على مــن سيفوز بالصفــقة فأحيانا يتــم إخراج الاصبع الوسطى لــتلمس باطن كف السائل فيكون المعنى أن فلانا هــذا لن يأخذ الصفقة ، أو بتعبير آخر

أخذ (بعب . . .) والكلمة بين القوسين غير كاملة، فالحياء واجب كما أن الاحترام مطلوب لكن يمكن إكمالها بإضافة واو وحرف آخر ذي جرس .

فالعمليات التجارية - على المستوى الداخلي - تدار كما تدار معارك المماليك الحربية ، فيها (دس) و (سر) و (صراع) والحقيقة أن التجارة في كل مكان لا تخلو من شئ كهذا ، ونحن هنا نتحدث عن (الدرجة) لا النوع ، ففي مجتمع القبيلة ، ومجتمع الاقتصاد الأوربي الحر لا يخلو الأمر من شيء كهذا ، لكن ليس إلى الحد الذي يشكل قاعدة .

لذلك فإن كل ما كتبه هيكل عن الاستراتيجية وتوازن القوى ، والتناطح بالرأس وغير الرأس والتكتيك ، . . . الخ كان يمكن أن يكون مدرسة عظيمة في مجتمعات الغرب أو الشرق الخالية من التراث المملوكي ، أما في مجتمعات التراث المملوكي فإن مثل هذه الأفكار لا تطبق إلاّ في (الداخل) حيث التربة ملائمة وحيث التراث المملوكي يطفح ويفسد أي قانون أو تنظيم . ألم نقل إن الفكرة في حد ذاتها لاتزيد في أهميتها عن التربة المبذورة فيها ؟! ويقول المثل المصري ذو الرائحة الطبقية (لا تعلّموا أولاد السّفلة العلم) ، وبلغ من إيمان المصري بهذا المثل انه نسبه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا بطبيعة الحال غير صحيح. والعلم شيء رائع ، و (ابن السافل) هو التربة التي تحيل العلم (الشيء الرائع) الى ماهو مضر ، فالكيمياء علم مرتبط بتقدم الأمم لكن (ابن السافل) يحيله إلى شيء ضار بتقديم (السم) الكيميائي إلي غريمه ، والطب علم ضروري لكن الطبيب (ابن السافل) يستغل معرفته بالطب لإعطاء شهادات طبية مزوّرة ، ورفع درجة حرارة المتهم بالقتل ليثبت أنه كان مريضا ومقيما بمستشفاه الخاص ، والميكانيكا من ضرورات الحياة الآن ، لكن الميكانيكي (ابن السافل) يقوم بفك موتور السيارة ، ليشهد أن هذه السيارة التي

ارتكبت حادثا كانت في ورشته منذ أيام . . . كل هذه الأمثلة تبين أن (التربة) التى تلقى فيها الفكرة قد تكون أهم من الفكرة ذاتها .

ترى في أي تربة ألقى هيكل بذور أفكاره عن (التوازن) و (الاستراتيجية).. الخ ؟ ونضرب مثلا بهيكل – مع أن القول ينطبق على آخرين – لأن مقالات هيكل في (الاهرام) كانت هى أول ما يقرأه جيلى في الصباح .لم تثمر مقالات الاستاذ هيكل وغيره في تكتل المصريين تكتلا مفيدا خارج الوطن ، وإنما أسهمت في تعميق مفاهيم الصراع داخل الوطن . ليس عيب هيكل دائما وإنما هو عيب التربة .وقد استخدمنا عبارة (ابن السافل) تمشيا مع المثل آنف الذكر لكننا ننكر كل ما في هذا المثل من استعلاء وطبقية ، ونضع العبء كله على التراث المملوكى التشرذمى ، ولابد أن هناك طريقة ما أو طرقا للتخلص منه .

المزاد وتقسيم الأراضى ، والإسكان الاقتصادي :

تطرح الحكومة أو الشركات أراضى للبناء بأسعار معقولة ، إلاّ انه من المحال أن يشترى الشخص العادى غير الخبير في التراث المملوكى قطعة أرض واحدة بالسعر المعلن عنه ومن المنبع مباشرة وانما لابد غالبا أن يكون هو المشترى الثانى بمعنى أن مملوكا من المماليك أو أحد أحفاد المماليك أو من تشرب التراث المملوكى تماما ، فهو وحده الذى يستطيع أن (يتشرذم) مع مسئولى الشركة أو مسئول الحكومة ليشترى عشرات القطع بالسعر المعلن عنه ، ثم يقوم هو ببيعها بأضعاف ثمنها ، وإذا نصت الشركة أو الحكومة على أنه (لايجوز أن يشتري الفرد أكثر من قطعة واحدة ، فإن المملوك لايقف أمامه مثل هذا الحائل ، فهو سرعان ما (يتشرذم) مع موظفى الشركة ومسئوليها ليشترى باسمهم عشرات القطع ، أو أن يكون مجموعة من البؤساء يشترى باسمهم لقاء اكرامية بسيطة

ولضمان حقه فإنه سيحصل من كل واحد منهم على توكيل بيع ، وللإخوة المحامين باع طويل في مثل هذه الأساليب .

هل يجدى أمام هذا تشريع اشتراكى أو رأسمالى أو إسلامى متطرف أو اسلامى متنور ؟ ومعظم الشقق التى تطرحها الشركات بأسعار معقولة يجرى فيها مايجرى في ميدان الاراضى ، أما إن أردنا حل المشكلة بالمزادات ، فإن المسألة تصبح أخطر ، فللمزادات نظامها ، وللمظاريف المغلقة أيضا نظامها ، وكل الضمانات في هذا المضمار ضمانات ورقية نظرية ، والنصر في النهاية لمن استوعب التراث المملوكى وفي القلب منه (فن التشرذم) ومبدأ (أنا وحدى) والباقى (أهالى) وأحيانا يعبر عنهم بلفظ عامى آخر هو سكّه (بفتح السين) أو (أي كلام) وفي الشام يستعاض عن سكه بلفظ أزعر (والجمع زعر بضم الزين وتسكين العين) .

اتحادات الملاك :

عندما اختفت لافتة (شقة للإيجار) وانتشر نظام تمليك الشقق ، وكوّن الملاّك (اتحادا) من المفترض أنه لرعاية مصالحهم ، خاصة أمام صاحب العقار الأصلى (المالك الأول الذى باع لهم) ولست هنا بصدد التاريخ لنظام التمليك ، لكننى سأتناول ـ فقط ـ ماهو اجتماعى ، وارتباطه ـ فيما أري ـ بالتراث المملوكى :

- يحرص المالك الأصلى للعمارة (سواء كان فردًا أم شركة) على أن تبقى في العقار شقة باسمه حتى لو كان مالكا لعشرات العمارات .

- يحرص على أن يكون أحد الملاّك قريبا له أو تابعا له أو من جماعته .

- يحرص بقدر الامكان على عدم تشكيل اتحاد للملاك ابتداء، حتى

لايكون للملاك صفة عند الشكوى من تجاوزات البناء أو تحويل الجراج الى محلات وبوتيكات وما إلى ذلك .

– في حالة تكوين الاتحاد وتسجيله فإنه غالبا مايضم (أتباع) المالك الأصلى ، وتبدأ المساومات .

– ترتفع الأصوات للدفاع عن حقوق الملاك (هكذا) وربما نشرت الشكاوى ورفعت الالتماسات للمحافظ وأجهزة الحكم المحلّى ، وقد يدهش القاريء الذى لم يخض التجربة عندما تقول إن معظم هذه الشكاوى (غير حقيقية) ومعظم الاصوات العالية بالمطالبة بحقوق الملاك (غيرحقيقية) وانما هى نوع من الضغط والمساومة ، إذ غالبا ما تسوّى المسائل بحيث يحصل بعض أو كل أفراد مجلس إدارة العمارة – دون سواهم من الملاك – على أموال عينية أو نقدية مقابل تغاضيهم عن تحويل الجراج الى محلات أو بوتيكات ، ويقع اللوم في النهاية أمام الملاك البسطاء أو السذّج على الحكومة (المحافظة مثلا) التى لم تستجب للشكاوى ولم تزل التعديات عن الجراج

وهكذا يتم تفريغ الشكل الأوربى من مضمونه تماما كما يتم تفريغ الانتخابات من المعنى الديمقراطى ، ونظام الإدارة من معنى التنمية ، فاستخدام القوانين الأوربية ، ونقل مفردات الحضارة الغربية : أمر يحتاج إلى إصلاح التربة لاستقبال البذور الجديدة .

بين الضريبة والفردة (بكسر الفاء وتسكين الراء) : لعلّه بات واضحا في ثنايا هذا الكتاب أن المملوك لا يجيد إلاّ الحرب أو إدارة الصراع بين مجموعته نفسها أو بين مجموعته والمجموعات الأخرى ، وإذا لم يحصل على رزقه بواحدة من هاتين الوسيلتين ، فليس أمامه إلاّ (تجارة النفوذ) وهو أن يحصل على المال من الذين يعملون أو من الذين يحصّلون المال . والمطالع للشارع

المصرى يظن أنه حُر لاتحكمه إلاّ قوانين المؤسسات كالبلدية والمحافظة. . الخ ، والواقع أن هناك حكومة خفيّة (مملوكية) لايراها إلاّ المتمعِّن ، فهناك تكتلات (مملوكية) تمنع التاجر المتجول إلاّ إذا دفع (لغير البلدية) وتمنع فرش البسطات والبيع على الرصيف إلاّ في حالة الدفع (لغير البلدية) وتمنع فتح المحال التجارية التى تمارس نشاطا تجاريا مماثلا لمحلات اخرى قريبة إلاّ إذا دفع صاحب المحل الجديد (لغير البلدية) ، بل هناك تكتلات تمنع بعض المدرسين من ممارسة الدروس الخصوصية (غير وزارة التربية) بل وتمنع بائع العرقسوس من التجول في مناطق بعينها (غير وزارة الصحة) ، بل وتمنع المتسول من التسول في مناطق غير مخصّصه له (غير وزارة الداخلية) فلكل منطقة (قبضايا) خاص بها في مختلف المجالات ، ولكل منطقة مملوك يفرض (فردة) على من يتكسّبون، أما هو فمصدر رزقه (الفِردة) . وقد يبدو أن (الفردة) قد انتهت ولم يعد لها وجود إلاّ في روايات نجيب محفوظ التى صورت مصر منذ أواخر القرن التاسع عشر، والواقع انها تطورت وتحورت وغيرت من جلدها بما يوافق بعض التغيير الذى حدث في المجتمع المصرى ، وفيما يلى رصد لبعض ظواهر الظاهرة في القاهرة الكبرى وبعض المحافظات لكن قبل ذلك لابد من التنبيه إلى أن هذا البحث ليس نقدا أو بحثا عن العيوب لكنه بحث في الاجتماع التاريخي في المقام الأول ، كما أنه لا يقصد التشهير باحد .

مثال (١) : في حديقة كبرى في القاهرة الكبرى يعمد المسئولون فيها لجلب عدد كبير من العمال الزراعيين للعمل باليوميّة وعدد منهم من الذين بلغوا سن التقاعد أي كانوا عمالا في الحكومة قبل أن يبلغوا الستين ، ويوميّة الواحد منهم (ثلاثة جنيهات) وأحيانا (جنيهان) وغالبا ما يكون العمل الذى يؤديه هؤلاء رمزيا ، لكن الغريب أن أكثر من واحد منهم ذكر ـ في حوار معه،

أجريته في ظروف عادية لأغراض هذا البحث ـ أنه يترك نصف جنيه من يوميته للمسئول الذى يدرج اسمه في كشـوف الانفار. إنها (فردة) والفرق بين الرشوة والفردة دقيق، فالرشوة هى تقديم مبلغ من المال (مباشرة أو في صورة هدية) للحصول على منفعة لا تستحقها (أو تستحقها لكنك لا تستطيع الحصول عليها إلا بذلك) لمسئول حكومى وأنت في هذه الحـاله تقدمها وأنت راغب أحيانا ، أو تقدمها وتكسـو عدم رضاك بغطاء حضارى ، أما (الفردة) فهـى قرينة القهر دائما .

– في بعض السنوات كانت وزارة التربية تستعين بالمدرسين الذين بلغوا سن التقاعد للتـدريس في بعض المواد ، لقصور في عدد المعـلمين في هذه المواد ، وبالطبـع فإن المحالين للتقاعـد والقادرين صحيا كـانوا يتكالبون علـى التدريس بنظام (الحصّة) وكان على عدد منهم أن يـزور مكتب الناظر عقب القبض (أي استلام الأجر) زيارة وديه غرضـها تقديم نسبة متفق عليهـا سلفا، سواء اتفاق كلامي واضـح ، أو مايعرف بـاتفاقية العيون EYE AGREEMENT إنها (فردة) والزيارة لم تكن وديّة .

و (الفردة) أقرب للتـراث المملوكى من الرشوة ، فالرشـوة فيها قدر من الاختيار بالنسبة للراشى ، أما (الفردة) ففيها (فرض) وفيها (إجبار) يتماشى مع طبيعة تعامل العبد الأبيض مع غير مجموعته ، وفيها لذّة نتيجة (إذلال) الطرف الآخر ، وفيها أيضا مـعنى (الركوب) الجنسى . وكلها مفاهيـم سبق أن تعرضنا لها في هذا البحـث ولعل الأصل اللغوى لكلمة (الفـردة) من (الفرض) بمعنى الإجبار أو الإلزام ثم حرفتها ألسنة المماليك .

والفرق بين (الضـريبة) و (الفردة) ايضا دقيـق يحتاج للتفرقـة بين ماهو مشروع حضاريا وماهو غير مشروع حضاريا .

فالضريبة تفرضها الدولة العصرية لتحقيق مصالح للمجموع فدافع الضريبة سيستفيد لأن جانبا من الضريبة التى يدفعها (وربما كلها أو أكثر منها) سيعود عليه هو شخصيًا بالنفع ، فعندما تأفف ابنى من بعض الدمغات التى طلبها منى موظف البنك ، أشرت له إلى نظارته الطبية التى استخرجها من التأمين الصحّى (ثمنها بالكشف خمسون جنيها على الأقل) وإلى تعلّمه في المدرسة الحكومية بما يفوق أضعاف ما دفعه (حوالى أربعين جنيها) . . . الخ .

أما (الفردة) فيفرضها شخص أو مجموعة أشخاص ، لصالحهم هم فقط ولأسباب غير مشروعة ، ولاتخضع - أي الفردة - للمحاسبة ، ولا يعود فيها شيء على الدافع .

ومايقال عن الضريبة يقال أيضا عن (الغرامة) فالغرامة في مجتمع الغرب والمجتمعات غير المملوكية ، من المفترض أن يدفعها المواطن وفي نفسه شيء - ولو قليل - من الرضا ، فهى تنبيه له كى لايعود مرّة اخرى للخطأ الذى استوجب المخالفة ، كما أن جانبا كبيرا منها سيعود عليه بالفائدة مادام الجابى هو الدولة، لكن يحدث أحيانا أن يعطى بعض المسئولين الحكوميين (للغرامات) شكل (الفردة) ، بأن يتكتل عدد من مسئولى الشرطة على قارعة الطريق ويقررون تغريم (كل) سيارات الأجرة العابرة (التى يسوقها حظها للمرور أمامهم)، وتكون الغرامة للكل حتى يحصلوا على أكبر نسبة إذ يبدو أن لموقع الغرامة نسبة رسمية منها أو تحويل الغرامة إلى (فردة) فلايذهب عائدها للحكومة ، لكن هذه الظاهرة تلاشت فيما نظن في أواخر النصف الثاني من القرن العشرين. ولعل في تحليلنا لنسيج المجتمع المصرى ما يفيد في تفسير أمور كثيرة - منها على سبيل المثال إحساس الاجانب الذين يتعاملون مع الجهاز الإدارى المصرى بالتوتر الشديد ، وإن كان المصريون قد تعايشوا على نحو أو

آخر مع ذلك لأن كلاً منهم يحمل في طياته تراثا مملوكيا على نحو أو آخر بصرف النظر عن موقعه .

وضع اليد :

والطريف أن وضع اليد على الأرض الخالية مبدأ إسلامى ، (فمن أحيا أرضا ميتا فهى له) أو (فله رقبتها) على حد تعبير الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولن أخوض في الجوانب القانونية لهذا المبدأ لأن للقانون فرسانا كثيرين ربما أكثر من اللازم ولأن المبحث الذى نتناوله يتعلق بالاجتماع التاريخى كما هو واضح .

والأصل أن هذا المبدأ في ظل ظروف صحية وبيئية مناسبة - يؤدى إلى التوسع الزراعى وزيادة العمران ، لكن هذا المبدأ مطبقًا على الأرض وعلى غير الأرض كان - ولايزال - من أخطر المبادىء التى تهدد الاقتصاد المصرى ، ومن أخطر المبادىء التى تشيع جو التوتر في الريف وغير الريف ، ومن المدهش أن يظل هذا المبدأ في دولة تضخم جهازها الإدارى - لكنه في الحقيقة ذو أبعاد مملوكية ، فلم يكف هذا وانما نجد هذا المبدأ مقررا في القانون مكتوبا في العقود « وضع اليد المدة الطويلة » وهي عبارة يرددها الفلاح المصرى عندما يسوق اللؤم أمام محدّثه وعن طريق هذا المبدأ استطاع المماليك أن يصبحوا من أصحاب الملايين (ملايين إحصائية وليست ملايين استثمار حقيقى) .

إن القوانين المصرية - وهى في معظمها لا يتناقض مع الشريعة الاسلامية رغم اقتباسها من أوربا لن تصلح وحدها بسبب التربة غير الملائمة، وقد طبقت بعض الدول ذات التراث المملوكى احكام الشريعة بشكلها المباشر ، ولم تؤت النتيجة المرجوة - ليست مسألة قوانين فيما نظن وانما مسألة إعادة تكوين القيم السائدة بالاضافة إلى إيجاد تنظيمات تغير البناء الاجتماعى وليس مجرد اعادة

هيكلته ، وسنورد في الفصل التالى تقـارير مفصلة لإعادة البناء الاجتماعى إلى وضعه الصحيح ، بعيدًا عن المراسيم والقوانين فما أكثر القانونيين في مصر ! .

ونفضل أن نلحق هذا الفصل ببـعض الأرقام ذات الدلالة من كتاب هيكل (١٩٩٥ باب مصر إلى القرن الواحد والعشرون) وكتابه (مصر والقرن الواحد والعشرين) والأرقام على ذمته ، كما أن هـذه الأرقام تؤكد مانذكره عن التأثير التراثى المـملوكى في الاقتـصاد وعن الفرق بين الـنمو الاستثمـاري الاقتصادى ومجرد تضخم الثروة [١] .



(١) راجع أرقام هيكل في ملاحق الكتاب .

الفصل السادس

لماذا يحارب المصريون المغتربون بعضهم بعضًا ؟

- مشكلة حار فيها القاصى والدانى
- تساوت الرءوس .
- الفقر ليس هو السبب . لماذا ؟
- غيرة المهنة ليست هي المقصودة . لماذا ؟
- الفردية في مجتمع العبيد البيض .
- سافرت يا زعلوك !
- علم اجتماع العبيد
- الأسماء المملوكية بما تحويه من تراث مازالت شائعة شيوعا كبيرا .

حار القاصى والدانـى في أمر المصريين إذا ما اجتمعـوا في بلاد الغربة . . إذا ما هاجروا إلى الـولايات المتحدة أو كندا أو بلاد الانجـليز . . إذا أعيروا أو تعاقدوا في السعودية أو الكويت أو غيـرها من الدول . أن بأسهم بينهم يكون شديداً . . ولا تكاد تجد بينهم روح (الجماعة) أو (القبيلة) أو (العشيرة) . . يبلّغ بعضهم عن بعضهم الآخر كذبا وباطلا أو حقا أريد به باطل . . يتحالفون تحالفـات مؤقتة لاسقـاط الناجح منـهم . . يكونـون تجمعات (صغـيرة) ضد تجمعات صـغيرة أخرى . . ولم يحـدث - إلاّ فيما ندر ولظـروف مؤقتة - أن ظهروا بمظـهر الجالية الوطنـية التى تحافظ على مـصالحها . وتظهر الـتشرذمات (المملوكية) بين المصريين في الخارج (بلاد الغـربة) بشكل أوضح بكثير مما تظهر داخل مصر نفسها ، وثمة ظواهر هامة يمكن رصدها ، ويمكن أيضا تفسيرها من واقع التراث المملوكى العريق (تراث العبيد في الحكم والاجتماع) .

تساوت الرءوس :

لنتصوّر معًا عميد إحدى الكليات الجـامعية في مصر بدرجة استاذ ، التقى مع مدرس جـامعى من مـدرسى كليتـه في مجال عمـل خارج مصر (ولـيكن جامعة أجنبيـة) ، كيف تكون العلاقة بينهما ؟ سيـحاول المدرس بكل جهده ، وكل إيماءاته أن يثبت أن أيام سيطرة العميد قد ولّت ، وأنهّ - أي المدرس - حُر هُنا، وأنه لا سيطرة لعـميد أو غيره عليه وأن هذا العميد وصـل لمنصب العمادة في مصر (بـالتهجيص) وأن قاعة المحـاضرات - الآن - هى الفيصل بيـنهما . ولابد أن يتعرض هذا الـعميد - إذا لم يكن قوي الشكيـمة بارعًا هو الآخر في ممارسة التراث المـلوكى - لشتى أنواع الاهانات و (قلّة الـقيمة) . إن المدرّس في هـذه الحاله يتـصرف تصـرف المملوك الـذى أفلت مـن قبضة (اسـتاذه) أو المملوك الـذى يسعى - بدوره - لتـكوين (مجموعـة) خاصة به ضد مجـموعة

العميد (المملوك الآخر) ليبدأ المملوكان في الصراع للوصول إلى السلطة - والسلطة هنا هى الوصول إلى قلب صاحب العمل (الجامعة الأجنبية التى يعملان بها) والوصول إلى قلب السلطان (وهو هنا رئيس العمل السعودى أو الكويتى أو الامريكى . . . إلخ) وغالبا ماينجح المدرس (الأقل درجة في مصر) في تحطيم العميد (الأعلى درجة في مصر) لأن السلطان (صاحب العمل الإماراتى أو القطرى . . . إلخ) غالبا ما يكون لديه استعداد نفسى للاقتناع بأن الكبير في بلاد السلطان الآخر صغير عنده .

هذه هى القاعدة التى لها استثناءات تؤكدها ولا تنفيها .

- كأن يستطيع العميد المصرى بحكم خبرته المملوكية أن يربط مصالح بعض أهل البلاد الأجنبية التى يعمل بها بوجوده ، كأن يعد أحدهم بالتسجيل له لدرجة الدكتوراه في مصر ، ويعد آخر بتسهيل أمر إقامته في مصر ، ويعد ثالث بإعداد بحث ينسبه - أي هذا الثالث - لنفسه. . .إلخ .

- إذا استطاع العميد (المملوك الكبير) أن يعطى (زنبة) مملوكية أصيلة للمدرس(المملوك الصغير) يجعل السلطان(صاحب العمل الأجنبي) يسخط عليه

- إذا استطاع العميد (المملوك الكبير) أن يقيم مشروعًا تجاريا مع السلطان أو أحد رعاياه ، فقد ضمن في هذه الحاله البقاء الدائم .

- إذا استطاع العميد (المملوك الكبير) أن يزجّ ببعض نسائه (زوجته أو أحدى بناته) لتقيم علاقة حميمة مع حريم السلطان ، بحيث لا يستغنين عنها

- إذا أقنع العميد (المملوك الكبير) المدرس (المملوك الصغير) أنه سيستقيل بعد عام أو عامين أو أن عقده سينتهى بعد مدّة محدودة، ففى هذه الحاله قد يفكر المملوك الصغير في إنهاء الصراع .

وبطبيعة الحال فإن (المملوك الصغير) سيفكر مائة مرّة قبل شن الحرب على (المملوك الكبيــر) إذا فهم - أو جعله المملوك الكبير يـفهم - أنه - أي المملوك الكبير ذو صلة بالأجهزة النافذة في مصر ، وأنه - أى المملوك الكبير

- يستطيع أن يجعل هذه الأجهزة النافذة تلقى القبض عليه في المطار عند قدومه لمصــر ، أو تدخله في غياهب الــسجون والمعتقلات إذا فكــر في العودة إليها .ويصبح المملوكان : الكبير والصغير أصدقاء في الظاهر حيث تخف حدّة (الزّنب) و (الدبابيس) (والبعابيـ . . .) إذا علـم المملوك الصغير أنه سيعود إلى مصر بالضرورة مع المملوك الكبيــر الذى سيكون له عليه نفوذ أو سطوة - مرة أخرى - في مصر.

وما ذكــرناه آنـفا ينـطبـق علـى حال المدرس الأول والمــدرس ، والنــاظر والمدرس ، والعامل والمهندس ، والصبى والمعلّم ، والجندى والضابط والتاجر وزملائه والمذيع وأقرانه ، والعامل ورفاقه حتى لو كانوا أبناء بلدته . . إلخ .

الفقر . . ليس هو السبب ؟

ليس الفــقر الذى يعانيــه المصريون في بلادهــم - كما قيل هو الــسبب في ظاهرة تصارع المصريين في الخارج التى حار فــيها - كما سبق أن قلنا - القاصى والدانى ، بل هــو التراث المملوكــى الذى يورّث كما تورّث المــلامح ، وألوان البشرة . والملاحظ أن ظـاهرة الصراع في بلاد الغربة بسبــب غير واضح ، غير ظاهرة لــلعيان في البــلاد التى ينعدم فــيها التراث المــملوكى أو يقل ، حــتى لو كانــت فقــيرة فالمــلاحظ أن هذا الــتصــارع في بلاد الــغربة غــير واضــح لدى التجمعات السودانية بل إن السودانيين في الغربة يشكلون تجمعات قوية لها طابع وطنى رغم تباين القبــائل وتعددها ، والأمر نفسه بالنسبة للتــجمعات الموريتانية والبــربرية الجــزائرية والمــغربيــة ، وإن كان ملحــوظا في الــتجمــعات الســورية

وتجمعات شمال العراق ، ويلاحظ أن التجمعات السورية تتخذ شكل البلد (المدينة أو القرية) اكثر من اتخاذها شكل التجمعات الوطنية .

واستطاع الفلسطينيون - ربما بحكم ظروفهم التاريخية - ان يكونوا جاليات لها طابع مصلحى ضد مصالح كل الجاليات الأخرى ، وعملوا جميعا على نقل الأخبار لكل سلطان ، والاختباء تحت عباءة كل سلطان ، والتقليل من شأن كل سلطان لدى السلطان الآخر ، وقد يكون هذا محورا لكتاب آخر عن تأثير التراث التاريخى أو ما أسميه الاجتماع التاريخى الذى يدرس تأثير أهم الظاهرات التاريخية التى عايشتها مجموعة من الناس في مسلكهم العام ، وأظن أننى أثير هنا نقاطا جديدة في علمىْ الاجتماع والتاريخ على سواء .

لايمكن تفسير صراع المصريين في بلاد الغربة بما يسمّى (غيرة المهنة) :

« وعدوّك ابن مهنتك» - مثل شعبى ، وإن كانت صياغة المثل فيها كثير من المبالغة ، فالعلاقات بين أبناء المهنة الواحدة قد تحكمها المنافسة « أكثر مما تحكمها العداوة ، وفي مجتمع لا تحكمه القيم المملوكية تصبح (غيرة المهنة) خيرا خالصا فهى تؤدى إلى تجويد المهنة وإتقانها ، وتبثّ روح المنافسة فتستفيد الحركة الصناعية والتجارية ويستفيد اصحاب المهن ويسعى كل منهم لتجويد بضاعته ويستفيد المستهلك أو المشترى لأنه سيربح في النهاية بضاعة خالية من العيوب ، أما في المجتمع الذى تحكمه القيم المملوكية فإن الفاصل بين الغيرة والحسد والحقد يختفى تماما ، ليصبح النصر لمن يجيد الدسائس المملوكية بمسمياتها المختلفة من (دبوس) إلى (مهموز) إلى (بعبـ . .) والكلمة الأخيرة ناقصة كتابة ، مفهومة معنى ولفظا . وقد يحرق الفلاح إن استطاع حقل جاره الأجود زرعا ، إن استطاع وأمن العاقبة ، فهذا أيسر من أن يجوّد هو زراعته ، وقد يسرق موظف (ملف) زميله المتفوق ، وقد يتحالف الموظفون (المماليك)

الضعفاء أو غير الناجحين ضد زميلهم (المملوك القوى) لإلغاء عقده أو طرده من بلاد الغربة مصحوبًا بفضيحة . . وهكذا يمضى المماليك في هدم كل نجاح حقيقى لأحد زملائهم ، فهذا أيْسر لهم من تحقيق نجاحات خاصة بهم . فالتراث المملوكى ـ عبر العصور ـ يتلخّص في إتقان فن الصراع ، وفن التكتل ضد المجموعات الأخرى ، وفن الاستقطاب . . ولم يظهر في التاريخ المملوكى مملوك مهندس كبير أو مملوك مفكر كبير ، أو مملوك فنان كبير ، وإن كان قد عمل تحت إشرافهم ولخدمتهم مهندسون وفنانون وعلماء . . . الخ .

هل هى الروح الفردية ؟

يقول المثل المصرى « . . ولا وحدانى يكيد رجال » والوحدانى هنا هو (الفرد) الذى ليس له عزوة (والعزوة بضم العين وفتح الواو هى العصبة أو الجماعة) ويقولون أيضا : « سافرت سَفْرة يازعلوك ، بَحْسِبَك تكيد الملوك ، لكن رُحت خره وجيت خَرَهَ فألف حمد الله ع السَّلامة) اى أن (الزعلوك) وهو قليل الشأن سافر سَفْرة (أي سفرًا) وكان الظَّن به أنه سيحقِّق في سفره هذا نجاحا ولكنه سافر قليل القيمة (خره وهو البراز) وعاد كما جاء .

وفي مجتمع المماليك (العبيد البيض) فإن هذا صحيح تماما ، فالفرد بمفرده ليس له قيمة كبيرة ، انه لا يستطيع ان يواجه جماعة المماليك الآخرين إلاّ بمن معه من المماليك سواء الذين تربطهم به صلة التبعيّة لأستاذ (أستاذ هنا بالمعنى المملوكى السابق شرحه في الفُصول السابقة) أو الذين اشتراهم (العبيد العبيد) ، ويلاحظ أن طبيعة اجتماع هذه التكتلات تتسم بطابع آلى (وقتى) . فالإحساس بالمساواة في العبودية (كلنا عبيد ، أو كلنا مسّنا الرّق) تجعل كل مملوك يتحين الفرصة للسيطرة .

فالفردية بالمعنى الأوربى والتى أدت إلى مردود حضارى جيد ، لا تكاد توجد في المجتمعات ذوات التراث المملوكى ، فالشخص العادى ـ حتى الآن ـ يكون حريصًا ألاّ يذهب لقسم الشرطة بمفرده (كفرد) وإنما يحرص أن يأخذ معه (جماعة) أو (عصابة) أو (احدا من أهل الحتّة) أو أن يذهب مدعّما بكارت (من عميد شرطة أو عقيد ، وحبذا لو كان لواء) ، فهو كفرد يحس أنه لا قيمة له ، وإن ذهابه لقسم الشرطة كفرد مسألة غير مأمونة العاقبة ، ومن ناحية أخرى فإن طرف السلطة (أو الشرطة) يضع ذلك في اعتباره أيضا ، فغالبًا ماتؤدى التجمعات إلى الافراج عن شخص ما أو تأجيل معاقبته. . .الخ .

سفارة المماليك

ولا يلقى أفراد الجاليات المصرية من سفارات بلادهم العون الكافى لاسترداد حقوقهم إن كانت لهم حقوق في البلاد التى يعملون بها ، اللهم إلاّ إذا كان ذلك في حالات فردّية سلطت عليها الأضواء أو وقعت تحت ضغط وسائل الاعلام ، وقلما يحدث هذا في سفارات أخرى إلاّ في السفارات التى تمثل دولاً يحمل تراثها حملاً مملوكيا .

لقد اتفقنا أن الفردية في التراث المملوكى تعنى أننى (وحدى) محور الكون ، وأن تحالفاتى (مؤقتة) وأن (السلطان) ليس أفضل منى ، وأننا جميعا (عبيد) ونحن كلنا (أولاد . . .) وأن (مفيش حد أحسن من حد . .) وأن (ليه ميكونش لى أنا الكوم الكبير) . . . . الخ ، ومن ثم فإن هذا المنطق نفسه هو السائد لدى رجال (أو نساء) سفارة المماليك . . من السهل إذن على المملوك العامل في السفارة أن يبيع مصالح أو حقوق أيّ من المماليك الآخرين لسلطان البلد المضيف ، . . إنه يفعل ذلك وهو مقتنع تمامًا بأنه لا يأتى بتصرف معيب فإن قبض مالاً ، فتبريره أن هذا المال مآله الى مصر فهو – نفسه – مصر

وإن أقنع صاحب العمل بإحلال أقارب له بدلاً من هذا المشاغب - أي أقارب لمملوك السفارة - فليس في الأمر شيء ، لقد أحل مصريا محل مصرى . . وعندما أثرنا امام احد المسئولين أنه يَخُص أقاربه وجماعته ، كان ردّه : أليسوا مصريين ؟! إنها المصرية أو الوطنية في التراث المملوكى - تراث العبيد البيض الذين أصبحوا حكاما . يلاحظ هنا أننا لا نوجه نقدًا وإنما نقوم بعملية تشخيص أو تفسير لظواهر موجودة فعلا مع اقتناع كامل أن النقد أو الوعظ أو الإرشاد لاقيمة لها البتَّة ، ويكفى تعرية الأمور وتوضيحها وتوجيه الاهتمام لعلم الاجتماع التاريخي أو التفسير التاريخى للظواهر الموجودة بالفعل فهذا يمهد السبيل - بلاشك - لإصدار القرارات وإعداد التنظيمات المناسبة ، التى قد تقلل رويدًا رويدًا من هذا الأثر التاريخى المتغلغل ، إن كنا نريد أن يكون لأى تشريع أو قانون قيمة ، وأرجو أن يكون هذ هو موضوع الجزء الثانى من هذا الكتاب .

هل المصرى ـ حقيقة ـ قليل القيمة أو لاقيمة له ؟

يسمع المرء كثيرًا في بلاد الغربة ، من المصريين أنفسهم عبارات على شاكلة (ماذا نفعل ، المصرى أصله رخيص) وسمعت من استاذ جامعى يقول ناصحا أحد زملائه : (لاتتمسّك كثيرا . فالمصرى لاقيمة له) قد يكون هذا القول خطأ، بل انه بالفعل كذلك ، لكننا هنا كما هو واضح من منهجنا في هذا الكتاب نقوم بدور التشخيص والتحليل والتفسير ، ولا نقدم عظات أو ندافع عن أفكار لنهاجم أخرى .ولايمكن تفسير (قلة قيمة) المصرى بالفقر ، لأن هناك ـ كما سبق القول ـ شعوبًا أفقر بكثير من المصريين ولا يُعاملون المعاملة نفسها في الخارج ، وتدافع عنهم سفاراتهم بالحق احيانا وبالباطل أحيانا اخرى ومن ذلك أن مدرسًا تابعا لدولة عربية وليكن اسمها (ع) كان يعمل في الجزائر

ثم ضاجع طفلاً في المدرسة الابتدائية التى يعمل بها ، أي أتاه ، أي لاط به وتم اكتشاف أمره ، فقررت حكومة البلد المضيف - بعد التحقيق معه - أن تطرده من البلاد ، وهذا ابسط اجراء ، لكن البعثة التعليمية التى يتبعها هذا المدرّس اللوّاط ثارت وقررت انه إذا تم ترحيل هذا المدرس اللوّاط (أو اللوطى) فإنها جميعا سترحل معه . . إن المسألة إذن ستتحول إلى أزمة وبقى المدرس اللوطى حتى أتم عامه ثم رحل إلى بلده العربي باختياره في الظاهر على الأقل

وتستضيف مصر سودانيين - وهم ليسوا أغنياء - ويمنيين وهم أيضا ليسوا أغنياء ، وهم يتصرفون في مصر - أحيانا - برعونة ، وإذا تم التصدى لرعونتهم - وقليلا ما يحدث هذا - دافعت عنهم سفارتهم بحماس ، ووقفوا هم موقف الجالية الوطنية ، ولا أظن أن المصريين يفعلون الشيء نفسه في اليمن أو السودان .

إن الاجتماع المملوكى يوضح أن كل مملوك في حد ذاته دولة أو كيان لا يتبع إلاّ بشكل مؤقت - مجموعة المماليك البحرية أو الجراكسة ، وأن كل مملوك هو في حد ذاته دولة أو كيان لايتبع - إلاّ بشكل مؤقت - مجموعة المماليك المنصورية أو الأيوبية، أو الأيبكية . . . الخ .

ومازالت الأسماء المملوكية أو التى تحمل تراثا مملوكيا موجودة - بين المصريين . . وهى اكثر من أن تدخل تحت حصر - وقد استعرض لويس عوض في كتابه أوراق العمر - شطراً من الاسماء المصرية الاسلامية والقبطية مرجعا أصولها لتراث دينى توحيدى وإلى الحقبة البيزنطية، ونورد هنا شطراً آخر من الاسماء التى تحمل دلالات التراث المملوكى ، فالخميسي الذى اشتروه بخمسة دراهم أو الذى يقود خمسة ، والعشرى الذى اشتروه بعشرة دراهم أو دنانير أو كان قائدا لعشرة ، والميهى لاشك أنه كان أطول وأعرض فاشتروه بمائه

والألفى بـألف . . . أما الميتـكيس مائة كـيس) فلا شك أنه كـان مملوكا يتـمتع بمزايا كبيرة ، والدويدار أو الدوادار هو حامل المحبرة (الدواة) والخازندار هو مسئول الخزانة ، والترابى هو العبد المخلص لانه قد تم شراؤه صغيرا كما سبق القول ، والخاشقجى هو العبد الذى تخصص في صناعة الخاشوقة أو الخاشوقا وهى الحلوى ، والشوربجى هو الذى تخـصص في توزيع الشوربة وهى المرق على الجنود، والخلقانى هو بائع الثياب القديمة، أما الزعلوك فهو المملوك الذى ظهرت فيـه عيوب كثيرة فـلم يوكل له عمـل ، والدالى هو العسـكرى المرتزق الذى يعرض نفـسه على كل الاطراف المتقاتـلة ليقاتل مع أي منهـا لقاء أجر أما الطرخان فهـو المملوك الذى يعيش عـلى الريع أي المملوك الذى كـبر في السن ولـم يعد يستطيع الـقتال أو المشاغبة، عندئذ يعطيه سيده الســابق اعترافا بفضله (طرخانية) أى قطعة أرض بما عليها من فلاحين ، ويجلس الطرخان في القاهرة أو في أي مكان ليأتيه (الريع) فينفق منه حتى يوافيه الأجل ، وكلنا يذكر عندما عرضت شركات تـوظيف الأموال في الثمانـينات من هذا القرن نسـبة فائدة أو ربح كـبيرة ، وأحـيانا تفـوق الخيال ، كـيف باع صـاحب التاكـسى عربـته ، وصاحب الدكان دكانه وترك صاحب الحرفة حرفته ، وأودع أمواله في شركات توظيف الأمـوال ، حيث ينتظر (الريـع) كل شهر أو عام ، وجلس سـعيداً بلا عمل (طرخان) على المقهى أو أمام الدار، لقد حولت شركات توظيف الأموال المصريين إلى طرخانـات ، وليس هذا بالأمر البعيد عن تراث المـماليك ومازالت بعض العـائلات تحمل الاسم نفسه : طـرخان . ويلاحظ أن الأسماء المـلوكية التـى تشير إلـى مهن أو حرف قـد تأخر بعـضها إلـى العهد الـعثمانـى ، ومن المعروف أن العثمانيـين لم يحكموا مصر إلا حكما شكليـا ، أما الحكم الفعلى فكان في أيـدى المماليك ، وعندمـا قدم الفرنسيون في حـملتهم الشهـيرة سنة ١٧٩٨ واجهوا - في بادىء الأمر - القوى المملوكية لا الجيوش العثمانية . .

الفصل السابع

فلول نظام العبيد البيض

والحاجة لضربة حاسمة

{ دور مبارك }

- مقدمة
- نظام المقررات (الساعات المعتمدة) في الجامعات المصرية وحل مشكلة التشرذم المملوكى .
- فرض الإصلاح
- قاضى الشارع
- لجان من القضاة ورجال الشرطة . هل هذا ممكن ؟
- الجذور التاريخية لعادة الشخير
- طه حسين ، وحسين كامل بهاء الدين
- البعد الأمنى

لاشك أن جهود المصلحين الذين توالوا على مصر جعلوا المماليك انفسهم وتراثهم يتلاشى شيئا فشيئا ، فقد كان لقدوم الحملة الفرنسية ١٧٩٨ دورها المهم في فضح النظام المملوكى وتعريته ، ومذبحة المماليك التى قام بها محمد على ١٨١١ رغم مافيها من قسوة ولا إنسانية أسهمت في اضعاف العرق المملوكى لكنها لم تجتث تراثه ، بالاضافة إلى ظهور الزعامة الشعبية ممثلة في عمر مكرم ورفاقه، ثم انتشار التعليم منذ عهد محمد علي،والبعثات الى اوربا والتحديث في عهد اسماعيل ، وجهود مصلحين توالوا على مصر ، كالأفغانى ومحمد عبده وحسن البنا ، ثم الحركة الاصلاحية العظيمة المواكبة لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وقانون الإصلاح الزراعى وانتهاج الخط الاشتراكى غير المتطرف ، كل ذلك راح ينحت رويدًا رويدًا في غول التراث المملوكى ، إلاَّ أن العدو يكون أكثر خطرا وهو جريح على شفا الموت ، فأطل التراث المملوكى بكل جبروته أثناء سياسة الانفتاح وظهرت تشرذمات قويه ما كان الظن أن تظهر بمثل هذه القوه ، وتصدى مثقفو مصر لهذه الظاهره ، وعرّوا جانبا كبيرًا منها ، فلم يبق للتراث المملوكى إلاّ ضربة واحدة حاسمة تجهز على فلوله ، ونعتقد أن الوقت قد حان لهذه الضربة ليكن هذا في عصر مبارك ، وسنكتفى في هذا الفصل بالتعرض للتراث المملوكى الباقى في الجامعات ، وفى الجهاز التنفيذي والقضائى .

نظام المقررات (الساعات المعتمدة) في الجامعات المصرية ، وحل مشكلة التشرذم المملوكى :

يقف الدكتور سرور أمام ألوف قد يصلون للعشرات ليلقى محاضراته في القانون وخلفه حرس مدّجج بالسلاح؟ لماذا ؟ القلة في أساتذة القانون ؟ أم أن الرجل لديه متسع من الوقت والقاصى والدانى - يعرف أن مهامه تنوء الجبال

بحملهـا ؟ واعداد الطلبة في أعرق الجامـعات العالمية وأمام أكثر الأسـاتذة علما لايمكن أن تصل إلى عشر اعداد الطلبة الجالسة أو الواقفة للاستماع إلى الدكتور سرور في كلية الحقـوق جامعة القاهرة ،وما يقال عن الدكـتور سرور يقال عن غيره .قد يقـال إن أعداد الطلبة عندنا غـفير وهذا غير صحيـح إذا قيس بأعداد الجامعيين في دول أوربـية عديدة ، وقد يقال إن الأساتذة عنـدنا عملة نادرة ، وهذا كذب يـحتاج إلى تـنفّس بصوت مسـموع .والتنفـس بصوت مسـموع قد يكون (تنهيداً أو تنهّدا) وهو صـوت يصدره الشخص إن أحس أن الكلام الذى يسمعه غير مستساغ أو إذا وقع عليه الـظلم، وقد يكون التنفس بصوت مسموع (شخيرا) في حالة الـشهيق وهو صوت مملوكى أصيل ، فالشخـير ارتبط غالبا بالممارسة الجنسية ، وكان المملوك يصدر هـذا الصوت تعبيرا عن ظلم وقع عليه أو اعتراضًا على رأيا لـيس فيه مصلحته ، وكأنه يريـد أن يقول لمحدثه : « هل أنت تريد ان . . ؟ » أي تريد ان تمارس معى هذا الـفعل، كنوع من العقاب ، أو هل تريد أن تـهزمنى . . وارتباط الهـزيمة بممارسة الجنس مـع المهزوم سواء كان رجلا أو امراة مسـألة عرفها التاريخ قـبل العصر المملوكـى ، فقد كان من تقاليـد بعض قبائل الجـنوب العربية أن الـقبيلة المهـزومة تخلى بيـوتها للقبـيلة المنتصرة لتفعل ما تشاء مع نسائها (نسـاء القبيلة المنهزمة) وكان هذا الفعل يعد (حقـا) معقولاً ومقبـولا مـن القبيلـتين (المنتصرة والمهزومة) لكن ممارسة هذا العمل (العقاب الجنسي) ظل قرينا للـعصر المملوكى ، ولأن المملوك كان يعتبر نفسـه من جنس مـختلف عـن (الأهالى) فقـد كان يفعـله بلا حرج كـنوع من السيطرة أو الإذلال أو التشفى . . كما كانت جمـاعات المماليك تعاقب بعضها العقاب نفسه إذا أمـنت العاقبة ، لكن هذا التراث المملـوكى بدأ يتلاشى رويداً رويداً فلم يعد شيء كهذا يحدث في المـعتقلات أو السجون أو اقسام الشرطة ، لأنه وقر في نفس رجال السلطة أنهم مـن المعدن نفسه الذى منه الشعّب ونظن

أنّ مانشر عن هتك أعراض المعتقلين أو زوجاتهم فيه كثير من المبالغة. كان هذا الاستطراد ضروريا مادام بحثنا هذا في مجال الاجتماع التاريخى .

وإذا عدنا إلى قضية التعليم الجامعى ، فإن التفسير الوحيد لوجود أستاذ واحد أمام هذا العدد الهائل من الطلاّب ليس له إلاّ تفسير مماليكى ، ففى مجتمع الاساتذه تتشكل روابط مملوكية ، فأساتذة الجامعات المصرية جزء من هذا المجتمع ككل فيهم سيئاته وفيهم مزاياه ، وليسوا فئة منفصلة تحظى بحصانة خاصة (تابو أو طابو) ، فعلاقات الأساتذة في نطاق الجامعة أصبحت تجرى على هذا النحو (وذلك من خلال الملاحظة المباشرة) .

- (شيلنى وشيلك) وهو مبدأ ظاهره التعاون لكنه فرغ تمامًا من محتواه المصلحى البسيط ، أصبح معناه انتدبنى وانتدبك ، فأصبحنا نرى أستاذا في الكيمياء أو حتى في التاريخ يقوم بالتدريس في جامعة الاسكندرية (مثلا) وفي الوقت نفسه يقوم بالتدريس في جامعة القاهرة ، وجامعة وسط الدلتا وجامعة شرق الدلتا ، بل ويقوم بالتدريس أيضا في المنيا هل . هذا عمليا ممكن حتى لو كان من أهل الخطوة ؟ وبالمناسبة فقد شاعت فكرة أهل الخطوة الذين يتجاوزون بقدراتهم الدراويشية حدود المكان في العصر المملوكى، وهل يمكن أن يقوم هذا المدرس أو الاستاذ بواجبه التعليمى والفكرى خير قيام ؟ بل هل هو يحضر ـ مجرد حضور ـ بالفعل كل هذه المحاضرات ؟

- الروابط الاقتصادية غير المشروعة : وقد يدهش المرء عندما يجد أن بعض المؤلفات الجامعية تحمل أسماء أساتذة أو مدرسين من جامعات مختلفة تعاون علمى لاغبار عليه. قد يبدو الأمر على هذا النحو، لكن حقيقة الأمر أن الكلام المكرر المعاد ، ولا أريد أن أقول الغثاء الموجود في هذه الكتب ، يجعل المرء يظن انه من المحال ان يكون التعاون العلمى هو الهدف وراء هذا التأليف

التجميعى الجماعى، إذ يمكن لواحد منهم ـ ببساطة ـ أن يقوم بالعمل كله، لكن المسألة مجرد (تعاون اقتصادى) لاتعاون علمى، والهدف هو توزيع الكتاب على الطلبة في الجامعات المختلفة التى يقوم هؤلاء المشتركون بالتدريس بها .

- وقد يجرى التربيط للوصول بأحد الاساتذة إلى منصب العمادة (تغير الوضع بعد ذلك لما هو أفضل وأصبح العميد بالتعيين) وقد لاحظ واحد من أساتذة الجامعات المصرية (د. عبدالعظيم رمضان) أن عملية انتخاب العميد أو رئيس القسم يتم تفريغها من مضمونها (الديمقراطى) وتتحول إلى مجرد تجمع مصلحى (مملوكى) والتعبير بين القوسين من عندى . فحتى الانتخابات وهى مظهر ديمقراطى غربى جرى تفريغها - ما دامت التربة غير ملائمة - من مضمونها الديمقراطى ، مثلها في ذلك مثل اى انتخابات أخرى ، مما يؤكد أن أساتذة الجامعات في مصر ينتمون للمجتمع نفسه الذى يعيش فيه مواطنوهم والذى يضم رجال الشرطة والقضاة والسمكرية والميكانيكية . . . . الخ بلا خلاف من منظور علم الاجتماع التاريخى ، رغم الفروق الثقافية .

- التكتلات لمنع التعيينات الجديدة ، وضرب حزام شديد على من ينضمون لهيئة التدريس إلاّ إذا قدم فروض الطاعة والولاء وأجرى تربيطات مملوكية شبيهة. في ظل هذه العلاقات هل يتوقع عاقل أن يرّحب أعضاء هيئة التدريس في مصر بإدخال نظام المقررات (او الساعات المعتمدة) الذى أخذت به كل جامعات الدنيا (حتى جامعات الدول العربية) والذى يقضى بتفتيت أعداد الطلبة أمام عدد كبير من أعضاء هيئة التدريس ؟

ونظام الساعات المعتمدة يقضى بطرح المقرر الدراسي امام الطلاب، وأمام المقرر يكتب أسماء عدد كبير من أعضاء هيئة التدريس، وعلى الطالب ان يختار اسم عضو هيئة التدريس الذى يريد أن يدرس معه، وعليه أن يسجّل اسمه مع

هذا المدرس أو الاستاذ عند مسجّل الكليـة أو عند إدارة التسجيل . وماذا يعنى هذا ؟

- إن هذا معناه أن يقوم بتدريس المقرر الـواحد مائة عضو هيئة تدريس أو أكثر من ذلك أو أقل، حقيقة إن هذا - أيضا - معناه أن تُعيِّن الجامعة آلافا من أعضاء هيئة التدريس ومصر الولود زاخرة بالآلاف المؤلفة .

سيقول المماليك : ليس كل من يحمل دكتوراه يصلح للتدريس في الجامعة هذا صحيح ، لكنه قول حق أريد به باطـل ، فهناك فترة الاختبار وهناك حكم الطلبـة ، ولولا الخوف لقلت إنه يمكـن لمملوك كبير أن يراقـب هؤلاء الاعضاء الجدد . إن المسألـة ليست إلاّ الخوف من أن يقـل توزيع الكتاب الجامـعى ففى حالة تعـيين آلاف جدد من أعضاء هيـئة التدريس سيـقوم كثيرون بتألـيف كتب تحمل أسماءهـم سيقول المماليك : إنهـا انتاج غير جيد، والرد بـسيط إذ يمكن عرض هذه الكتب علـى مملوك كبير قبل إجازة تدريسهـا ، أو أن تتولى الجامعة طباعتـها وبذلك يتوزع دخل الأستـاذ الواحد على مئات الأسـاتذة ، وفي هذا تنافـس يدعو للتـجويد. وإذا كان لابد فـيمكن جعـل كل مجموعـة من هؤلاء الدكاترة الجدد تحت إشراف استاذ كبير أو مملوك كبير إلى حين .

قد يقال إن عضو هيئة التدريس له مواصفات خاصة ، ونحن نتفق مع هذا القول ، لكننـا نرفض إذا كان مبررا لجعل أعضاء هـيئة التدريس مجتمعـا مغلقا لايدخل إليه إلاّ القريب أو النسيب أو الحسيب أو الذى نُذلّه حتى نعلمه الطاعة والولاء فيطيع ويعطى ولاءه ولكن إلى حين .

البعد الأمنى :

وفي ظل هذا النظام (الساعات المعتمـدة) لن يجتمع في الجامعة في وقت واحد أكثـر من عُشر العدد الـذى يجتمـع الآن ، فالمحاضرات في هـذه الحالة

ستقسم على النهار كله ، فالقانون الدستورى مثلا يقوم بتدريسه الدكتور (أ) من الساعة الثامنة صباحا حتى التاسعة، والدكتور (ب) يقوم بتدريسه من الساعة التاسعة إلى العاشرة، والدكتور (ج) من الساعة العاشرة إلى الحادية عشرة .والدكتور (ت) من الساعة العاشرة مساء حتى الثانية عشرة . وسيحضر كل طالب في ميعاده فلا تلتقى الدفعة الواحدة في مكان واحد فتقل فرص التهييج والإثارة ، وتقل فرص استخدام محراب العلم (الجامعة) لأعمال غير علمية .وفي ظل هذا النظام (الساعات المعتمدة) سيتسع مكان الجامعة ، وتصبح كلها مساحة واحدة لخدمة الجامعة ككل ، فالدكتور (أ) الذى يقوم بتدريس القانون الدستورى (مثلا) قد يلقى محاضرته لطلبته المحدودين في مدرج مشرّفه (مثلا) بكلية العلوم إن كان المدرّج شاغراً وقت محاضرته لقلة طلبة كلية العلوم ، والدكتور (ت) الذى يلقى محاضرته في القانون الدستورى مساء قد يلقيها في مدرج حسن فتحى في كلية الهندسة (مثلا) إن كان هذا المدرج شاغرا في الوقت المحدد له .وسيقوم الحاسب الآلى بالتعامل مع الجامعة كلها ، ومبانيها الملحقة بها ، كمساحة واحدة يوزع عليها محاضرات الجامعة كلها ، فقد يلقى استاذ الرياضيات إحدى محاضراته في أحد مدرجات كليات الآداب الخالية وسيكتب أمام كل محاضرة مكان إلقائها وزمانه واسم ملقيها وبذلك تتلاشى إلى حد كبير فرص الإثارة والتكتل باسم التخصص أو باسم الدفعة ،مما يتيح فرصة كبيرة للشغب وصرف الجامعة (محراب العلم) عن هدفها، فكما استفدنا من عنصر الزمان، ها نحن نستفيد من عنصر المكان وبذلك لن تلتقى دفعة قوامها ألف طالب في مكان واحد أو زمان واحد، وأقصى تكتل ممكن لن يزيد في هذه الحاله على مائة كل هذا في ظل نظام عالمى مأخوذ به في كل جامعات خلق الله .

من لى بطه حسين ؟

عندما أطلق طه حسين رحمه الله نظريته الشهيرة بنظرية الماء والهواء حيث شبه التعليم بالماء والهواء ، وكان وزيرا للمعارف وقتها احتاج لعدد كبير من المدرسين فأصدر قراره الشهير بتعيين حملة الثانوية الأزهرية ، وخريجى الجامعات من غير التربويين وخريجى الأزهر لسد العجز في الهيئة التدريسية قائلا قولته المشهورة أيضا (إن الجهل كالحريق المدمر) وأننا بحاجة إلى كل عون لإخماد هذا الحريق (الجهل) - عندما فعل طه حسين ذلك اعترض عليه - بشدة - خريجو معهد المعلمين (سنتان بعد الثانويه العامة أو خمس سنوات بعد الإعدادية) وشكلوا تكتلاً ضد المدرسين غير التربويين) وأدرك طه حسين فحوى هذا التكتل وأدرك مراميه وسخر منه ، وظل (التربويون) يكرهونه لفترة طويلة ، لكن المدرسين الجدد نجح كثيرون منهم في عمله ، وتلقى كثيرون منهم دورات تدريبية وسدوا ما كان بهم من قصور في طرق التدريس ، وكان الفصل هو ميدان تعلم بعضهم فكانوا معلمين ومتعلمين ، وقد تعلم كثيرون من أعضاء هيئة التدريس في الجامعة اليوم على أيدى هؤلاء ونجحت التجربة وحلت المشكلة .

فهل يقوم حسين كامل بهاء الدين بدور في الجامعات المصرية كالدور الذى قام به الوزير الأسبق طه حسين بالنسبة لمدارس وزارة التربية وسيجد الدكتور بهاء الدين من يؤازره في ذلك من أساتذة الجامعات أنفسهم ، فلابد أن التراث المملوكى أعفى بعضهم وغلبت عليهم ثقافتهم ، هل يصدر الدكتور بهاء الدين قراره بحصر كل الحاصلين على الدكتوراه في التخصصات المختلفة ، ويصدر قرارا بتعيين من أراد منهم العمل في الجامعة لسد العجز الكبير في هيئة التدريس بالجامعات المصرية بعد تطبيق نظام المقررات (الساعات المعتمدة)

المعمول به في كل الجامعات العالمية؟ سيثور المماليك ، لكن فرض الاصلاح من الخارج له سوابق تاريخية ، فهل كان شيوخ الأزهر كبيرو السن ليقبلوا تطوير الأزهر وجعله جامعة عصرية لو أخذ برأيهم . أم ترى كل إنسان - كطبيعة الاجتماع البشرى - يأنس لما ارتاح إليه ووجد نفسه في ظله ، ويرفض كل جديد إذا خالف مصالحه أو تعارض معها .

شئ من التاريخ :

أشرنا فيما سبق إلى أنه لم يكن من الممكن تطوير الأزهر الشريف من خلال تنظيمه الداخلى فقط ، وبالتالى لم يكن من الممكن أن نجعل منه جامعة عصرية نباهى بها الدنيا تخرج الطبيب الفقيه ، والمهندس حافظ القرآن الكريم

وعندما انغلقت الكنيسة الكاثوليكية على نفسها وتجمدت، وغرقت في المصالح الاقتصادية وغير الاقتصادية ، وفضل القسس والرهبان والكرادلة ، بل والبابا نفسه مصالحهم الشخصية على مصالح الكاثوليكية ، أدى هذا - بالاضافة لأسباب أخرى - لظهور البروتستنطية معارضة لصكوك الغفران ، وتدخل الإكليروس بينهم وبين الله بالاضافة لاعتراضات أخرى لامجال لذكرها. وما يهمنا أن المؤسسة (والمقصود هنا الكنيسة) الكاثوليكية أدركت الخطر، كما أدرك جمهور الكاثوليك الخطر الذى يحيق بكنيستهم ، وكان هناك اتجاهان (في القرن السادس عشر) .

الأول : أن تحاول الكنيسة إصلاح نفسها بنفسها .

والثانى : أنه لا فائدة من هذه المحاولة آنفه الذكر لأن تكتلات المصالح داخل الكنيسة اصبحت أعقد واكثر تشابكا ، وان الحل هو فرض الاصلاح عليها من خارجها .

وعلى أية حال فإن حزب الاصلاح الكاثوليكى الذى يضم الكرادلة والإصلاحيين الذين كانوا ينادون بالحاجة الملحة للإصلاح ، عاودوا الإلحاح على البابا لتشكيل مجلس كنسى عام للنظر في الامور الدينية ، لكن البابا ماطل في أول الأمر إلاّ انه اضطر في عام ١٥٤٩ ان يوافق على عقد هذا المجلس عندما الح عليه الامبراطور شارل الخامس لدرجة التشدد فقد كان الامبراطور يريد الوصول إلى حل يقضى على الانقسامات الدينية في المانيا وأذعن البابا بول الثالث امام تدخل الامبراطور وقوة نفوذه (فرض عليه الامبراطور الاصلاح من الخارج - أي من خارج المؤسسة الكنسية) ودعا البابا إلى عقد المجلس المنشود في ترنت Trent وهى مدينة تقع على جبال الألب بين ألمانيا وإيطاليا ، وظل هذا المجلس يجتمع في فترات متقطعة نحو عشرين سنة (إنها المقاومة البيروقراطية للإصلاح). وكان هدف مجلس ترنت هو إصلاح مفاسد الكنيسة وإزالة شكاوى الرعايا الكاثوليك منها ، بالإضافة لتدعيم المذهب الكاثوليكى . . وقد توصل المجلس عام ١٥٦٣ إلى عدة قرارات ، كان من شأنها إصلاح حال الكنيسة، مما لا مجال للخوض فيه لأنه خارج عن موضوعنا

الميزانية :

وتطبيق نظام المقررات أو الساعات المعتمدة في الجامعات المصرية لايحتاج لأكثر من ٠٠٠ ٠٠٠ ٢٥ جنية سنويا في حالة تعيين ستة آلاف (٦٠٠٠) عضو هيئة تدريس جديد ، وهو مبلغ ضئيل إذ سيوفر كثيرا من الأموال التى تستنفذها الجهود الأمنية التقليدية (تعيين ٦٠٠٠ عضو هيئة تدريس أفضل من تعيين ٦٠٠٠ مرشد ومخبر في رحاب الجامعة) والاهم من هذا هو أنه سيجعل العملية التعليمية أكثر صدقا وانضباطا، فكيف يستفيد الطلبة الذين يزيد عددهم على الألف أمام استاذ واحد في القانون الدستورى (مثلا) وما فرصة

أى واحد منهم في توجيه سؤال ، وما فرصة الأستاذ في الإحالة للمراجع ذات الأفكار الأخرى (مثلا) ؟ وكيف يقف معه طالب ولو لدقائق معدودة يستفتيه في معضلة علمية إذا كان الأستاذ محاطا بالحرس (مثلا) .

هذه الملايين قليلة إذا قيست بنتائجها ولعل أهمها فك الروابط المملوكية ، وازالة شوائبها من تربة المجتمع المصرى .

كل مايخشاه المرء أن تحاول التكتلات المملوكية مد أمد تنفيذ المشروع لعشرين عامًا كما فعل الإكليروس في مجلس ترنت ، أو أن يفرغوا النظام من مضمونه والمماليك بارعون في هذا .

لجان مشتركة من الشرطة والقضاة (محكمة الشارع) :

قد يكون في هذا مخالفة لمبدأ الفصل بين السلطات ، لكن هذه المسألة من اختصاص القانونيين أو فرسان القانون ، وما أكثرهم في مصر ، وما أشد احتياجنا لإعداد عدد كبير منهم إعدادا مهنيا أو توجيهه لأعمال مفيدة أو تطعيم سلك القضاء بآلاف منهم مع التجاوز قليلا عن الشروط ، لأن كثرة الحديث في هذا الموضوع تحتاج - أحيانا - للتنفس بصوت مسموع شهيقًا وزفيرًا ، والمعنى سبق شرحه في فقرات سابقة .

من العرض السابق في هذا الكتاب يتضح أن المشاكل التى يواجهها مجتمع تراث الرقيق الأبيض مشكلات فريدة ، وبالتالى فهى في حاجة إلى حلول فريدة ولا يصلح نقل حلول جاهزة من أماكن اخرى لايتغلغل فيها التراث نفسه

تتكون (محكمة الشارع) أو (محكمة الطريق) أو (المحكمة الميدانية) من قاض (رئيسا) وضابط شرطة (عضوا) وموظف مدنى بدرجة معينة يختلف اختصاصه وفقا للقضايا المنظورة (مبان ، تموين . .) وقوة من الشرطة للتنفيذ

تصدر إليها الأوامر من القاضى (رئيس المحـكمة) ويكون في صحبة المحكمة المتنقلة مجموعة عمال للتنفيذ في قضايا المبانى مثلا .

ومنصة القاضى هنا هى أي مكان يبسطها فيه : على الرصيف أو في حارة جانبية أو في الجزء الخلفى من سيارة الـشرطة أو في السوق ، سيقف القاضى بردائـه المهيـب وسط السـوق (مثلا) وسـيفحـص موظف الـتمويـن البضـائع المعروضة ليبين أن كانت فاسدة أو مغشوشة ، وإن ثبت فسادها أؤ غشها حُرِّزت البضاعة فورًا تحت إشراف القاضى ، وقام الضابط عضو المحكمة بالقبض على المذنب (فورًا) وأمام القاضى ويسمح للمتهم بالدفاع عن نفسه في ضوء (الحرز) الموجود أمام الـقاضى الذى يصدر حـكمه الفورى في ضـوء هذا (الحرز) وفى ضوء المعايـنة الفورية التى قـام بها مسئول الـتموين ، ووقع على مـذكرة معدّة سلفا بطريقة ملء الفراغات ، ولا بأس أن يكون مع المحكمة طبيب . فإن كان الحكم بالحبس والغرامة ، تم نقله (في التو واللحظة) إلى سيارة الشرطة المعدّة كسجن متنقل ، وتم تحصيل الغرامة فورا إذا أمكن .

وفي مجال مـخالفات المبانى التـى ضج منها القاصى والـدانى ، أو تحويل الجراجات إلـى محلات تجاريـة مما أربك الشـوارع وحركة المرور - فـإن الواقع الفعلى هو خير شـاهد ، فيطلب القاضى (منصته في هـذه الحالة امام العقار) من صـاحب الملك إبـراز أوراقة ، ويطـلب من مـوظف البلـدية أو المحافـظة مراجعتها (في حضرة القـاضى) ثم يصدر القـاضى حكمه الفـورى في ضوء المبنى القـائم بالفعل ، ولا بأس كنـوع من التوثيق من وجود مـصوّر مصاحب للمحكـمة ليصور المبنى المخالـف (تحت إشراف القاضى) ويتم الـقبض على المخالف بواسطة ضابط الشرطة (عضو المحـكمة) بأمر القاضى رئيس المحكمة ويكون ذلك فـورا ، وتتم الإزالة أيضا فورا بـإشراف القاضى على يـد العمال

المصاحبين – كقوة تنفيذية – للمحـكمة أو حملة العدالة أو قاضى الشارع وتقع تكاليف الإزالة على المخالف .

ولا بأس من وجود أنـواع مختلفة من محـاكم الشارع محاكم للـمبانى ، محاكم للتموين، محاكم للدروس الخصوصية في حالة الرغبة في منعها تماما.

لقد لاحظ الناس ان لجان ضبط تجاوز السيارات للسرعة المقررة على الطرق السريعة ، لجان حاسمة ، وتقل فيها نسبة الرشاوى والفساد بدرجة كبيرة ، لأن هناك صورة رادارية مسجلة ، حبذا لو كان معهم قاض فتكون سيارة اللاسلكى في مكان وأمناء الشرطة الذين يوقفون الـسيارة في مكان ، ومنصة القاضى في الهواء الطلق وبين الحـقول في مكان ثالث والمسألة ليسـت في حاجة إلى شهود إثبات ونفى ، فالصورة الرادارية أمامكم، والمتهم أمامكم، والله من فوقكم ، فسرعة العـدالة عدالة وذلك بدلاً من سحب الرخـص وإرسالها لإدارة المرور ، وتردد المتهم عدة مرات لتحدد له جلسة ، وجلسة ، وفي نهاية المطاف سجن أو غرامة أو كـلاهما فخـير البر عـاجله . لا نطـالب بمحكـمة الشارع فـي جرائم عقوبتها الاعدام ، لكن لنبدأ بمحاكـم الشارع الخاصة بالمبانى والخاصة بالمرور ، والخاصة بالتمويـن ، كيف ذلك ؟ خبراء القانون يقننـون ذلك ، وما علينا الا طرح الفكرة من منظور علم الاجتماع التاريخي .

إلى الذين يحبون العودة للتاريخ :

والعودة للتاريـخ وتقمص مواقف مضت وجرت في ظروف مـختلفة عن الحاضر من الممكـن أن يكون أمرًا ضارا ، بل أنه ضار على وجـه اليقين . أما العودة للتـاريخ للاستئناس به وادراك مـكنوناته ، واعتباره مـدرسة للأجيال ، واستلهام العظمة مع إدراك للظروف المتغيرة فأمر مطلوب .

فبالنسبة لنظام المقررات أو الساعات المعتمدة في التعليم الجامعى ، نجده – بالرغم من كونه نظاما عالميا تأخذ به الجامعات الأوربية والأمريكية واليابانية – إلاّ ان له جذورا في التجربة التعليمية في التاريخ الاسلامي. فقد كان في المسجد الواحد جملة شيوخ (أساتذة) يجلس كل منهم على كرسى عند عمود (لاحظ أن أستاذ كرسى التى مازالت مستعملة في الجامعات إلى الآن ترجع في أصولها لهذا التقليد) وعلى الطالب أن ينتقى باختياره (العمود) أو (الكرسى) الذى يلتقى عنده العلم ، فالمقرر الدراسى واحد ، والاساتذة الذين يدرسونه كثيرون في المسجد الواحد ، ونود من القارىء المهتم أن يراجع كتب تاريخ التربية الاسلامية التى تناولت هذا الموضوع وهى كثيرة منها التربية في الاسلام لأحمد شلبى وغيره ، بل إن كثيرا من كتب التراث الضخمة لم تكن إلاّ نتيجة الأمالى أى الكتابات التى كان يسجلها الطلبة في مجالس العلم هذه ، وكانوا يدونون المناقشات الدائرة وهى خصبة – أيضا ، وهكذا وصلت إلينا الأمالى لأبى على القالى ، والأمالى لليزيدى ، ومجالس ثعلب ونشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للقاضى التنوخى ، ومجالس العلماء للزجاجى ، وأمالى الشريف المرتضى ومحاضرات الأدباء للراغب الاصبهانى وغيرها .

أما قاضى الشارع فهى فكرة عصرية مطوّرة لفكرة المحتسب في التاريخ الاسلامى ، وحكومة جنيف التى أسسها كلفن Calvin البروتستنطى المعروف في مدينة جنيف السويسرية في النصف الأول من القرن السادس عشر ، إذ أسس كلفن لجانا تطوف الشوارع لإلزام الناس بالوقار ومنع الدعارة والقبض على القوادين ، ومنع البذخ .... الخ وكان لهذه الحكومة عيوب جسيمة ما في ذلك شك ، لكنها تجربة أغفل المؤرخون كثيراً من جوانبها .

ويحدثنا فرنسى اقام في مصر زمن محمد على وظل بها حتى عهد إسماعيل ، وهو بريس دافين الذى تسمّى باسم إدريس افندى ، عن تجربة قضاة الشوارع في عهد محمد على فيقول :

- « المحتسب هو الأغا المكلف بالإشراف على الاسواق » قاضى الشارع الذى نطالب بتطبيق فكرته ليس من الضرورى أن يكون (أغا) ، وكلمة (أغا) تعنى أحيانا (الطواشى) أو الخصى ، وهم فئة تتسم بالقسوة الشديدة ، لأسباب لاتخفى ، أما مستشارونا أو قضاتنا فهم أزواج وآباء ويطبقون القانون بحسم ودون قسوة أو إفراط أو تفريط .

- « ويطوف المحتسب الأغا الأسواق على صهوة جواده يتقدمه القوّاسون حاملين ميزانا ضخما ، ومعه أيضا منفذو أحكامه وخدم عديدون مسلحون بالكرابيج أو العصى الكبيرة » .

أما قاضى الشارع الذى نطالب بتطبيق فكرته لدحر التراث المملوكى فيطوف الشوارع والأسواق في سيارة (تويوتا) أو حتى (مرسيدس) أو (سيارة شرطة كبيرة) ومعه ضابط شرطة يتم تغييره في كل جوله حتى لا يرتبط القاضى والضابط بمصالح مشتركة . ولايكون مع القاضى كرابيج وإنما يكتفى بمسدس ضابط الشرطة ، ولايكون مع القاضى خدم وحشم وإنما قوة تنفيذ ، وخبير في تجاوزات المبانى (مثلا) أو خبير في غش الطعام (مثل ثان) .

- « ويستعرض المحتسب الموازين واثقال الوزن التى يستخدمها الباعة ممتحنا من يختاره أو تختاره المصادفة وقد يستجوب الخدم الذين اشتروا شيئا من المواد الغذائية ليعلم الثمن الذى دفعوه والوزن الذى أعطى لهم ، ومن أي بائع كان ذلك، ثم يأمر أن توزن أمامه المواد، فإذا اتضح غش في الوزن أو غلاء في الثمن، استقدم التاجر وأمر بضربه بالعصا في الحال . . يقبض خدم

المحتسب على المطفف ويطرحونه أرضا بحيث ينكفيء على وجهه ناحية الأرض ويشدون ساقه في (الفلقة) ثم يضرب على باطن قدمه مائتين أو ثلاثمائة ضربة يعدها الأغا في هدوء على حبّات مسبحته الوردية . . وإذا تكرر من التاجر الغش أمر الاغا بتسمير أذنه . . وتلك عدالة سريعة ناجزة . . . »

– أما قاضى الشارع الذى نطالب بتطبيق فكرته ، فستتم مصادرة البضاعة الفاسدة أمامه وتحت إشرافه ، وسيتم إزالة التعدى في المبنى أو الجراج أمامه وتحت إشرافه بحيث لا يبرح القاضى المكان قبل التنفيذ ، . . . الخ

وسيقبض ضابط الشرطة على المتهم بأمر القاضى إلى السجن العام ليقضى فترة العقوبة التى حدّدها القاضى ، ولن يُطرح أحد على بطنه ، ولن يضرب على قدمه ، ولن تسمّر أذنه .

ومجال عمل قاضى الشارع هو القضايا الواضحة مثل مخالفات المبانى ، فالجراج موجود (أمامنا) والتعديات (أمامنا) وقرار المحافظ بتخصيص (جراج) أمامنا ، فحكم القاضى بالإزالة أمر لايمكن أن يكون فيه ظلم ، والمهم أن التنفيذ يكون (أمامنا) و(الآن) وبالنسبة للاطعمة الفاسده ، فالطعام (أمامنا) والطبيب المختص (معنا) وأدوات الفحص (معه) وتقريره يكتبه الآن ، أو يرسل العينات إلى معامل وزارة الصحة عند الضرورة لا بأس ، وعند ورود التقرير ينتقل القاضى واللجنة المصاحبة ليتم القبض على المتهم (الآن) وتتم المصادرة (الآن) ويتم الحكم (الآن) ويتم التنفيذ (الآن) تحت إشراف القاضي .



ملاحق الدراسة

الملحق الأول

نصوص ذوات دلالة وتعليقات عليها

النـــص الأول

مقدمة توضح النص ودلالاته :

ـ يتناول النـص بعض معايير اختيار الحـكام أو المسئولين، ومن هذه المعـايير التى يقدمها الـنص أن يكون الشخص (نافـها) أو (لا خطر منه) أو (يسهـل عزله) ولا دخل لكفاءته الشخصية، مما يتناقض تماما مع التوجهات الاسلامية التى تقول إن من ولّى على المسلمين شخصًا وهو يعلم من هو أكفأ منه تبوأ مقعده من النار .

ـ السلطـان الوارد ذكره في النص ظل (فـي الظّل) وربما تعمّد أن يكـون في الظل طوال فترة السلطان السابق ، وكل خبرته أنه كان خادمًا بوظيفة جاشنكير

ـ شيئا كهذا كان أحد أسباب انتقال السلطة انتقالا دستوريا سليما بعد موت الرئيس عبدالناصر، لكن السادات رحمه الله أثبت بعد ذلك أنه لم يكن مجرد جاشنكير .

ـ مصـدر النص : النـجوم الزاهـرة في ملـوك مصر والقـاهرة لابن تـغْرى برْدى الأتابكى (٨١٣ - ٨٧٤ هـ) / جـ٧. ص٤ .

« الملك المعز أيبك الـتركمانى » أصله من مماليك الملـك الصالح نجم الدين أيوب ، الذى عـينه (جاشنـكير) وهى وظيـفة تعنى أن يـقوم صاحبهـا بتذوق المأكولات والمشروبات التى تقدم للسلطان قبل أن يتناولها حتى إذا كان فيها سم مات الجاشنكير أو أصيب ونجا السلطان » .

« اتفق أمراء السلـطنة على تولية أيبك (الجـاشنكير السابق) مع أنه لـم يكن أميرا لامعا ، وقالوا : « هذا متى أردنا صرفه أمكننا ذلـك لعدم شوكته» فبايعوه في آخر ربيع الآخر سنة ٦٤٨ هـ ».

النص الثانى

مقدمة توضّح النّص ودلالاته :

ـ يوضح هذا النص التستّر خلف (الشرعية) :أو (القانون) أو (نصوص اللائحة) وتفريغ ذلك كله من محتواه ، فالمماليك يقررون العودة للشرعية (على الطريقة المملوكية) بتعيين واحد من سلالة بنى أيوب (مؤسس الدولة الأيوبية) . . إلى هنا والأمر قد يكون سليما ، لكنهم اتفقوا أن يكون صغير السن (ليأكلوا الدنيا به) أي مجرد واجهة . .

ـ وبالطبع سينسب الشعب كل نقيصة لهذا السلطان الأيوبى وربما ثاروا عليه ، وربما انضم المماليك لهذه الثورة . والموظف اللص أو المرتشى لايكون في بعض الأحيان هو اللص الحقيقى أو المرتشى الحقيقى ، وإنما هو واجهة (ليلبس) التهمة عند اللزوم ، والأشخاص الذين يقفون أمام مصلحة الأحوال المدنية لتسهيل أمر استخراج البطاقات أو الذين يقفون أمام الشهر العقارى أو غير ذلك هؤلاء ـ في الغالب ـ ربما يكونون تابعين لشخص آخر مهم وهكذا فمن تراث المماليك وجود (واجهة) تتحمل اللوم ، والمعانى لا تذهب بعيدا عن مفهوم التلبيس والتدبيس كما وردت في متن الكتاب .

ـ مصدر النص : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة تأليف جمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى الاتابكى (٨١٣-٨٧٤ هـ) وزارة الثقافة والارشاد القومى - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر . ص٥ جـ٧ (حوادث سنة ٦٤٨ هـ) .

« . . . لم يكد يستقر أيبك التركمانى في السلطنة حتى ثارت المماليك البحرية الصالحية وقالوا لابد لنا من سلطان يكون من بنى أيوب . . واتفقوا على أن يكون الملك المعز أيبك هذا أتابكا عليهم ، واختاروا أن يقيموا صبيا عليهم من بنى أيوب يكون له اسم السلطنة وهم يدبرونه كيف شاءوا ويأكلون الدنيا به . . »

النص الثالث

مقدمة توضح النص ودلالاته :

ـ هذا نص طريف يبين ان أهل مصر كانوا يدركون مساوىء حكم العبيد، فهم يفضلون ابن العبد (لأنه نشأ على الفطرة في أسرة) حتى لو كانت أسرة عبد، يفضلونه على العبد الأصلى المجلوب أو الترابى .

لكن المصريين نسوا شيئا مهما وهو أن تراث العبودية يورّث على نحو ما يورّث أي تراث آخر ، فابن العبد أخذ من أبيه تراثه في السلوك والتصرف ، فمن شابه أباه فما ظلم ، حقيقة ستغيره بيئته الجديدة المختلفةعن بيئة أبيه ، لكن شيئا ما وربما شيئا كثيرا من تراث أبيه سيظل عالقا به .

ـ المصدر : النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى جـ ٧ ، ص ١٣ (حوادث سنة ٦٤٨ هـ)

ولم يرض أهل مصر فإنهم كانوا يفضلون سلطانا لم « يمسسه الرق » وظلوا يسمعون أيبك مايكره حتى فى وجهه إذا ركب ومّر بالطرقات ويقولون لانريد إلاّ سلطانا رئيسا مولودًا على الفطرة . . »



النص الرابع

مقدمة توضح النص ودلالاته

ـ الملك المظفر قطز كان أول مملوك يخلع ابن استاذه (صاحبه الذى اشتراه).

ـ هذه النصوص وهذه الدراسة لاتقلل أبدًا من الجهود العسكرية الناجحة للمماليك ولا من انجازاتهم المعمارية ، وإنما هى تركز على تأثير ظروفهم الاجتماعية في مصر وأهلها بعد أن أصبحوا جزءا لايتجزأ منها.

ـ وعندما تحولت الجيوش إلى أسلوب الضبط والربط، وأصبحت مؤسسة لها نظامها ، وولاؤها للشعب ، لم تنجح عبقرية المماليك العسكرية ولاقوا الهزيمة أمام نابليون ١٧٩٨ ، كما هزم تراثهم بعد ذلك في مواجهات عسكرية لاحقة .

ـ مصدر النص : النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ص ٥٦ (حوادث سنة ٦٥٥)

« . . والملك المظفر قطز هو أول مملوك خلع ابن استاذه من الملك وتسلطن عوضه ، ولم يقع ذلك قبله من أحد من الملوك وتمت هذه السنّة السيئة في حاصد إلى يوم القيامة وبهذه الواقعة فسدت أحوال مصر »



النص الخامس

مقدمة توضح النص ودلالاته :

ـ كما خلع قطز ابن استاذه (سيده الذى اشتراه) ، فقد كان مقتله على يد بيبرس وهو عبد ترابى أى تم شراؤه وهو صغير السن .

ـ والطريف أن بيبرس اشـترى سيده بعد ذلك ، فقد كان بيبرس عـبدا للعبد علاء الدين أيديكتين، ولما أقبلت الدنيا على بيبرس اشترى سيده السابق العبد علاء الدين .

ـ مرة أخرى لا نـقلل من شأن الانـتصارات العسكـرية التى حقـقها المماليك في التاريخ ، لكن ليتصور القارىء معنى حكم العبد ، ولماذا اشترى بيبرس سيده العبد بعد ذلك ، مع أنه بالتأكيد كـان قد بلغ من العمر مبلغًا يجعله غير مفـيد لبيبرس . إشفاقا عليه ؟ ربما. إكراما له ؟ ربما رغبة في شفاء صدره من مالكه السابق ؟ هذا ما نرجحه .

ـ مصدر النص : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة .

« بيع بـيبرس في دمشق لـلعماد الصائـغ ، ثـم اشتراه الأمير عـلاء الدين أيديكتين البـندقدارى ، ومن الغريب أن علاء الدين أيديكـتين عاش حتى صار فيما بعد من جملة أمراء الظاهر بيبرس وهكذا تنقل بيبرس من يد إلى يد . وتم استرقاق بيبرس لأول مرة وهو ابن أربعة عشر عاما » .



النص السادس

مقدمة توضح النص ودلالاته :

يتناول النص كيف تم قتل قطز بعد عودته منتصرًا على المغول في معركة عين جالوت الشهيرة : بيبرس يقبل يد قطز (الاحترام واجب) قبل قتله .

بيبرس يتقدم إلى أتابك قطز (مدير مكتبه أو رئيس حرسه أو رئيس ديوانه) ليقول أنه قتل قطز ، فقال له الأتابك ببساطة (إجلس مكانه يا خوند)

ولم يكن قطز أول أو آخر من تم قتله في يوم انتصاره ، فقد تم قتل الأشرف خليل أيضا يوم انتصاره على الصليبيين ، وتم قتل السادات في السادس من اكتوبر ، وهو يوم احتفال بالنصر ، فالمماليك يكرهون النجاح للآخرين ولايطيقون أن يروا ناجحا ، فمجتمع المماليك (العبيد) يلتمس أي سبب أو أي شائبة للانقاص من مزايا الآخرين والتقليل من شأن انجازاتهم . مصدر النص: النجوم الزاهرة جـ٧، ص ص ١٠١ - ١٠٢

« . . *فلما انقضت الواقعة بعين جالوت تبعهم بيبرس هذا بقتل من وجد منهم (من المغول) إلى حمص ، ثم عاد فوافى الملك المظفر قطز بدمشق ، وكان وعده بنيابة حلب ، فأعطاها قطز لصاحب الموصل ، فحقد عليه بيبرس فى الباطن ، واتفق على قتله مع جماعة لما عاد الملك المظفر إلى نحو الديار المصرية . . إلى أن بقى بين قطز والصالحية مرحلة ، ورحل العسكر طالبا الصالحية . . وتقدم إليه ركن الدين بيبرس وشفع عنده في إنسان فأجابه المظفر قطز إلى طلبه ، فأهوى بيبرس ليقّبل يده فقبض عليها (أي على يده) وضربه بالسيف ، وحمل الباقون عليه ورموه من فرسه ورشقوه بالنبال إلى أن مات . . . وتقدم بيبرس ومن معه إلى الدهليز السلطانى ، فنزلوا ودخلوه والأتابك على باب الدهليز فأخبروه بما فعلوا فقال الأتابك : من قتله منكم ؟ فقال بيبرس : أنا فقال الأتابك : ياخَوند إجلس في مرتبه السلطنة* » فجلس.

النص السابع

مقدمة توضح النص ودلالاته :

ـ حتى عندما حاول بيبرس حصر السلطنة في ذريته ، دار المماليك حول الشرعية وفرغوها من معناها ، فخلعوا ابن بيبرس (الملك السعيد) وولوا العادل سلامش وهو ابن سيزين (مادام ابن بيبرس فإن هذا لا يتعارض مع اللائحة أو القانون أو الدستور أو الميثاق أو تعهدهم أمام بيبرس)،وعلى أية حال فإن (مدير المكتب) أو (رئيس الديوان) أو (السكرتير الخاص) أو (الأتابك) استطاع أن يجمع كل السلطة في يده ، فأصبح هو الحاكم الحقيقى ولم يكن للملك العادل سلامش سلطة حقيقية إلاّ الشكل (الاحترام واجب) ثم قفز مدير المكتب بعد ذلك ليصبح هو الحاكم الرسمى إنه قلاوون .

ـ لعب مديرو المكاتب دورا أساسيًا في السيطرة الفعلية في مصر وكادوا يدبرون انقلابا بعد انتقال الحكم بشكل دستورى إلى الرئيس السادات الذى نجح في القضاء على هذا الانقلاب فيما عُرف باسم (ثورة التصحيح) .

ـ كاد الإخوة الفلسطينيون يستولون على السلطة في دول الخليج استيلاء سلميا من خلال احتكارهم لمنصب (السكرتير الخاص) و (مدير المكتب) و (مسئول الديوان) وكان موقفهم عند الغزو العراقى للكويت منسجما تماما مع التراث المملوكى .

ـ مصدر النص : النجوم الزاهرة جـ٧ ، ص ص ٢٩٠ - ٢٩٢ .

حتى بعدما حاول بيبرس حصر الملك في ذريته ، لم تنته روح التآمر المملوكية (روح العبيد) . . . . تسلطن السلطان السعيد ناصر الدين المدعو محمد بركه خان، ابن السلطان الظاهر بيبرس . . . في حياة والده ، وذلك يوم الخميس ثالث عشر شوّال سنة ٦٦٢ هـ وأقام على ذلك سنين إلى أن توفى أبوه الملك الظاهر بيبرس في ٢٩ محرم ٦٧٦ هـ بدمشق ، واتفق رأى الأمراء

على إخفـاء موت الظاهر . . وراسلـوا الملك السعيـد بذلك ، فلما بـلغ ذلك الملك السعيد اخفى هو أيضا الخبر بعد أن قدم لمن زفوا إليه الخبر الخلع والهدايا على أن هذه الهدايا هي بشارة عودة بيـبرس إلى مصر ، وعاد الركب إلى مصر والنـاس يتوهمـون أن بيبـرس فيه . . . . ولما وصـلوا إلى قـلعة الجبـل ترجّل الأمراء والعساكر بين يدى المحفّة كما كانت الـعادة في الطريق في كل منزلة من حين خروجهم من دمشق إلى أن وصلوا إلـى قلعة الجبل من باب السّر، وعند دخولها إلى القلعة اجتمع الأمير بدر الدين بيليك الخازندار بالملك السعيد هذا، وكان الملك السعيد لم يركب لتلقيهم ، وقبّل الأرض ورمى بعمامته ثم صرخ ، وقام العزاء في جميع القلعة . . . . »

« . . . واتفق الأمراء المماليـك على خلع الملك السعيد بن الـظاهر بيبرس واتفقوا على تعيين أخيه الملك العادل سلامش (بفتح السين وضم الميم أو ضم السين وكسر المـيم - على خلاف) في ١٧ ربيع الآخر سـنة ٦٧٨ هـ وهو ابن سبع سنين ، وجعلوا أتابكه ومدير ممـلكته الأمير سيف الدين قلاوون وضربت السكة على أحد الوجهين باسم الملك العادل سلامش وعلى الوجه الآخر باسم الأمير قلاوون وخطب لهما على المنابـر ، ولم يكن للملك سلامش من الملك سوى الاسم . . . »

السلـطان الملك المنصـور سيف الدين أبو المـعالى وأبو الفتـح قلاوون بن عبدالله الألـفى التركى هو السابع من مـلوك الترك (المماليك) بالـديار المصرية والرابع ممّن مسّه الرّق . ملك الديار المصرية بعد خلع الملك السعيد وصار مدير مملكـته الملك العـادل سلامش إلى أن خلـع سلامش وتسـلطن الملك المـنصور قلاوون في ٢١ أو ١٠ رجب سنة ٦٧٨ هـ . . »

النص الثامن

مقدمة توضح النص ودلالاته :

ـ يتناول النص جهود الاشرف خليل في حصاره للصليبيين في عكا وانتصاره عليهم سنة ٦٩٠ هـ .

ـ ولما عاد إلى مصر منتصرا حضر إليه نائب السلطنة الأمير بدر الدين بيْدرا وبعض الأمراء فقتلوه ووضعوا السيف في دُبره (في مؤخرته) لماذا مؤخرته بالذات ؟ راجع ماذكرناه عن العقاب الجنسي والتراث المملوكي ولماذا قتلوه في يوم انتصاره على الصليبيين بدلا من الاحتفال به وتكريمه ؟ راجع ما ذكرناه عن مقتل قطز يوم انتصاره على المغول ، ومقتل الرئيس السادات في ذكرى انتصاره أهم انتصار في تاريخ مصر الحديث .

السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان الملك المنصور قلاوون الألفى الصالحى . . جلس على تخت الملك يوم وفاة أبيه يوم الأحد ١٧ ذى القعدة سنة ٦٨٩ هـ وكان والده قد ولاّة في حياته بعد موت أخيه الملك الصالح على بن قلاوون . . . لكن أباه ندم على توليته ولم يوقع على تقليده بالملك ، وقال للقاضى «يافتح الدين أنا ما أولّى خليلاً على المسلمين» فلما مات ورأى ابنه أنّ التقليد بلا علامة (أى دون توقيع أبيه) رمى التقليد من يده وتمّ أمره وكتب (رغم أنف أبيه المتوفى) بسلطته إلى الأقطار وأرسل الخلع إلى النوّاب في البلاد الشامّية . . وأخذ وأعطى ، وأمر ونهى ، وفرّق الأموال وقبض على جماعة من حواشي والده وصادرهم.

ولما استهلّت سنة ٦٩٠ هـ أخذ الملك الأشرف في تجهيزه للسفر للبلاد الشامية وإتمام ماكان قصده والده من حصار عكا (حيث الصليبيين) وأرسل إلى البلاد الشامّية وجمع العساكر وعمل آلات الحصار وجمع الصنّاع إلى أن أتمّ

أمره وخرج من الديار المصرية بعساكره في ٣ ربيع أول سنة ٦٩٠ هـ وسار حتى نازل عكا فاجتمع عنده على عكا من الأمم مالا يحصى ، وكان المطوّعة (علماء الدين) أكثر من الجند في الخدمة ، ونصب عليها المجانيق الكبار . . . ونقب (في سورها) عدة نقوب، وأنجد أهل عكا صاحب قبرس (قبرص) بنفسه، وأوقد (أهل عكا) نيرانا هائلة احتفالا بقدومه ومكث معهم ثلاثة أيام، ثم عاد عندما شاهد انحلال أمرهم . . ولم يزل (المسلمون) يحاصرونها (عكا) حتى انحلت عزائم أهلها واختلفت كلمتهم .

ولما كان سحر يوم الجمعة ١٧ جمادى الأولى ركب السلطان (الاشرف خليل) والعساكر وزحفوا عليها قبل طلوع الشمس وضربوا الكوسات . . فهرب الفرنج واستولى (الأشرف خليل) على المدينة بالسيف وطلب الفرنج البحر (هربوا إلى البحر) فتبعتهم العساكر الإسلامية تقتل وتأسر فلم ينج منهم إلاّ القليل ونهب ما وجد من الأموال والذخائر والسلاح . . . والعجب أن الله سبحانه وتعالى قدر فتح عكا في مثل اليوم الذى أخذها الفرنج فيه ، ومثل الساعة التى أخذوها فيها ، فإن الفرنج كانوا استولوا على عكا يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ هـ في الساعة الثالثة من النهار . . . واسترجعها منهم المسلمون يوم الجمعة في الساعة الثالثة من النهار في ١٧ جمادى الأولى سنة ٦٩٠ هـ ، . . . واستسلمت مدينة صور لجنود الأشرف خليل . . . وبعد أن اجرى بعض التغييرات التى رآها ضرورية عاد في طريقه للديار المصرية فاحتفل أهل مصر لملاقاته احتفالا عظيما ، . . . . ثم تجهز الملك الأشرف وعاد إلى الديار الشامية وأحضر الأموال وأنفق على جميع العساكر المصرية والشاميّة ، ووصل إلى دمشق وخرج على قلعة الروم فحاصرها وأجرى بعض التغييرات التى رآها ضرورية فعزل وولّى .

وسار السلطان حتى دخل الديار المصرية وعبر باب النصر وخرج من باب زويلة واحتفل أهل مصر به احتفالاً عظيمًا .

النهاية ـ وضعوا السّيف في دبره حتى مات :

نزل السلطان (الملك الأشرف) بالحمّامات لأجل الصيد . . . . فلما كان قرب العصر وهو بأرض تروجة حضر إليه الأمير بدر الدين بيْدرا نائب السلطنة ومعه جماعة كثيرة من الأمراء ، وكان السلطان قد أمره أن يسبقه ليبقى السلطان منفردا (يصطاد وحده) بقية يومه ومعه شخص واحد . . . وبينما السلطان منهمك في الصيد أتاه هؤلاء (بيدرا ومن معه) . . . فابتدره الأمير بيدرا فضربه بالسيف ضربة قطع بها يده مع كتفه ، فجاء الأمير حسام الدين لاچين وهو الذى تسلطن بعد ذلك بمدّة وقال لبيْدرا : يانحس! من يريد ملك مصر والشام تكون هذه ضربته ! ثم ضربه على كتفه فحلّها ، ووقع السلطان على الأرض ، وجاء بعدهما الأمير بهادر . . وأخذ السيف ودسّة في دُبره وأطلعه (أى السيف) من حلقه ، وراح كل واحد من الأمراء يظهر ما في نفسه (بإهانة الجسد الميت) ثم تركوه في مكانه وانضموا للأمير بيدرا .



النص التاسع

مقدمة توضح النص ودلالاته :

ـ بعد عودة الأشرف خليل من عكا منتصرا على الصليبيين ، دخل مصر وأراد أن يمارس هواية الصيد ، وأراد أن يريق الماء (يبول) ، وبعد أن بال راح يداعب رفيقه بذكره (عضوه التناسلى) ، يقول رفيقه « وراح يولغ بذكره ويداعبنى » .

ـ أمر الأشرف خليل ألاّ يصاحبه أحد في رحلة الصيد هذه إلاّ رفيقه الآنف ذكره وفي هذا اليوم على كل حال تم قتله كما في النص السابق، راجع ما ذكرناه عن مجتمع المماليك ، وشبهه بمجتمع (العزّاب) عندما يسكنون معا .

ـ مصدر النص : النجوم الزاهرة ، جـ٨ ، ص ١٨ .

الأشرف خليل بن سيف الدين قلاوون قاهر الصليبيين يداعب أصحابه باخراج ذكره (إحْليله أو عضوه التناسلى)

« . . . بعد رحيل الدهليز (يعنى مدورة السلطان والعساكر) جاء له خبر أن مكانا يقال له تروجه به طير كثير فقال السلطان (الأشرف خليل) : إمش بنا حتى نسبق الخاصكيّة، فركبنا وسرنا ، فرأينا طيرًا كثيرًا فرماه السلطان بالبُندق ، فأصرع شيئا كثيرًا ، ثم إنه لفّ إلىّ وقال : أنا جيعان (جوعان) فهل معك شيء تطعمنى؟ فقلت: والله مامعى سوى فرّوجة (دجاجة) ورغيف . . فقال: ناولنى إيّاه ، فأخذه وأكله جميعه .

ثم قال لى : أمسك لى فرسي حتى أنزل وأريق الماء (أبول)

فقلت له: مافيها حيلة ! (هذا لاينفع أنت راكب حصانا وأنا راكب فرسة، (حجيرة) وهما لايتفقان ، فقال لى : انزل انت واركب خلفى وأركب أنا

الفرسة التى لك (الحجيرة التى لك) فتـقف الفرسة مع الحصان فنزلت وناولته لجام الحجيرة ، ثم إنى ركبت خلفه ثم إن السلطان نزل وقعد يريق الماء (يبول) وشرع يولغ بذكره (عضوه التناسلـى) ويداعبنى (أو يمازحنى) ثم قام وركب حصانه ومسك لى الفرسة (الحـجيرة) ثم إنـى ركبت فبينمـا أنا وإياه إذا بغبار . . . . الخ حيث تمت واقعة قتله .

حاشية :

كيف كان يمازح السلطان الأشرف خليل صديقه بذكره ؟ ومامـعنى كلمة ولغ (أو يولـغ بذكره) ؟ هنـا نفضل الـرجوع للمـعاجم الـعربية ، ورد فـي القاموس المحـيط للفيروزابادى : باب الغين ، فصل الـواو : ولغ الكلب في الإناء وفي الشراب ، وولغ منه – أى من الإنـاء أو الشراب ، وُلوغا وولغانـا ، أي شرب مافيه بأطـراف لسانه أو أدخل لسانه فيـها . . . والمعنى أنه راح يدس ذكره (إحليله) فـي شيء ما ، كالتراب أو الرمل ، أما ممـازحته صاحبه بذلك ، فـذلك يعنى المباهـاة بعضوه التناسلـى من حيث الغلظ والطول أو بهما معا ، وقد تعنى الممـازحة تشبيه مايقوم به من عمل (ولوغ ذكره) بالممارسة الجنسية الفعلية، وقد تعنى ـ والله أعلم أنه يعرض على صاحبه شيئا ما !



النص العاشر

مقدمة توضح النص ودلالاته :

ـ النص الثانى من كتاب لويس عوض (أوراق العمر) ص ص ٨٩ - ٩٠ عن السمسرة ، وقد ربطها لويس عوض بالتجارة ، والواقع ان الناقد والأديب الكبير لم يفطن إلى أن السمسرة ليست بالضرورة قرينة التجارة ، ولكن مايهمنا في أقواله أن السمسرة غالبا ربح بلا عمل ، وأن قيمة الوساطة (السمسرة) تصل الى ٣٣٪ من ثمن أغلب السلع يحصلها السمسار دون جهد يذكر .

ـ والسمسرة في الواقع هى أكثر المهن انتشارا في مصر خاصة بعد الانفتاح وهي ليست مقصورة على فئة السماسرة الرسميين ، فالسمسرة مهنة من لاعمل له كما أنها مهنة إضافية يمارسها عدد كبير من معظم الفئات : مدرسون ، اساتذة جامعة ، قضاة ، محامون (بالطبع) ، سائقو تاكسى، عربجية . . . الخ

ـ والمفترض أن السمسار أو الوسيط هو خبير وضامن في الوقت نفسه ، فعند شراء عقار أو شقة مثلا ، من المفروض أن السمسار يؤكد للمشترى أن العقار أو الشقة مملوكة فعلاً للبائع وأن ماعليها من التزامات ضرائبية قد تم دفعه بالفعل أو لم يدفع أو دفع جزء منه وتبقى جزء كما انه ينصح البائع فيما يتعلق بالسعر المطلوب بأن يقدم له بيانا بالأسعار السائدة في المنطقة . . الخ لكن أيحدث هذا ؟

ـ وما دامت السمسرة مهنة خبرة وضمان فلماذا لا تكون مهنة حكومية خاصة أن ربحها مضمون (حدده لويس عوض بـ ٣٣٪ من سعر السلعة) . لماذا لا يلحق قسم متكامل بوزارة العدل أو حتى تكوين هيئة من العدل والداخلية بحيث تقدم هذه الهيئة الضمان للمشترى بأنه يشترى فعلا من الذى يملك ، وتقوم هذه الهيئة باعتماد البيع وتقوم بتسليم العين للمالك الجديد ، ويقر البائع أن ذمة المشترى قد برئت . . . الخ وتحصل الهيئة على ماكان يحصل عليه السمسار أو أقل باعتبارها جهة حكومية . ولا مانع أن يكون فيها قاض .

ملاحظات مهمة :

- معظم الأراضى الزراعية في مصر لم تسجل ملكيتها رسميا ،
- معظم الشقق المملكة في القاهرة غير مسجلة .

بقى القول أن حرفة السمسرة مرتبطة بتجارة النفوذ ، وكلتاهما (السمسرة وتجارة النفوذ) من الحرف المملوكية الأصلية (راجع ماكتبناه في متن الكتاب)

« . . . هذا كان بوجه عام موقف الطبقة البيروقراطية والطبقة التكنوقراطية من طبقة التجار في العشرينات والثلاثينات وقد ظل هذا الموقف ثابتًا حتى عهد السادات حين تركزت ثروة البلاد في يد الوسطاء (التجار والمقاولين والسماسرة) على حساب الطبقات الأخرى حتى جاعت الطبقات الأخرى . وحين اتسعت مداركى عرفت السبب الحقيقى في هذا الموقف من طبقة الوسطاء ، وهو أن طبقة الوسطاء هى الطبقة الوحيدة التى لاتنتج شيئًا وإنما تربح مما ينتجه الغير . وهى حقًا طبقة خدمات ، وجودها لازم في المجتمع ، ولكنها طبقة الخدمات الوحيدة التى تظفر بنصيب الأسد من ثمن كل سلعة ، ففى المتوسط تمثل قيمة الخامة ٣٣٪ وقيمة الصناعة ٣٣٪ وقيمة الوساطة ٣٣٪ من ثمن أغلب السلع دون مجهود يذكر من جانب التاجر إلا الانتظار وربما بعض المجازفة . »



النص الحادى عشر

ـ من كتاب أوراق العمر للويس عوض أيضا ، وفيه إشارات واضحة إلى أن الثوار والاصلاحيين كان تراثهم المملوكى أقل عمقا ، بل كانت اعراقهم أبعد عن الأصول المملوكية (عرابى من أصول عربية «أولاد العرب» وثوار يوليو «بكباشية» يكاد ينعدم عندهم التراث المملوكى .

ـ فرق النص بين الباشوات الاتراك والباشاوات المصريين .

« . . . وعندما قرأت كتاب «مصر الحديثة» (١٩٠٨) للورد كرومر بعد عشرات السنين أدركت أن حكاية الترك والفلاحين حكاية قديمة وأن كرومر نفسه وكثيرا من الإنجليز كان يعتقد صراحة أن الباشوات المصريين غير صالحين لحكم بلادهم بسبب جهلهم وادعائهم وتعصبهم وفساد ذممهم واعتمادهم على المحسوبية في كل الأمور كما قال في كتابه .

وحين قرأت كتاب كلوت بك « لمحة عامة من تاريخ مصر » (١٨٤٠) وجدته يردد رأى محمد على في المصريين أنهم جنود ممتازون ولكنهم قادة أردياء . فقد كان محمد على يرى أن الضابط المصرى حين يبلغ رتبة البكباشى (المقدم) يسوء سلوكه فيجنح إلى الشعب من جهة ويتصرف تصرفات لاتليق بهيبة مركزه من جهة أخرى ، ولهذا فقد قرر محمد على عدم ترقية الضباط المصريين إلى رتبة البكباشى إلا في أضيق الحدود . والأغلب أن الميل إلى الشعب الذى يتحدث عنه محمد علي كان الجنوح إلى الثورة على الأوضاع ورفض وصاية الضباط الأتراك على الضباط المصريين . وقد حققت الأيام ظن محمد علي حيث قامت ثورة الاميرالايات بقيادة أحمد عرابى في ١٨٨٢ ثم ثورة البكباشية بقيادة عبدالناصر في ١٩٥٢ . أما «التصرفات التى لا تليق بهيبة المراكز» كما يقول كلوت بك فغير واضح ما المقصود بها : أهى اللصوصية في المال العام أم الانحلال الجنسى أم الاختباء في المعارك بدلاً من أعطاء القدوة في تحمل مسئوليات القيادة ، أم خليط من كل هذه الأشياء (لا أظن أن الباشوات الأتراك كانوا أقل لصوصية من الباشوات المصريين وإنما الاختلاف هو في أسلوب نهب مصر) .

بعد ذلك عندما نضجت بدأت أتنبه إلى أن الـفرق بين مايسمونه «التطرف الوطنى» و «الاعتدال الوطنى» في ثورة ١٩١٩ هو الفرق بين من كـانوا يملكون ثلاثمائة فدان مثل سعد زغلول ومن كانـوا يملكون ثلاثة آلاف فدان مثل عدلى يكـن ، تمامًا كما كان الأمر أيام عرابى (٥٠٠ فدان) وسلطان باشا (٥٠٠٠ فدان) .

فقد كان العمود الفقرى لأنصار الوفد المصرى في ثورة ١٩١٩ هم طبقة أرباب المهن الحرة في المدينـة وطبقة العمد في الريـف ممن كانوا يملكون عشـرات أو مئات الأفدنة ، بالإضافة إلى أصحـاب الجلاليب الزرقاء من الفلاحين الاجراء وعـمال المدن (كان سعد يملك ١٧٠ فـدانًا في مديرية الـبحيرة كان قـد اشتراها في أوائـل القرن فباعـها في ٣١ ديسمبـر ١٩١٨ بسعر الفدان ٢٠٠ جـنيه واشترى من ثمـنها سندات الديـن الموحد من البنك الأهلى بمبلغ ٢١,٠٠٠ باسم صفية زغلول ، وسدد ديونه للبنك العقارى . وهذا البيع يدل على أنه بعد ١٣ نوفمبر ١٩١٨ كان يعـد نفسه لكافة احتمالات الجهاد الوطنى . وكانت صفـية زغلول تملك ٢١٦ فدانًا فـي مسجد وصيف فـي الغربية ، نصيـبها في تركة أبيها مصـطفى باشا فهمى وكانت ٦٤٨ فدانًا) . وكل دارس لـثورة ١٩١٩ يتحتم علـيه أن يدرس التـكوين الاقـتصادى للـوفد المصرى فـي صورته الأولـى ثم التكـوين الاقتصادى للمنشقين عليه بعد ٢٥ أبريل ١٩٢١ تاريخ الأزمة الكبرى بين سعد وعدلى .

ففـى ١٢ نوفمـبر ١٩١٨ كانـوا سبعة أعـضاء هم سـعد زغلـول وعلى شـعراوى وعبدالعزيز فهمى (الثلاثة الذين زاروا المعتمد البـريطانى للمطالبة بحقوق مصر) ومحمد محمود ولطـفى السيد ومحمد عـلي علوبة ، وفي نفس الـيوم ضموا إليهم عبـداللطيف المكباتى ، ويلاحظ أن أكثرهم كانوا من إقطاعـيي حزب الأمة ، باستثناء زغلول المستقل وعلوبة من الحزب الوطنى . وكان هؤلاء الأعضاء المؤسسون ، بمثابة نواة لجبهة وطنية .

وفي ٢٣ نوفمبر ١٩١٨ اتسـعت الجبهة الوطنية فضمت ١٤ عضواً ، مـنهم السبعة المؤسسون وسبـعة آخرون «منضمون» هم مصطـفى النحاس وحافظ عفيفـى ومحمود أبو النصر، وثلاثتهـم من الحزب الوطنى ، وإسماعيل صدقى وسيـنوت حنا وجورج خياط (وهو من اقطاعيى أسـيوط) وحمد الباسل (والأخير ممثلاً للبدو ، وقـد كان من إقطاعيى الفيوم) ، وفي ٢٣ نوفمبر ١٩١٨ أيضًا أقر الوفد المصرى برنامجه وقانونه الأساسى .

ومن هذه الجبهة الوطنية المكونة من ١٤ عضواً يبدو أن الإنجليز كانوا يتوسمون أن أكثرهم خطورة هم سعد زغلول ومحمد محمود وإسماعيل صدقى وحمد الباسل فهؤلاء الأربعة وحدهم هم الذين نفذ قرار نفيهم الأول إلى مالطة في ٩ مارس ١٩١٩ بعد القبض عليهم في ٨ مارس وبعد هذا النفى حل على شعراوى محل سعد زغلول في رياسة الوفد المصرى في القاهرة ، وكان مصطفى النحاس سكرتير الوفد العام .

ثم انضم ويصا واصف وواصف غالى وعلى ماهر في باريس إلى وفد المفاوضة في باريس ثم لندن وحين استدرج عدلى يكن و« المعتدلون» سعد زغلول و « المتطرفين» إلى مباحثات ملنر العقيم في لندن .

وبعد خطبة شبرا الشهيرة في ٢٥ أبريل ١٩٢١ وتفجر الأزمة بين سعد وعدلى انفرط عقد الجبهة الوطنية التى كان يتكون منها الوفد المصرى في تكوينه الأول فاستقال من الوفد : على شعراوى ولطفى السيد ومحمد محمود وعبدالعزيز فهمى وحمد الباسل وعلى ماهر وحافظ عفيفى ومحمد على علوبة وعبدالخالق مدكور وجورج خياط وإسماعيل صدقى وعبداللطيف المكباتى ومحمود أبو النصر ولم يبق مع سعد من الأعضاء القدامى إلا مصطفى النحاس وسينوت حنا وواصف غالى وويصا واصف .

ويلاحظ أن أوسع المنشقين ثراء وأعظمهم هيبة وهم على شعراوى ولطفى السيد وعبدالعزيز فهمى ومحمد محمود هم الذين تجمهروا حول عدلى يكن باشا عندما انشأ حزب الأحرار الدستوريين في ٣٠ أكتوبر ١٩٢٢ بعد إعلان استقلال مصر في ١٥ مارس ١٩٢٢ وتحويلها إلى مملكة مستقلة ذات سيادة ، وكان مع عدلى باشا عبدالخالق ثروت باشا وحسن عبدالرزاق باشا وبقية آل عبدالرازق وهم من إقطاعيى المنيا .

ومن النافع في دراسة تاريخ الحركة الوطنية المصرية تحليل التكوين الاقتصادى لكتلة « المعتدلين» أو «العقلاء» الذين تجمعوا تحت لواء عدلى يكن والأحرار الدستوريين من حيث :

(أ) أصولهم الارستقراطية

(ب) انسابهم التركية .

وكذلك تحليل التكوين الاقتصادى لجماعة « المتطرفين» من أمثال محمد علي علوبة وعبداللطيف المكباتى ومحمود أبو النصر وحافظ عفيفى وغيرهم من رجال الحزب الوطنى الذين كان يشرف على نشاطهم الأمير عمر طوسون مثل حسن صبرى وأمين يحيى وعبدالخالق مدكور وأمين الرافعى وحسن القصبى وعبدالعزيز الصوفانى ومصطفى الشوربجى وأحمد لطفى وأحمد وجدى وبالفعل فقد كان الأمير طوسون يعاون على تشكيل وفد منافس للوفد المصرى بقيادة محمد سعيد باشا ، يضم إسماعيل صدقى وحسن صبرى والشريعى وسينوت حنا ، وكان شباب الحزب الوطنى يشتغل بالتشهير بالوفد المصرى ويتهمه بأنه صنيعة الحكومة ، ولكن مرونة سعد زغلول جعلته يقنع الأمير بضرورة ضم الصفوف والاستغناء عن وفد محمد سعيد باشا ، فاستوعب الوفد في مرحلته الأولى ثلاثة من أعضاء الحزب الوطنى هم مصطفى النحاس وحافظ عفيفى ومحمود أبو النصر وأعضاء الحزب الوطنى أيضًا يستحقون تحليل تكوينهم الاقتصادى:

(أ) من حيث أصولهم البورجوازية .

(ب) من حيث ولاءاتهم التركية تأسيسًا على ترات الحزب الوطنى .

وأخيرًا فهناك رجال السراى ومن يسمون أنفسهم بالمستقلين وهؤلاء وأولئك لعبوا دورًا خطيرًا في السياسة المصرية .



النص الثانى عشر

ـ أيضا مــن (أوراق العمر) للــويس عوض الذى استخـدم أسلوب تتبـع الأسماء القبطيــة والاسلامية وربطها بمؤثرات ثقــافية وكانت إشاراته موجزة ، وهــو المنهج الذى استخدمناه – إلى حد ما – ولكن بتوسع كبير بتقصى ابعاد التراث المملوكى في مصر .

« . . . وأنا أذكر كــل هذه الأسماء لأنــى أجد نفعًا في اسـتعراض أسمــاء الأقباط وأحاول أن استخرج مــنها دلالات معينة ، فهى تـوحى بأنواع المؤثرات الثقافـية الواقعة عليهم من قديم الزمن كمثيلاتها من أسماء المسلمين فهناك في أسرتنا أسماء ذكور واناث مشتقــة من الكتاب المقدس (الـتوراة والانجيل) مثل ميخــائيل وخليل وإبراهــيم وإسحق ويعقوب وبطرس وحنا ، وهــذا مفهوم ، ويقابله عند المسلمين أسمــاء الأنبياء والصحابة مثل محمــد والتابعين إلخ . . وبعض هذه الأسمــاء مشتركة بين المسلمــين والأقباط مثل أسماء إبراهيم وإسحق ويعقوب وخليل (الخليل) بل وقد سمعت اسم «ميكائيل» بين قلة من المسلمين و«عوض» كــما هو معروف وشائع ، اسم مشترك بين المــسلمين والأقباط ، وقد سألت أهلــى عن معناه فقيل لى إن الوالــدين عندما يفقدان ولدا بــالموت ثم يرزقان بمولود قد يسميانه «عوض» لأنه عوضهمــا عما فقد . وهو تفسير غير مرضٍ ، لأن وجود اسماء بلا معنى مثل « عويضة» و «عــواد» يوحى بأن أصل الأسم قد يكون شيئًا آخر . وكذلك أسماء الست (جـدتى لأمي) وخالتى مريم وخالتى شفيقة وعــمتى ست وعمتى فردوس وربما عمــتى رفقة كلها شــائعة بين المسلــمين والأقباط. غير أنى أقــف حائرًا أمام أسماء مثل ضوضة وبــرتنية ولا أعرف مامنشؤها .كذلك كــنت أقف حائرًا أمام اسم « سيد» واسم زوجته «بتول» واســم «مصطفية» ويخيل إلى أنها أسماء إســلامية وفيما بعد كنت أيضًا أقف حائرًا أمام أسماء « عبدالله» و «عبدالعزيز» القليلة بين الأقباط في مناطق أخرى حتى ساعدتنــى قراءة صفحة الوفيات في « الأهرام » على مــدى خمسين عامًا مع اهتمامى بفقه اللغة على استخلاص جملة نتائج من أهمها نتيجتان :

١ – أن المسلمين والأقــباط يشتركون في عدد كبــير من الأسماء التى تبــدو للوهلة الأولى أنها إســلامية صرف أو مسيحــية صرف سواء في صيــغتها الشائعــة أو في صيغ محرفة ، مثل : « نــاشد » و « راغب » و « ونــيس » أو « عبد الــونيس » و « جــودة »

و « عبد الحميد » و« عبد السيد » إلخ . . . . وليس هذا بالضرورة بسبب تحول بعض الأقباط إلى الإسلام مع احتفاظهم باسمائهم الأصلية . فلست أظن أن أبا السيدة أمانى ناشد كان قبطيًا وأسلم دون أن يغير اسمه . وإنما حين أجد أحد انسباء أسرتى اسمه «نجدى» ، وهو مسيحى، اتذكر الفنان عمر النجدى ، وهو مسلم ، وغالبا يظن أن أجداده جاءوا من نجد بجزيرة العرب، ولكنى أتذكر معه «انچدى » أو «انشدى» ، وهو أحد القاب اوزيريس الشهيرة بوصفه منشدًا وصاحب الناى، واتذكر معه أيضًا عبارة «نشيد الانشاد» التى يصر عليها مترجمو الكتاب المقدس والمسيحيون الشرقيون رغم علم الجميع أن جمع «نشيد» في العربية هو «أناشيد» وليس «أنشاد» وإنما التمسك ناشئ من إحساس غامض دفين بأن «نشيد الأنشاد» هو أصلاً « نشيد النجدى » ، أي نشيد أوزيريس ، كما نقول « مزامير داود » بدلاً من «مزامير توت أو تحوت » .

وهناك عدد رهيب من أسماء الأعلام في مصر يشترك فيها الكافة من المصريين وهى تبدو عربية ولكنها في حقيقتها باقية من قبل أديان التوحيد ، ومثلها «حبيب» و«عفيفى » و «شفيق » و «لطيف» و «وجدى» و «شكرى » و «صبرى » و « حلمى » و « رمزى » و «لطفى» و « رفقى» و «قدرى» و «فخرى » و « شوقى» و «فوزى » و «صدقى » إلخ . . . . ومؤنثها وأغلب الناس يحسبون أن هذه أصلاً أسماء عربية الجذور صيغت على الطريقة التركية للتبرك بالمولود ، بمعنى أن قولك « فوزى » يعني « هذا المولود هو فوزى من الدنيا» وقوله « شكرى » يعنى أنك تشكر الله على المولود ، وقولك « لطفى » يعنى أن المولود من لطف الله بك وقولك « صبرى » يعنى أنك صبرت طويلاً فكافأك الله بالمولود ولو كان هذا صحيحًا لما وجدنا أسماء عبثية في هذه الصيغة مثل « لمعى » و « نظمى» و «عرفى» و « حربى » و « رسمى » و « صفى » و « شهدى » و «شرمى » و «نجدى . وإذا كانت «فتحى» أو « صبحى » ممكنة التفسير فمن الصعب أن نتصور رجلاً يباهى بأن ابنه « رشدى » يمثل رشده كما أن صيغة « رمزى » و « رامز » والمؤنث « رمزية » ، توحى بأن الاسم لاعلاقة له بالرموز حتى اسم « مجلى » وجدته بين المسلمين فالأرجح أن هذه أصلاً بقايا لأسماء ، كأكثر أسماء البلدان ، اسماء محرفة الصيغة من عصور ماقبل التوحيد واستمرت في وجدان شعوب المنطقة بعد انتشار الإسلام مقربة إلى أقرب لفظ عربى ذى معنى، وأضيف إليها بالقياس عليها .

٢ - كنت أتوقف عند اسم أمى ، وهو «هيلانة» واسم خالتى «روزا» واتساءل كيف دخلت هذه الأسماء اليونانية الرومانية في القرن التاسع عشر قرية في صعيد مصر معزولة تقع شرق النيل .

ظاهر الأمر أن هذه الأسماء اسماء «مثقفة» فكيف انتقلت إلى بيئة غير مثقفة ؟ كان مستبعدًا أنها تأثيرات معاصرة أى تنتمى للنصف الثانى من القرن التاسع عشر ، فشارونة لم يكن بها أوروبيون في تلك الفترة أو ما تلاها إلا بعض المبشرين الإنجليز العابرين بعد الاحتلال البريطاني من طائفة البلموس Plmouth Brothers ، لا لتبشير المسلمين ،ولكن لانقاذ ارواح الأقباط من جحيم الارثوذكسية وإدخالهم جنة البروتستانتية . وقد نجح الأخوان البلموس في ضم عمى إبراهيم إلى شيعتهم .

الأرجح أن اسم هيلانة المتواتر في أسرتنا واسم روزا كانا من بقايا مصر اليونانية الرومانية ومع ذلك فمن الصعب أن نعرف إن كان اسم هيلانة الشائع في أسرتنا تخليدا لهيلانة طروادة الشهيرة بجمالها أو تخليدا للقديسة هيلانة المصرية أم الأمبراطور قسطنطين أول من أعلن المسيحية الدين الرسمى للامبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) عام ٣٢٤ ميلادية والأرجح أن عوض جدى لأمى ، لم يسمع بهيلانة طروادة ولا بهيلانة قسطنطين وإنما أخذ اسم هيلانة من تراث متوارث عبر الأجيال ضاع مضمونه ولم يبق منه إلا أشكاله .

أستخلص هذا لأنى كنت أسمع وأنا صبى أسماء أقباط في شارونة رجالاً ونساء لاتفسير لها إلا أنها من بقايا العصر البيزنطى أو اليونانى الرومانى . كان هناك رجال اسمه مكسيموس أبو سليمان ، من Maximus اللاتينية ، ورجل اسمه تاوضروس Theodorus ، من بمعنى « عطية الله » وامرأة اسمها تودوره ، من Theodorus بمعنى عطية الله في صيغتها المؤنثة ، وأمرأة اسمها تاودكسا من Theodoxa بمعنى «المؤمنة بالله » وهذه كلها اسماء يونانية كانت شائعة في العصر البيزنطى . ويبدو أن هذه الأسماء الغريبة اسماء كنسية ، ولا أظن أنه كانت لاصحابها قرابة بأسرتنا .

كذلك كنت أسمع وأنا صبى عن امرأة اسمها طبيطة ، وهو اسم عرفت فيما بعد أنه مأخوذ عن التوراة Tabitha ، وكذلك عن امرأة اسمها كتوره ، ولا أعلم منشأ هذا

الاسم . وباستثناء هيلانة وروزا كان أجدادى بوجه عام يفضلون الأسماء الشائعة بين الفلاحين سواء منها المستمدة من الكتب المقدسة أو من البيئة . مثلاً كان لجدى خليل كما ذكرت أربعة بنين هم على التوالى إبراهيم وإسحق وحبشى وحنا ، وأربع بنات هن على التوالى :الست وصابات (أى اليصابات) وفردوس ورفقة . وباستثناء عمى إبراهيم الذى لم يترك القرية بل بقى فيها ، وكان فيما أذكر تاجر مانيفاتورة على درجة واضحة من اليسار ، نزح الاخوة الباقون إلى المدينة. أما العمات الأخوات فقد تزوجن جميعا في شارونة وبقين بها ولم ينزح من نسلهن إلى المدينة إلا الأقلون . نفس الأمر بالنسبة لخالاتى الأربع . فباستثناء أمى التى نزحت عن شارونة بزواجها من أبى بقيت الخالات مريم وضوضة وروزا وشفيقة في شارونة وتزوجن فيها أو في ضواحيها ، ولم ينزح عن شارونة من أولادهن إلى المدينة إلا الأقلون فكأن عنصر الاستمرار في الريف المصرى في الاشتغال بالزراعة كان يأتى عادة عن طريق نساء القرية وبناتهن . أما الأبناء فكانوا عادة ينزعون إلى النزوح الى المدينة لاتمام التعليم والاشتغال فيها ودرجة درجة كانت روابطهم بالريف تنقطع ، ولا سيما من تزوجوا منهم في المدينة وفي أكثر الأحوال كان أكثر النازحين لا يعودون ، بل يصفون مصالحهم القليلة في الريف لتكون القطيعة نهائية بالجيل الأول من أولادهم . لا أحد يعود ، حركة الهجرة تسير في اتجاه واحد من الريف إلى المدينة ، هكذا كان الأمر في ١٨٨٠م وهو كذلك في ١٩٨٠م وهكذا بقيت القرية المصرية اليوم كما كانت منذ قرن : محلك سر ، بل وربما تخلفت جيلاً بعد جيل لنزوح القوى الايجابية فيها إلى غير رجعة .

كانت القرية المصرية مقترنة بالثالوث الشهير الفقر والجهل والمرض ، فكانت الهجرة من الريف المصرى إلى البندر بمثابة الخروج من الجحيم. وقد بقى الجحيم جحيمًا لأنه عبر مائة عام لم يعد أحد من ابائه لإصلاح شأنه بل لقد أصبح الريف نفسه قوة طاردة لكل عوامل الإصلاح ، رافضة للحضارة بهجرة خلاصة من فيه بحيث لم يبق فيه حتى قيام ثورة ١٩٥٢ إلا « شر البقر» أما ما بعد ذلك فقصة أخرى .

كان أول من خرج من شارونة من أولاد جدى خليل هو عمى إسحق ، وهو من مواليد ١٨٧١ ، وقد توفى في ١٩٥٧ عن ٨٦ عامًا و٦٥ فدانًا . وقد تلقى علومه

الابتدائيـة والثانوية لا أدرى أين ، ثـم التحق بالكـلية الأمريكيـة في أسيوط لتحـصيل دراسته العالية خلال خمس سنوات بـين ١٨٨٨ و ١٨٩٣. وكانت هذه الكلية تسمى دار العلوم الانجيلية الـعالية ومنها حصل على الدبلوم في ١٨٩٣ أى أنـه تخرج منها في سن ٢٢ سنة ثم بدأ حياته العملية بتدريس اللغة الانجليزية في المدرسة الاكليريكية في القاهرة كما أنه كان يـدرس العربية للإنجليز ، ولـه كتابان : « مرشد الأديب في فـن الترجمة والتعريب » و « تفسيـر نبوءة النبى دانيال » وقد أنجب إسحق هذا خمـسة ابناء وبنتا هم الدكتور يعقوب عوض (طبيب بكتريويوجى تخرج في جامعة باريس) ، والمهندس المدنى فريد إسحق عـوض (خريج المهند سخانة المـصرية) وكان موظفًا بالحكـومة ثم توفى ، والمهندس المـدنى توفيق إسحـق عوض (خريج مدرسة الـسنترال بباريـس) ، وكان مدير أعمال بـالسكة الحـديد والآن بالمعـاش، والدكتور كـامل إسحق عـوض ، وكان طبيـبا بمستشفيات الحكومة المصرية والآن بالمعـاش، والدكتور أمين عوض ، وكان طبيبا بشركة عبود للسماد ثم توفى في شبابه عام ١٩٥٦ أمـا البنت فكانت اسمها نزهة وتزوجت في سن متأخرة ثم توفـيت. وأربعة من هؤلاء لم ينجبوا : لم ينجـب منهم إلا فريد الذى أنجب فتحى (طـبيب هاجر إلى أمريكا) ، وكمـال طبيب (يعمل في البـلاد العربية) ، وصفوت (مهندس مدنى)، وسميرة (زوجة ناظر مدرسة) ، ولكل من هؤلاء ثلاث أو أربع بنين أو بنـات في سن التعليم . كذلـك لم ينجب إلا توفيق وله المـهندس المدنى عزت وسميحة (متزوجة من مهندس مدنى)، ونبيل وهو دكتور في الجيولوجيا ، وسامية (بكالوريوس تجارة) تزوجت من رجل أعمال متخرج في كلية الحقوق ، والمهندس المدنى عادل ، وكل هؤلاء انجبوا أولادًا وبنات في سن التعليم ، فيما خلا المهندس عزت .

ونلاحظ في كل هذا جملة أمور : منها تغـير نوعية أسماء الذكور والاناث فبعد أن كانت اسماء الذكور والاناث تختار في القرن التـاسع عشر من بين الاسماء الدينية حلت محلها اسماء «مودرن» مدنية مثل فريـد وتوفيق وكامل وأمين وعزت ونبيل وعادل ونزهة وسميحة وسامية ، وهى كـلها اسماء مشتركة بين المسلمين والمسيـحيين بحيث أصبح من الصعب تحديد ديانة صاحب الاسم دون الإطلاع على بـطاقة تحقيق الشخصية الخاصة به أو شهادة ميلاده أو اسـتمارة جواز السفر ، فالحـكومة المصرية لا تزال تصـر على اثبات ديانة المـواطن في كل الأوراق الرسـمية الهامـة ومنها طـلبات التوظـيف . ولا شك أن

العلمانية التامة بين أكثر ابناء أعمامى ، ومعظمهم أقرب إلى اللاأدرية في العقيدة الدينية قد ساعدت على هذا التحول في اختيار الأسماء وهو ظاهرة توحى بالرغبة في الذوبان في المجتمع الكبير ، ولكن هناك في تصورى سببًا آخر ، هو الرغبة في اخفاء الهوية الدينية حتى يتجنب ابناء الأقليات حرج التمييز الدينى إلا حيث لامفر وهى ظاهرة اجتماعية قد تتجلى في أزمنة الاضطهاد الدينى أو التوجس منه حيث تتخوف الاقليات من التميز فيكون الاسم عقبة من عقبات الحياة . وقد تفشت هذه الظاهرة بين اليهود في أوروبا وأمريكا حيث لم يعد كثير من اليهود يسمون أبناءهم وبناتهم كوهين وليفى ومناحم وباروخ وسارة واستر وجوديث بل اصبحوا يسمونهم أريك وهنرى وجاك ولويس واريكا وهثريبت وجاكلين ولويزا ولمزيد من النضليل رأيت بعض الاقباط يسمون أولادهم طارق ووائل واسامة وهشام. كذلك لاحظت هذه الظاهرة في الاسماء التى اختارها عمى حبشى لأولاده وهى فؤاد وفائق وفتحى ثم أولاد أولاده، مثل ماجد وممدوح وحسام . . . إلخ ومن ابناء أحفاد وحفيدات عمى إسحق من يسمون ايهاب وعاطف ومنال ونرمين وسمير وبديع وشهيرة وأميرة وياسمين وسميرة وسهير . وهذه كلها اسماء جميلة ومشتركة بين المسلمين والأقباط لأنها اسماء أغلبها منحوتة ولا علاقة لها بتاريخ الاديان وقد كانت تمثل في تاريخ مصر الحديث مجهودًا مشتركًا بين المسلمين والأقباط ولاسيما منذ ثورة ١٩١٩ للخروج من حلقة الاسماء الدينية وبناء معجم قومى حديث لاسماء الأعلام لكن الردة الدينية التى جاءت بها الجماعات الإسلامية ، جعلت هذا المجهود من جانب واحد هو جانب الأقباط ، وهذا ما يظهر الأقباط في مظهر المتخفين في جلد الجرذان . قابلت أيام السادات صديقا قبطيًا صعيديا اسمه « ثابت» وهو اسم مشترك ، وأبلغنى أنه رزق بمولود جديد ، ثم أضاف في تحد : وسميته (حنا) احتجاجًا على مايحدث الآن . وهى حالة غير صحية عند الطرفين . ومنذ ثورة ١٩١٩ على الأقل اقترنت الحركة الوطنية بالاحياء الفرعونى وتجلى هذا التيار في اتجاه بعض المسلمين والأقباط إلى اتخاذ أسماء مصرية قديمة لابنائهم وبناتهم ومن هنا كان اسم الخبير رمسيس شافعى واسم رمسيس عبدالعليم (وكيل وزارة الصحة) واسم الدكتور احمس الحمامصى وكذلك شاع اسم عايدة وايزيس ونيتوكريس وكليوباترا ومن الناس من سمى باسم أوزيريس وزوسر وخوفو .

النص الثالث عشر

ـ عن توظيف الخرافة

ـ المصدر : النجوم الزاهرة جـ٨ ، ص ٥٩ ، حوادث ٦٩٤هـ .

في حوادث سنة ٦٩٤هـ

. . وفي العشر الأول من المحرّم حكى جماعة كثيرة من أهل دمشق واستفاض ذلك في دمشق حتى كثر الحديث فيه عن قاضي (جبّة أعسال) وهي قرية من قرى دمشق أنه تكلّم ثور في هذه القرية ! إذ خرج صبي ومعه هذا الثور ليشرب الماء فلما فرغ حمد الله تعالى ، فتعجب الصبي ! وحكى لسيّدة مالك الثور فشكّ في قوله، وحضر في اليوم الثاني بنفسه ، فلما شرب الثور حمد الله تعالى ، ثم في اليوم الثالث حضر جماعة وسمعوه يحمدالله تعالى ، فكلمه بعضهم فقال الثور « إن الله كان كتب على الأمة سبع سنين جدبا ، ولكن بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم أبدلها بالخصب ، وذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره بتبليغ ذلك ، وقال الثور : يارسول الله : ماعلامة صدقي عندهم ؟ قال : أن تموت عقب الإخبار قال الحاكي لذلك : ثم تقدم الثور إلى مكان عالٍ فسقطا ميتا ، فأخذ الناس من شعره للتبرك ، وكفنوه ودفنوه . »



النص الرابع عشر

ـ لويس عوض : أوراق العمر

« . . . وقد جاء في بلاغ النحاس باشا إلى النائب العام بعد خروجه من الحكم أن « مصر الفتاة» كانت تتلقى معونات مالية من على ماهر ومحمد محمود وإسماعيل صدقى وبهى الدين بركات ومحمد علي علوبة وعباس حليم وعبدالخالق مدكور وغيرهم وأن تقارير وزارة الداخلية التى اطلع عليها أيام توليه الحكم تدل على صلة هذه الجماعة بمصادر أجنبية ، وكان النحاس قد أعلن في مجلس النواب في جلسة ٢٢ يونيو ١٩٣٦ أن « مصر الفتاة» تعمل لحساب دولة أجنبية « إيطاليا» وهو لهذا يحظر تجوال أعضائها في القرى بالقمصان الخضر ومن وراء كل هذا كان الملك يرعى « مصر الفتاة» عن طريق رجلى القصر على ماهر باشا وكامل البندارى باشا .

ولم يحسم عنف «مصر الفتاة» في المجتمع المصرى إلا ظهور تشكيلات مضادة شبه عسكرية هى « القمصان الزرق » التابعة للوفد .

ففى ٩ يناير ١٩٣٦ قرر مؤتمر الشباب الوفدى تأليف ميليشيات شبه عسكرية لردع « القمصان الخضر» وقد كان غريبًا أن يتبنى الوفد مثل هذه التشكيلات المناقضة لدعوته الديمقراطية ولتاريخه الديمقراطى وفي ستة أشهر بلغ عدد « القمصان الزرق» ١٠,٠٠٠ متطوع كما يقول تقرير السير مايلز لاميسون السفير البريطانى في تقريره السنوى لحكومته سنة ١٩٣٦ ، ولكن تقوم نسبة ضئيلة منهم بنشاط جدى .

وكان يتزعم «القمصان الزرق» طالب في كلية الطب يدعى محمد بلال لم التق به أبدًا إلا في الثمانينات ولكنه كان زميل ابن عمى أمين عوض في كلية

الطب وكان ابن عمى يسخر منه ومن قمصانه بطريقته الهازئة فيحدثنا في الأسرة عن آخر أخبار «البلالزم» أما في كلية الآداب فلم نكن نحس كثيرًا بتحركات القمصان الخضر أو الزرق أو بما كان ينشب بينهم من معارك ولا أظن أنه كان للقمصان الزرق وظيفة أكثر من تأديب القمصان الخضر ، فكانت تجرى بين الفريقين معارك كمعارك البلطجية نسمع عنها ولا نشاهدها وانتهت هزائم القمصان الخضر باختفائها تمامًا من الشوارع في أقل من عام .

وبعد إقالة وزارة النحاس وتولى محمد محمود الوزارة الجديدة في ١٩٣٨ اكتشف الأحرار الدستوريون فجأة أن القمصان الملونة والميليشيات شبه العسكرية تتنافى مع الديمقراطية ، فأصدر محمد محمود قرارًا بحلها بعد أن كان محمد محمود يمول زعيم القمصان الخضر ليستعديه على الوفديين وهكذا اختفى القمصان الزرق أيضًا من الساحة السياسية واختفت فرق الجوالة التى كان الاخوان المسلمون ينظمونها لصالح الملك وارتاحت البلاد من هذا البلاء .



النص الخامس عشر

من كلام اعتماد خورشيد (حكايتى مع عبدالناصر ص ص ١١٥ - ١١٦)

قال لها حسين الشيمى الفلكى « إنتى ح تكونى رئيسة كبيرة . . أو شبه ملكة . . نجمك مثل نجم شجرة الدر » . . وحدث لى أشياء غريبة بعد نشر هذا الكلام عنى . . فقد توالت علىّ المصائب . . إذ كيف أكون مثل شجرة الدر وهناك نساء أخريات يطمعن في ملك مصر . . ومن بينهن جيهان السادات . .

و لا تعليق .

النص السادس عشر

من كتاب سيدة من مصر تأليف السيدة جيهان السادات ونقلنا منه فقرتين :

- عن موقف السيدة جيهان بعد موت الرئيس السادات .

- عن قتلة السادات في عيد النصر .

« . . . ومن خلال دموعى شاهدت أحد أزواج بناتى يدخل الغرفة وقلت له بهدوء : « حسن أحضر الأولاد » ، ولكنه اعترض قائلا : « لا ، لا » وكأنه لا يريد أن يصدق مايراه . . وقلت بشدة « حسن : ارجوك احضر الأولاد» لكى يودعوا أباهم » وجاءت بناتى مع أزواجهن إلى غرفة العمليات ، قبلن أباهن المرة بعد المرة على جبهته ويديه والدموع تنهمر على جسده لقد كن ، مثلى ، يحملن له الحب العظيم ، ولم يستطعن إيقاف حزنهن ، وقمنا معا بترديد ما يقال عادة في هذه المناسبات : « إنا لله وإنا إليه راجعون ، لا إله إلا الله محمد رسول الله » . . وقلت لأولادى بعد دقائق قصيرة ، « دعونا نذهب» ، ثم استدرت إلى الأطباء وقلت : « أشكركم على كل مافعلتم لزوجى والآن لى طلب أخير ، لا أريد أن يدخل أى شخص هذه الغرفة ، لا أريد أن يدخل أحد لمجرد رؤيته ، أرجوكم أن تعطوا زوجى خلوته » وهزوا رؤوسهم بالموافقه. يجب أن يعرف الوزراء ، ومبارك يجب أن يعرف ، لقد استمر زوجى رئيسا لمصر لأحد عشر عاما والآن انتقلت المسئولية إلى مبارك .

وحين عدت إلى غرفة الانتظار قلت له : « السيد الرئيس ، لقد ذهب أنور السادات ، إنه لم يعد حيا وهذه إرادة الله ، ولكن مصر لاتزال حية ومعرضة لخطر قاتل، والآن أنت الذى يجب أن تقودنا ، ولكنه ظل جالسا دون حركة، ومضيت قائلة « إن لى طلبا واحدا : أرجوك ألا تعلن موت السادات حتى تعرف ماهو الموقف في البلاد وكيف يمكن السيطرة عليه »

وفي الحال بدأ الوزراء في الخروج واحدا بعد الآخر ليعقدوا اجتماعا طارئا ، ولكن الرئيس مبارك كان لا يزال جالسا ، وعاد أحد وزرائه لكى يصحبه وقلت له : « لن أترك المستشفى حتى تذهب إلى الاجتماع ، تفضل سيادتك الآن ، إن واجبك أن تنقذ مصر » وفي النهاية نهض مبارك .

واستمرت الشائعة بأن السادات جرح في يده فقط ، ولكن كل من كانوا في المستشفى يعرفون الحقيقة ، حين سرت أنا وبناتى خلال الدهاليز الطويلة كان الأطباء والممرضات وحتى الحراس يبكون بأصوات مرتفعة وحاولت أن أسيطر على نفسى ، وأن اخفى عينى خلف نظارة سوداء ولكن لم أفلح ، وجاءت أحدى الممرضات وكنت أعرفها جيدا وأحاطتنى بذراعيها وبكينا معا ولكن في صمت . وتجمع الكثيرون خارج المستشفى ، حتى أعضاء مجلس الشعب ، كانوا يقفون ويبكون ورأيت وزيرة الشئون الاجتماعية وقد جلست على الارض تضرب صدرها بيديها صارخة «إلى الله» وهذه طريقة التعبير عن الحزن التى ورثناها منذ أيام الفراعنة ، كان الحزن لموت زوجى عميقا عميقا ، وفي طريق عودتنا ارتفع بكاء سائق سيارتى وازداد ارتفاعا ، وازداد البكاء حين دخلنا المنزل ، كان الموظفون يعتقدون حتى تلك اللحظة أن السادات قد جرح فقط وأنه سرعان ما سيشفى ، ولكن حين شاهدوا السائق وأسرتى ، عرفوا الحقيقة . . . »

عن قاتلى الرئيس :

« . . . ونقلت الانباء ان واحدا من القتلة الأربعة قد صاح وهو يندفع نحو المنصة العسكرية مطلقا مدفعه الرشاش :

– المجد لمصر . . اهجم . .

وورد في التحقيقات التى اعقبت ذلك ان قائدهم ، وعمره اربع وعشرون سنة ، الملازم أول خالد احمد شوقى الاسلامبولى كان يعمل تحت إمرة العقيد الزمر ، ضابط المخابرات الذى حذر أنور منه والذى هرب من الاعتقال في أثناء تطويق التخريب السياسى والدينى في سبتمبر .

ولقد شعرت باشمئزاز عندما شاهدت اجراءات المحاكمة في التليفزيون في شهر ديسمبر وقد تحولت إلى هرج ومرج . أخذ القتلة الأربعة يصيحون بالاهانات باستمرار مع شركائهم العشرين المتهمين واعاقوا الاجراءات القانونية ، وعندما كنت رئيسة للمجلس الشعبى في المنوفية كنت اسمح بالمناقشة ، بل كنت اشجعها ، ولكنى كنت اتحكم فيها عندما تزيد عن حدها والآن وفى قاعة المحكمة بالقاهرة لايفعل القضاة شيئا لوقف هذا الهرج والمرج .

اعرف أنه يجب ألا يكون هناك تحيز ، ولكن يجب على القاضى أيضا ألا يكون بهذا الضعف ، وبدون أي زجر لهم اخذ المتآمرون يصيحون بالاهانات ضد أنور السادات وعهده كله .

وبدا كأن السادات هو الذى اقترف الجريمة بدلا منهم ، كأن السادات هو الذى قام بالقتل وليس هو الذى قتل ، وكأنما لم يكن القتلة هم الذين يحاكمون ، بل السادات .

ولم يبد الاسلامبولى ولا الآخرون أي ندم أو أسف ، وبدلا من ذلك راحوا يتفاخرون بأنهم قد حققوا مهمتهم المقدسة واعلن الاسلامبولى بأنها كانت من تدبير الله حتى يبدل القانون المدنى بالقانون الاسلامى ، وحتى ينكث السلام مع اسرائيل ، إن قتل انور كان للانتقام من اعتقالات سبتمبر لقادة المتطرفين الدينيين واتباعهم ، ومن بينهم أخوه الأكبر محمد ، وكانوا كأنهم يتطلعون إلى التهانى لا العقاب على قتلهم زوجى .

الملحق الثاني

برنامج مفصل
لشغل المساجد في غير أوقات الصلوات
لتكون مدارسا لتدريس مناهج وزارة التعليم
وتحت إشرافها (*)

* هذا المبحث مرتبط بالفصل الثاني .

لم تنفصل العمليّة التعليمية في تاريخنا كله عن المساجد ، سواء في ذلك التعليم في المرحلة الأولى (مانعرفه الآن بالمرحلتين الابتدائية والإعدادية أو مرحلة التعليم الأساسى) أو في المراحل المتقدمة (مرحلة التعليم الثانوي ، والتعليم الجامعى ، والدراسات العليا) . ولم يكن هناك تعارض في كل الاحوال بين وظيفة المسجد كمكان للعبادة ، مع وظيفته كمكان للتعليم .

ومع هذا ففى حالات سنذكرها في هذا البحث نجد من الأفضل تخصيص مكان لتعليم مواد دراسية بعينها ، كالمقررات التى تحتاج إلى معامل وأدوات خاصّة .

نقول هذه الحقيقة العامة رغم أن المهتمين بتاريخ التعليم يجعلون سنة ٤٥٩هـ سنة فاصلة أو حاسمة في تاريخ التعليم ، لأن الوزير السلجوقى نظام الملك أنشأ في هذا العام سلسلة من المدارس أهمها المدرسة النظاميّة (نسبة إليه) في بغداد (١) ، وبذلك تم الفصل الظاهرى بين أماكن العبادة (المساجد) وأماكن التعليم (المدارس) - وحقيقة الأمر أن ما فعله نظام الملك لم يفصل تماما بين أماكن العبادة وأماكن التعليم . فرغم إنشاء المدارس فإن ذلك لم يقض على التعليم في المساجد ، والقصور ومساكن العلماء . . الخ

- أن المدرسة كان ملحقًا بها مسجد ، أو أن الصلوات كانت تقام في ساحاتها ، كما لم يكن معمار المدرسة يختلف كثيرًا عن معمار المسجد.

وقبل سنة ٤٥٩ هـ ، وهى الفترة التى شهدت أزهى عصور المسلمين كان المسجد هو محور العملية التعليمية . وانفرد الإمام مالك رضى الله عنه من بين الأئمة الأربعة بتحريم تعليم الصبية في المسجد ، قائلاً « لا أرى ذلك يجوز لأن الأطفال لا يتحفّظون من النجاسة » كما أن كُتّاب الحسْبة يرون رأيا كهذا، ومن أمثلة هؤلاء الشيرزى في كتابه (نهاية الرتبة في طلبَ الحِسْبة)(٢) . لكن تأملاً بسيطًا في هذه الآراء يجعلنا نوقن بأن الخوف من النجاسة هو محورها، وليس هناك نهى عن التعليم في المساجد ، على إطلاقه فإن أمِنّا أن يتحرّز التلاميذ من تنجيس المساجد، فلا بأس من تلقيهم التعليم فيها ، وهذا أمر قائم الآن في كثير من المساجد بالفعل ، كما أن المعلمّين والمشرفين سيضعون هذا الأمر في اعتبارهم ، بعد أن أصبح استخدام المساجد للتعليم في المراحل الابتدائية ، والإعدادية ، والثانوية - ضرورة قوميّة ملحّة .

لقد كثرت المساجد في مصر كثرةً أثارت غيظ الناهضين لاحتفاظنا بأصولنا وهويتنا الاسلامية[٣] ، ونسى هؤلاء أن المساجد مؤسسات عظيمة لها دورها الاجتماعى والتربوى إلى جانب دورها الدينى وأن الإكثار منها ، اكثار من مؤسسات منتجة بكل معانى الكلمة وليس هناك ما يمنع من استخدامها في حل أزمة توفّر الأماكن لأبنائنا الطلاّب إن تمشى تصميمها مع المناهج الدراسية التى تطرحها وزارة التربية والتعليم ، فلسنا نوافق على تدريس المقررات الصناعية في مدارسنا الصناعية بالمساجد ، والأمر نفسه بالنسبة للمقررات الزراعية لأسباب يسهل إدراكها .

والذى لاشك فيه أن طائفة كبيرة من الطلاب ستحس براحة نفسية لتلقيهم العلم في المساجد ، فلم لانستثمر هذه الرغبة أو هذه الراحة النفسية في العملية التعليمية فالامكانات المادية من مقاعد ومناضد وأجهزة حاسبة - رغم أهميتها الشديدة - ليست هى الباعث الوحيد للتعليم . . ونسوق في هذا الصدد مثالاً من تاريخ التعليم في أفريقيا ففى سنة ١٤٨٢ أنشأ البرتغاليون سلسلة من القلاع العسكرية الساحلية في غرب أفريقيا لأغراض عسكرية كما لايخفى ، ولكن السلطات البرتغالية قررت إقامة نشاط تعليمى في هذه القلاع، وحثت السكان الوطنيين على إلحاق أبنائهم بمدارس القلاع هذه ورغم الامكانات المادية المتوفرة ، ورغم المدرسين البرتغاليين ، ورغم وجبات الطعام ، فإن أهل البلاد لم يقبلوا الاقبال الكافى على هذه المدارس خوفا من فقدانهم لشخصيتهم الوطنية ، ومما هو جدير بالتسجيل أن المسلمين خاصة لم يرسلوا بأولادهم اليها رغم فقرهم[٤] نحن هنا إزاء مؤسسات تعليمية لم تحظ بالاقبال ، لا لقصور في تجهيزاتها ، وانما لافتقاد الرغبة أو الراحة النفسية .

وإذا أضفنا لذلك أن استخدام الأعداد الكبيرة في المساجد أضحى ضرورة ملحة بعد أن بلغ عدد طلاب المرحلة الابتدائية في العام الدراسى ١٩٨٨/ ١٩٨٩ حوالي ٧ ملايين طالب ، وعدد طلاب المرحلة الاعدادية حوالى ٣ ملايين طالب[٥] .

ونترك لإحصاءات وزارة التربية تكمل الحديث :

أولا : التوزيع النسبى لجملة التلاميذ في مراحل التعليم قبل الجامعى

عام ٨٨ / ٨٩ ـ ٨٧ / ١٩٨٨

جدول رقم (١)

مرحلة التعليم	عام ٨٨ / ١٩٨٩		عام ٨٧ / ١٩٨٨	
	جملة عدد التلاميذ	التوزيع النسبي	جملة عدد التلاميذ	التوريع النسبي
ماقبل الابتدائي	١٦٤.٢٦٩	١.٥	١٥٢.٣٧١	١.٤
الابتدائي	٦.٩٥٥.٤٥٥	٦٢.٦	٦.٦٣١.٢٦٥	٦١.٢
الاعدادي	٢.٣٨٣.٣٣٦	٢١.٥	٢.٤٤٧.٠٦٥	٢٢,٦
الثانوي العام	٥٦٠.٥٨٧	٥.٠	٥٦٤.٦٧٨	٥,٢
التجارى	٤١٨.٢١٦	٣.٨	٤٤٤.٧٨٨	٤,١
الصناعى	٣٩٤.٤٥١	٣.٦	٣٤٦.٣٠٥	٣,٢
الزراعى	١١١.١٧٠	١.٠	١١٠.١٧٨	١,٠
دور معلمين ومعلمات	٨٣.٥٣٦	٠.٨	١٠١.٨٢٨	٠,٩
تربية خاصة	٩.٤٣٣	٠.٠٨	٩.٦٥٣	٠,١
مدارس الفصل الواحد	٢٥.٩٣٦	٠.٢	٢٤.٩٩٦	٠,٢
الجملة	١١.١٠٦.٣٨٩	٪١٠٠	١٠.٨٣٣.١٢٧	٪١٠٠

١ - بلغ جملة عدد التلاميذ بمراحل التعليم قبل الجامعى عام ٨٨/ ١٩٨٩ (١١,١٠٦,٣٨٩) تلميذًا وتلميذة بزيادة (٢٦٢,٢٧٣) عن العام ٨٧/ ١٩٨٨ .

٢ - يمثل التعليم الابتدائى القاعدة العريضة للهرم التعليمي حيث يبلغ نسبة ٦٢,٦ ٪ من اجمالي عدد التلاميذ ويمثل التعليم الإعدادي ٢١,٥ ٪ من اجمالي عدد التلاميذ أي أن مرحلة التعليم الأساسي بحلقتيه الأولى والثانية ٨٤,١ ٪ من اجمالى عدد التلاميذ.

كثافة الفصول في مراحل التعليم عامي ٨٧/ ١٩٨٨ - ٨٨/ ١٩٨٩ .

جدول رقم (٢)

مرحلة التعليم	كثافة الفصل	
	١٩٨٨/٨٧	١٩٨٩/٨٨
ماقبل الابتدائي	٤٣	٤٣
الابتدائي	٤٤,٥	٤٤,٨
الاعدادي	٤٢,٨	٤١,٣
الثانوي العام	٣٧,٥	٣٦,٦
التجارى	٣٥	٣٥,١
الصناعى	٣٤,٤	٣٤,٢
الزراعى	٣٣,٤	٣٣,٧
دور معلمين ومعلمات	٣٥	٣٤,٢

ـ لم تتغير كثافة الفصل في مرحلة ما قبل الابتدائي عن العام الماضى فمازالت (٤٣) تلميذًا وتلميذة .

ـ أما في مرحلة التعليم الابتدائى فزادت كثافة الفصل من (٤٤,٥) العام الماضى إلى (٤٤,٨) تلميذ وتلميذة هذا العام .

ـ انخفضت كثافة الفصل في التعليم الإعدادي إلى (٤١,٣) تلميذ وتلميذة وكذلك انخفضت كثافة الفصل في التعليم الثانوي إلى (٣٦,٦) طالب وطالبة .

ـ بلغت كثافة الفصل التجارى (٣٥,١) طالب وطالبة ، (٣٤,٢) طالب وطالبة في التعليم الصناعى ، (٣٣,٧) في التعليم الزراعي .

ـ انخفضت كثافة الفصل إلى (٣٤,٢) طالب وطالبة في دور المعلمين والمعلمات(٦) . وبالنسبة لأبناء دينى المسلمين الذين قد يعترضون بدعوى الحفاظ على حرمة المساجد ، أدعوهم لتصفح هذا البحث المتواضع ليدركوا أن الاسلام لم يحرم ذلك

أما بالنسبة للتربويين الذين سيعترضون لأسباب فنية ، فإنني أسوق لهم الأفكار مدعمة بالوثائق والمراجع . أما الذين سيعترضون على الفكرة خوفًا من سيطرة الاتجاه الاسلامى على العملية التعليمية - فيمكن أن نطمئنهم إذ أن مدارس المساجد هذه ستدرس

مقررات وزارة التربية وتحت إشرافها ، كما نودّ أن نقول لهم ، أنهم بمجرد البداية في تطبيق فكرة مدرسة المسجد الابتدائية والاعدادية والثانوية ستنهال عليهم التبرعات من المؤسسات التبشيرية والمؤسسات غير المنظورة ، لإنشاء مدارس تحل محل مدارس المساجد هذه، ما أعظمك يا دينى الحنيف إنهم يأكلون على مائدتك في كل الأحوال.

ويحضرنى عند كتابة هذه السطور طرفة لا أستطيع توثيقها ، وهى أن رجلاً ذهب إلى واحد من آل البيت طالبا منه العطاء ، فقال له : ليس عندى ما أعطيك ، لكن أدلك على طريق تأخذ منه ماتريد، اذهب إلى الأمير (فلان) وسبّنا عنده فإنه يعطيك . فخرج الرجل ففعل ما أوصاه به الهاشمى ، فلما نال بغيته قال : يرحمكم الله يا آل البيت ، فالجود منكم إن مدحناكم أو ذممناكم .

نموذج لجدول اليوم الدراسى في مدرسة المسجد يوم ١٩ سبتمبر ١٩٩٢

(بداية العام الدراسى)

الحصّة	بدايتها		نهايتها	
	دقيقة	ساعة	دقيقة	ساعة
الحصة الأولى	-	٦	٤٥	٦
الحصة الثانية	٥٠	٦	٣٥	٧
الحصة الثالثة	٤٠	٧	٢٥	٨
فترة الراحة / نصف ساعة (٨,٢٥ - ٨,٥٥)				
الحصة الرابعة	٥٥	٨	٤٠	٩
الحصة الخامس	٤٥	٩	٣٠	١٠
الحصة السادسة	٣٥	١٠	٢٠	١١

ملاحظات :

١ - الفترة من صلاة الـفجر من الساعة ٥,١٥ إلى الساعة السـادسة (بداية الحصة الأولى) تحل محل طابور الـصباح،ويمكن كما هو معروف تأخير صلاة الـفجر إلى قبيل الشروق الساعة ٦,٤٢ بحيث لا يتجاوز التأخير بداية الحصة الأولى .

٢ - فترة الراحة نتناولها تفصيليًا في موضع آخر .

٣ - لن تعطل الدراسة صلاة الظهر للجمهور .



جلوس الطلاّب في مدارس المساجد

أثمرت حلقات العـلم والدراسة المعقودة في المساجد ، مجـموعة كتب زينت المكتبة العـربية ، عُرفت بـكتب الأمالـى والمجالس والمحاضـرات . «والأمالى جمـع إملاء أو املية»[٧] وهو أن يقعد عالم وحوله تلاميذه بالمحابر والـقراطيس فيتكلم العالم بما فتح الله عليه من العلم ويكتبه التلاميذ ، فيصير كتابا ويسمونه الإملاء أو الأمالى[٨] .

ولقد أضـحت الأمالى في زمـاننا هذا نقيـصة تربوية تحـول بين الطالب ومـراجعة المكتبات وخوض غـمار البحث ، وما هكذا كانت الأمالى فـي عصور الاسلام الزاهرة ، فقد كان مجلس الإمـلاء غاصًا بالحوار والمناقشة أما المحاضرات، فهـى جمع محاضرة ، وهى تدل على مـا يلقيه المعلم علـى تلاميذه في أي مكان كان ، والأصل الـلغوى لهذه الكلمة لا يدل بشكل مباشر على هذا المعنى [٩] .

وليس هنـاك كبير فرق بين كتب الأمـالى والمجالس والمحاضرات ، فللـمحاضرات مجالسها بالضـرورة، وقد يكتب كاتب مايعجبه في المحاضرة أو المجـلس ، كما يكتفى بعض الطلبة بالاستماع في مجلس الأمالى ومع هذا فقد حاول بعض الباحثين إيجاد نقاط فارقة بينهما [١٠] .

وليس موضوع هذه الفقرة عن كتب الأمالى والمجالس والمحاضرات وانما أوردنا نبذة عنها لنقول إن الطلاب كتبوا هذه الكتب الموسوعية الضخمة دون جلوس على مقاعد ، ودون مناضد أو تُخت » أمامهم وإنما كتبوها إما على أرضية المسجد، أو أحضر كل واحد منهم مقعداً مرتفعا قليلا ليكتب عليه وهو جالس على أرضية المسجد ، مقعد لايزيد ارتفاعه على حامل المصحف الذى نجده الآن في بعض المساجد ، تنزيها عن وضع المصحف الشريف على الأرض ولرفع المصحف بحيث يكون قريبا من عين القارىء

وإذا أضفنا لذلك أن عملية الإملاء قد قلّت كثيرًا في أيامنا هذه لأسباب كثيرة منها أن وزارة التربية توزع على طلابها كتبًا جيدة الطبع ، تغنى الطالب عن كتابة مايقوله المدرس ، وإنما تحثه على متابعة الفهم والشرح – وجدنا أن عملية الكتابة أثناء الحصّة قد قلت عن أيام الأمالى (حتى القرن الخامس للهجرة) بنسبة عظيمة .

ومن الناحية الواقعية فإن معظم طلاب الريف يستذكرون ويكتبون وهم جلوس على الحصيرة ، وقد أسندوا ظهورهم إلى الحائط أو المصطبة تماما كما كان يفعل الكاتب المصرى الفرعونى الجالس جلسة القرفصاء. وبعض طلاب الريف يجلسون أمام (الطبلية) ليكتبوا ويستذكروا ، والطبلية كما قد لايعرف أهل المدن هى مائدة طعام مستديرة لايزيد ارتفاعها على ٣٠ سنتيمترًا فمن الممكن إذن أن يصحب كل طالب معه كرسيا صغيرًا يسهل طيه ليكتب عليه مايشاء وهو جالس على أرض المسجد.

وقد رأيتُ بعينى في جامع عمرو بن العاص حيث تنظم مجموعات لتقوية الطلاب، كيف أنهم يكتبون على أرض المسجد. دون مشكلة ، كما رأيتهم يؤدون امتحانا تجريبيا بالطريقة ذاتها ، وقد جلسوا متباعدين – مما يحل لنا مشكلة الغش التى تهدد أخلاقياتنا. فمساحة المسجد الواسعة تتيح تباعد الطلاب ، كما أن الجوّ الروحى للمسجد غالبًا ما يكون حافزًا لعدم اقتراف هذا الإثم – الغش، وتلك ميزة تربوية – دون شك – لمدارس المساجد . وفي حالة المساجد الكبيرة التى تتسع لأكثر من فصل دراسى يمكن إيجاد فاصل بين الفصول بساتر ، تماما كالسواتر التى تقام في بعض المساجد للمعتكفين في شهر رمضان المكرم ، أو كالسواتر التى تقام في مساجد أخرى لتمكين النساء من الصلاة بمعزلٍ عن عيون الرجال .

ويمكن أن تعقد جلسة كل فصل في زاوية من زوايا المسجد ، مما يتيح للطلاب إسناد ظهورهم على حائطى الزاوية .

والذين سيتحدثون عن الجلسة غير الصحية ، نذكرهم أن المسجد برحابته ونقاء هوائه ، أفضل مرات عديدة من الفصول الضيقة التى يضم الواحد منها - أحيانا - ستين طالبًا أو سبعين ، مما يؤدى لأمراض في التنفس ، كما يؤدى لسرعة انتشار الأمراض الجلدية - وما حديث انتشار الجرب ببعيد.

مدرسة المسجد

ومنهج المرحلة الابتدائية

(المرحلة الأولى من التعليم الأساسى)

ليس في منهج المرحلة الابتدائية من الصف الأول إلى الصف الخامس[١١] ما يمكن أن يُقال إن امكانات المسجد تعوق تدريسه، فهذا المنهج لايحتاج لأكثر من مساحة (متوفرة في المسجد) وسبّورة (يمكن أن يستوعبها المسجد ، بالتعليق على أحد جدرانه أو أحد أعمدته) ومدرِّس (يمكن الاستعانة بإمام المسجد المؤهل لتدريس اللغة العربية أو الدين تحت إشراف مفتش هاتين المادتين في وزارة التربية). وحتى إذا تم ادخال الحاسب الآلى في العملية التعليمية - وقليلة هى المدارس التى تستخدمه الآن - ففي المسجد متسع لذلك ففى كل الأحوال توجد غرفة صغيرة داخل المسجد أو ملحقة به لحفظ السمّاعات والميكروفون ، وإذا كان الحاسب الشخصى (الكمبيوتر) موضوعًا على عجلات ، سَهُل نقله في موضع السبّورة . وفيما يلي عرض لمنهج المرحلة الابتدائية الذى أقرته وزارة التعليم في مصر مع بعض التعليقات :

أولاً : الصف الأول الابتدائي :

١ - الدين - ولا أظن أن هناك من يعترض على القول بأن المسجد بما فيه من ميضأة ومصاحف، وجو روحى ، هو أفضل الأماكن لتعليم القرآن الكريم وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، والفضائل الإسلامية .

٢ - اللغة العربية - وقد يكون مدرسها هو إمام المسجد نظير مكافأة من الوزارة، وقد يكون من مدرسى وزارة التربية والتعليم .

٣ - الرياضيات .

٤ - العلوم - وهى مبادىء بسيطة لاتحتاج إلى المعمل .

٥ - التربية الرياضية :وقد سابق الرسول صلى الله عليه وسلم زوجه عائشة رضى الله عنها في المسجد ، ومع هذا فقد يرى البعض أن تكون حصص التربية الرياضية في ساحة قريبة، أو في نادٍ قريب، وإذا تعذر هذا وذاك فليُخصص يوم مستقل كل أسبوع للتربية الرياضية بالتنسيق مع مدرسة من المدارس .

٦ - الرسم (التربية الفنية) .

ثانيًا : الصف الثانى الابتدائي :

لاتخرج مقرراته عمّا ذكرناه في الصف الأول .

ثالثًا : الصف الثالث الابتدائي :

بالإضافة للدين واللغة العربية والرياضيات هناك مقرر هام في الثالث عن (المعلومات العامة والأنشطة البيئية) يقدم للطالب فكرة عن الأسرة والمجتمع وأنواع البيئات ومؤسسات المجتمع وحياة الشعوب ، والمساكن والآلات والأدوات في حياتنا والإسعافات الأولية . ويمكن القول إن إمكانات المسجد اكثر بكثير من امكانات الفصل الدراسى في شرح هذا المقرر حيث تهيىء المساحة فرصة لشرح أفضل لطرق الإسعاف الأولى من حيث امكانية الاستلقاء على الأرض والانبطاح وما الى ذلك .

رابعًا : الصفان الرابع والخامس الابتدائيان :

ليس هناك من تعليق على مقررات هذين الصفين سوى في مقرر العلوم - ورغم أنه من الناحية الفعلية - أي عرض ماهو قائم في مدارس وزارة التربية بالفعل، فإن الطلبة - فعلاً - لايذهبون إلى معمل المدرسة غالبًا، وفي بعض المدارس يذهبون نادرًا (مرة واحدة في العام أو مرتين) وهذا بطبيعة الحال ليس هو الوضع الأمثل .

لذلك يمكن إنشاء معمل مركزى في إحدى المدارس القريبة ليذهب الطلبة إليه ، أو تنظيم الجدول بحيث يتلقى الطلاب بعض حصص العلوم التى تحتاج إلى معمل في الحصة الأولى في إحدى المدارس الابتدائية التى بها معمل . بقى القول أنه باستعراض كتب المرحلة الابتدائية ، في مختلف المواد، وجدنا أنه ليس بها أبدا مايتعارض مع الدين الحنيف أو ما يمس حرمة المسجد، فالإسلام دين يدعو إلى العلم. . كل علم نافع مفيد .

مدرسة المسجد ومقررات المرحلة الاعدادية

(المرحلة الثانية من التعليم الاساسى)

ليس في المسلمين الآن من يعترض على تدريس اللغة الانجليزية وغيرها من اللغات الأجنبية في المساجد . فمع انتشار التعليم وارتقاء الفهم لم يعد يوجد بيننا مثل ذلك الشخص الذى نهرنى يوما عندما كنتُ استذكر الانجليزية في أحد المساجد، قائلاً لي «أتقرأ لغة الكفار في المسجد؟! » فلاشك أنه لم يكن يدرك أن من تعلّم لغة قومٍ أمن مكرهم . ولا تستخدم مدارس مصر الإعدادية « معامل اللغات» وإذا تطور الأمر إلى ماهو أفضل، وشرعنا في استخدام هذه المعامل ، فساعتها يكون لكل حادث حديث، أما في ظل الظروف الحالية ، فإن إمكانات مدرسة المسجد في تدريس اللغات ، هى نفسها إمكانات المدارس العادية ، إذا تساوت كفاءة المدرسين الذين يدرسون هنا وهناك .

أما بالنسبة لمقررات العلوم فإن أكثر من ٨٠٪ منها لاتحتاج إلى معامل(١٢) فمقرر الصف الثاني الإعدادى في العلوم يشمل:

الوحدة الأولى التى تتناول اعتماد الإنسان على موارد البيئة : تقسيم موارد البيئة

الطبيعية الحيّة وغير الحيّة وتنوع البيئات وأهم البيئات الموجودة في مصر، وليس في هذه الوحدة تجارب ذات شأن اللهم إلاّ تجربة تحلية الماء المالح بالتبخر .

أما الوحدة الثانية عن استثمار الانسان الموارد الدائمة والمتجددة ، فيعرف بالموارد الدائمة (الشمس والماء والهواء) واستثمار الموارد غير المتجددة (النبات والحيوان والكائنات الدقيقة)، وتتناول هذه الوحدة صناعة الخل وصناعة الزبادى وصناعة الورق ، والأصباغ وتخمر اللبن وتخمر العسل الأسود - وكل هذا يحتاج للدراسة المعملية بلاشك - وبصرف النظر عن يقينى بأن معظم طلاب مصر لم تجر لهم في المعامل تجارب في هذه الموضوعات المهمة - إلاّ أن هذا لايجعلنا نتخذه ذريعة لإهمال دور (التجريب) كوسيلة للوصول للعلم الصحيح .

أما الوحدة الثالثة فعن استثمار الموارد غير المتجددة ، وتشتمل هذه الوحدة على عدة عناصر منها : الثروات المعدنية، وتعريف العناصر، والمخلوط المركب واستخلاص بعض المعادن من خاماتها، واستخلاص بعض العناصر الموجودة في البيئة كالكبريت والحديد والألومنيوم ، ثم تقدم الوحدة فكرة عن زيت البترول وتضم هذه الوحدة تسع تجارب على الأقل. ومع هذا فإن أبنائى الملتحقين ببعض مدارس الجيزة يؤكدون أنهم لم يدخلوا المعمل أكثر من خمس مرات أو ست وكما سبق أن ذكرنا فإن هذا لايصلح تبريرًا لإلغاء دور المعمل والتجريب في إكساب الطلاب المعارف العلمية الحقيقية .

أما الوحدة الرابعة فعن استثمار الطاقة فلاتشتمل على تجارب معملية إذ أن التجارب فيها بسيطة ويمكن إجراؤها في المسجد ، كخاصية الجذب في المغناطيس .

أما الوحدة الخامسة فعن استمداد طاقة الغذاء من الشمس (عملية البناء الضوئى، والغذاء ، والمشكلة الغذائية في العالم) وأزعم أن الحديقة المحيطة بالمسجد ، أو الشجرة المزروعة أمامه، تتيح شرحًا أفضل، وإجراء تجارب بسيطة وهذه الوحدة الخامسة هى الوحدة الأخيرة في مقرر الصف الثانى الإعدادى .

أما بالنسبة لمنهج العلوم للصف الأول الإعدادى ، والصف الثالث الإعدادى ، فإن الحاجة للتجريب المعملى ليست أكثر بأى حال من الأحوال مما عليه الحال في مقرر الصف الثاني الإعدادى الذى ضربنا به مثلا .

المعمل المركزى
لخدمة طلاب مدارس المساجد الثانوية
وطلاب المدارس الأخرى

والمقصود هنا تخصيص مبنى مستقل، أو جانب من إحدى المدارس ، لإنشاء عدد من المعامل ، لخدمة طلاب المرحلة الثانوية الملتحقين بمدارس المساجد ، ويمكن التنسيق بين عدد من هذه المساجد (المدارس) لتكون حصص العلوم بحيث لا يتعارض بعضها مع البعض الآخر .

وإن كانت التجربة المراد إجراؤها بسيطة ولاتحتاج لأدوات معقدة، ولا تسبب نجاسة للمسجد، فليس في الدين الاسلامي ما يمنع من إجرائها في المسجد ، فالعلم الصحيح - أي علم - يؤدى بصاحبه يقينًا إلى الاسلام .



الفسحة

(أو فترة الراحة) في مدرسة المسجد

وفقًا للجدول الدراسى الذى صممناه لليوم المدرسى في صدر هذا البحث فإن الفسحة تكون بين الساعة ٨ والدقيقة ٢٥ - والساعة ٨ ، والدقيقة ٥٥ . وهى فترة تكاد المساجد فيها خالية ، فصلاة الفجر انقضى وقتها ، وصلاة الظهر يبقى عليها وقت طويل.

فإذا كانت مساحة المسجد تسمح ، يمكن للمدرس أن يجرى مسابقات منضبطة في الجرى . كما يمكن أن يجرى في أحد أركان المسجد مباراة لتعليم المصارعة، وسيتوجه عدد من الطلاب إلى موضع الصنابير (حنفيات المياه) ودورات المياه، وهى غالبًا أكثر وأنظف مما في المبانى المدرسية، وإذا كان في المسجد ساحة مكشوفة كما في الجامع الأزهر أو جامع السلطان حسن توجه الطلبه اليها للعب والترويح عن النفس ، وإذا كانت هناك حديقة ملحقة بالمسجد حلت محل (حوش) المدرسة كما في مسجد مساكن الضباط في الجيزة، ويمكن للطلبة في حالة الضرورة القصوى تناول شطائرهم (سندوتشاتهم) أمام المسجد، وإذا كان المسجد في مبنى مستقل ، أي لاتعلوه شقق سكنية ، كان سطحه مكانًا ملائمًا لقضاء (الفسحة) التى لاتتجاوز الدقائق الثلاثين .



المكتبة والقراءة الحرّة

في مدرسة المسجد

لاشك أن الذين سيعارضون فكرة مدرسة المسجد الابتدائية والإعدادية والثانوية سيثيرون موضوع المكتبة ، ولاشك أن القراءة الحرة نشاط تربوى هام، إلاّ أنه من الناحية الفعلية فإن القراءة الحرة لايُكرّس لها وقت كاف في المدارس الرسمية ، فليس أمام الطالب إلاّ ثلاثين دقيقة هى مدة (الفسحة) أو فترة الراحة في منتصف اليوم المدرسى وإن أراد مزيدًا من القراءة الحرة فليس أمامه إلاّ الاستعارة الخارجية، والواقع أن ازدحام المقررات ، وطول المنهج المدرسى قلما يسمحان بذلك ، فغالبا ما يكبت الطلاب الراغبون في القراءة الحرة رغبتهم هذه إلى أن تحل الإجازة الصيفية .

كما أنّ الحكومة بدأت تهتم بالمكتبات المتنقلة ـمكتبات في عربات) كما توجد مكتبات عامة (فروع دار الكتب المصرية) في معظم أحياء القاهرة .

ومع كل هذا فإن الدين الاسلامي لايمنع مطلقًا أن يكون في المساجد مكتبات في مختلف فروع المعرفة ، وليس في مجال الدين الاسلامى فقط، شريطة أن تكون كتبا رصينة متحفظة ليس فيها مايخدش الحياء ، وفي معظم المساجد الآن بضعة أرفف لكتب التفسير والمصاحف ، وكتب الحديث ، وليس من مانع في تنويع موضوعاتها .

ومكتبة الأزهر الشريف الملحقة بالمسجد تضم آلافا مؤلفة من الكتب والمخطوطات في مواضيع شتى .

دور المناسبات الملحقة بالمساجد

وهذه تضم مقاعد وتضم منضدة للأستاذ ، ومزودة بالإضاءة، والمناسبات ـ سواء كانت أفراحا أو مـآتم ـ غالبا ما تعقد ليلاً أو بعد صلاة العصر، وتظل هذه الصالات معطلة في الغالب الأعم نهارا لم لا تستغل هذه الصالات ، كفصول نموذجية وإذا كانت هناك ضرورة ملحّة لعقد المناسبة نهاراً فرحًا أو مأتما فليكن هذا اليوم إجازة للطلاب ، يستعاض عنه بيوم آخر من أيام الجُمع مثلا .

مصادر

عن التربية في الاسلام

ودور المسجد في العملية التعليمية

من الواضح في هذا المبحث أننا رجعنا لكثير من المراجع التراثية والحديثة عن التربية والتعليم في التاريخ الاسلامى ، لكننا لم ننقل منها مباشرة إلاّ في النادر - وإنما استوحينا منها الأفكار وعرضناها على الواقع التربوى والتعليمى في مصر، ومن هذه المصادر :

أولاً : كتب الأمالى والمجالس والمحاضرات ، ومنها الأمالى لأبى على الغالى (ت ٣٥٦هـ) ومحاضرات الأدباء للراغب الأصبهانى (ت ٥٠٢ هـ) ونشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للقاضى التنوخى (ت ٣٨٤ هـ) وزهرة الآداب للحصرى القيروانى (ت ٤٥٣هـ) والأمالى لليزيدى (ت ٣١٠ هـ) والأمالى للشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ) .

ثانيًا : بعض كتب الحسبة ، وأهمها : نهاية الرتبة في طلب الحسبة للشيرزي الذى حققه ونشره السيد الباز العرينى .

ثالثًا : كتب تراثية عن التعليم، ومن ذلك الفصل الذى عنوانه (تعليم الولدان واختلاف مذاهب الأمصار في طرقه) في مقدمة ابن خلدون الشهيرة ، وكتاب إحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى خاصة ماذكره عن العلم المحمود والعلم المذموم، وكتاب ابن جماعة (٧٣٣هـ) تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم (تحقيق أحمد عبدالغفور عطار) وكتاب ابن سحنون المسمّى آداب المعلمين وقد نشره أحمد فؤاد الأهوانى كملحق لكتابه التربية في الاسلام وكتابه القابس الرسالة المفصلة لاحوال المعلمين والمتعلمين المنشور بذيل كتاب التربية في الاسلام آنف الذكر.

رابعًا : كتابات المحدثين عن تاريخ التعليم في عصور التاريخ الاسلامى ومنها : كتاب احمد شلبى عن تاريخ التعليم عند المسلمين ، وكتاب الأهوانى عن تاريخ التربية في الاسلام .

خامسًا : كتب عن مشكلة التعليم في مصر، وأهمها كتاب الدكتور احمد فتحى سرور عن التعليم في مصر – ومن هذا الكتاب الذى نشرته وزارة التربية المصرية استقينا كل الإحصاءات المتعلقة بأزمة التعليم في مصر .

ونحن إذ نذكر هذه المصادر ، فإننا ندعو المهتمين بحل أزمة التعليم في مصر للرجوع اليها ، لا بقصد كتابة بحوث تاريخية أكاديمية أو بحوث فقهية فمثل هذه البحوث كثيرة في المكتبة العربية ، وإنما ندعوهم لاستبطانها والتمعن في أفكارها لإيجاد حلول معاصرة لأهم مشاكل مصر على الاطلاق وهى مشكلة التربية والتعليم - ولا شك أن الباحثين بتخصصاتهم المختلفة قد يجدون أفكارًا لم أجدها .



الهوامش

(١) أحمد شلبى ، تاريخ التربية الاسلامية .

(٢) الشيرزى ، نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص ١٠٣

(٣) فرج فودة مثال على هؤلاء ، وقد أبدى سخطه على كثرة بناء المساجد في سلسلة كتبه التى نشرتها ٧ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، بعد وفاته .

(٤) عبدالرحمن عبدالله الشيخ : التطورات التعليمية والثقافية في أفريقيا . الرياض ، عالم الكتب ، ص٤٠.

(٥) فتحى سرور ، التعليم في مصر ، نشر وزارة التربية والتعليم .

(٦) المرجع نفسه .

(٧) حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون . اسطنبول الحسينى : مقدمة أمالى اليزيدى . ص . يا .

(٨) الحسينى المرجع نفسه . ص . يا

(٩) يقول ابن منظور « . . . والمحاضرة والمجادلة ، هو أن يغالبك على حقك فيغلبك عليه . . . وفيها معنى المكابرة والمغالبة . . . مادة (ح ض ر)

(١٠) عبدالسلام هارون (محقق) : مقدمة مجالس ثعلب ، دار المعارف ، ١٩٤٨ .

(١١) رجعنا لكتب العلوم للمرحلة الابتدائية من الصف الأول إلى الخامس، المقررة في العام الدراسى ١٩٩٢/١٩٩٣ ، ولم نستعرض المنهج تفصيلاً خوف الإطالة .

(١٢) رجعنا لكتب العلوم للصفوف الثلاثة من المرحلة الإعدادية ، المقررة للعام الدراسى ١٩٩٢/١٩٩٣.



الملحق الثالث

فرمان كلخانة أو خط كلخانة

[مقر الزهور]

فرمان الكلخانة [١] :

لا يخفى على عموم الناس أن دولتنا العلية من مبدأ ظهورها وهي جارية على رعاية الأحكام القرآنية الجليلة والقوانين الشرعية المنيفة بتمامها ، ولذا كانت قوة ومكانة سلطتنا السنية ورفاهية وعمارية أهليها وصلت حدّ الغاية وقد انعكس الأمر منذ مائة وخمسين سنة بسبب عدم الانقياد والامتثال للشرع الشريف ولا للقوانين المنيفة بناء على طروء الكوارث المتعاقبة والأسباب المتنوعة فتبدّلت قوتها بالضعف وثروتها بالفقر. وربما أن الممالك التى لا تكون إدارتها بحسب القوانين الشرعية لايمكن أن تكون ثابتة كانت أفكارنا الخيرية الملوكية منحصرة في إعمار الممالك واتحاد ورفاهية الأهالى والفقراء من يوم جلوسنا السعيد وصار التشبث في الأسباب اللازمة بالنظر إلى مواقع ممالك دولتنا العلية الجغرافية ولأراضيها الخصبة ولاستعداد وقابلية أهاليها لتحصل بمشيئة الله تعالى الفائدة المقصودة في ظرف خمس أو عشر سنين واعتمادًا على المعونة الإلهية واستنادًا على الإمدادات الروحانية النبوية ، قد رئى من الآن فصاعدًا أهمية لزوم وضع وتأسيس قوانين جديدة تتحسن بها إدارة ممالك دولتنا العلية المحروسة ، والمواد الأساسية لهذه القوانين هي عبارة عن الأمن على الأرواح وحفظ العرض والناموس والمال وتعيين الخراج وهيئة طلب العساكر للخدمة ومدّة استخدامهم ، لأنه لا يوجد في الدنيا أعز من الروح والعرض والناموس والمال، فلو رأى إنسان أن هؤلاء مهدّدون وكانت خلقته الذاتية وفطرته الأصلية لا تميل إلى ارتكاب الخيانة ، فوقاية لحفظ روحه وناموسه لا بد أن يتشبث في بعض اجراءات للتخلص منها وهذا الأمر لا يخفى أنه مضرّ بالدولة والملة كما أنه إذا كان أمينًا على ماله وناموسه لا يحيد عن طريق الاستقامة وتنحصر أفكاره وأشغاله في القيام بواجب الخدمة لدولته وملته ، وكما أنه في حال فقدان الأمن على المال لا يميل الشخص إلى دولته وملته ولا ينظر للانتفاع بأملاكه بل كما أنه لا يخلو دائمًا من الفكر والاضطراب فلو قدر العكس أعنى لو كان الإنسان آمنًا على ماله وأملاكه فلا شك أنه يشتغل بأموره وتوسيع دائرة تعيشه وتتولد يومًا فيومًا عنده الغيرة على الدولة والمملكة وتزداد محبته للوطن وبهذا يجتهد في تحسين حاله .

---

(١) هذا الملحق مرتبط بالفصل الثالث .

وأما مادة تعيين الخراج فكل دولة لابد أن تكون محتاجة إلى العساكر وسائر المصاريف المقتضية للمحافظة على ممالكها وهذا لا تتيسر إدارته إلا بالنقود والنقود لاتتحصل إلا من الخراج فلا غرو أن النظر إلى تحسين هذه المادة من أهم الأمور .

هذا ولو أن أهالي ممالكنا المحروسة تخلصوا لله الحمد قبل الآن من بلوى اليد الواحدة التي كانت متسلطة على الإيرادات الوهمية ، لكن أصول الالتزامات المضرة المعتبرة من ضمن أسباب الخراب التي لم يظهر منها ثمرة نافعة في أي حال لم تزل جارية للآن وهذا بعد كتسليم مصالح المملكة السياسية وإدارتها الماليه ليد رجل وبالأحرى أن نقول بوضعها تحت قهره وجبره ، فإنه إن لم يكن رجلاً أمينًا لا شك أنه ينظر إلى فائدته الشخصية وتكون كل حركاته وسكناته عبارة عن غدر وظلم فيلزم بعد الآن تعيين خراج مناسب على قدر اقتدار وأملاك كل فرد من أفراد أهالي المملكة ولا يؤخذ شيء زيادة عن المقرر من أحد ما وتحديد وبيان سائر مصرف عساكر دولتنا العلية البرية والبحرية وكل لوازماتهم بموجب قوانين إيجابية والإجراء بمقتضاها .

وأما مسألة الجندية فلكونها من المواد المهمة حسب ماذكر ومع كونه مفروضًا على ذمة الأهالي تقديم العساكر اللازمة للمحافظة على الوطن ، لكن الجاري للآن هو عدم النظر والالتفات إلى عدد النفوس الموجودة بالبلدة بل يطلب من بعض البلدان زيادة عن تحملها ومن البعض الآخر أنقص مما تتحمل وهذا فضلاً عما فيه من عدم النظام فإنه موجب لاختلال موارد منافع الزراعة والتجارة واستخدام العساكر إلى نهاية العمر أمر مستلزم لقطع التناسل فعلى تقدير طلب أنفار عسكرية من كل بلد يلزم وضع وتأسيس أصول مستحسنة لاستخدام العساكر أربع أو خمس سنوات بطريق المناوبة والحاصل أنه بدون تدوين هذه القوانين النظامية لايمكن حصول القوّة والعمار والراحة فإن أساس جميع ذلك هو عبارة عن المواد المشروحة، ولا يجوز بعد الآن إعدام وتسميم أرباب الجنح جهارًا أو خفية بدون أن ننظر دعاويهم علنا بكل دقة بمقتضى القوانين الشرعية ولا يجوز مطلقًا تسلط أحد على عرض وناموس آخر وكل إنسان يكون مالكًا لماله وملكه ومتصرفًا فيهما بكمال الحرية ولا يمكن أن يتدخل في أموره شخص آخر ، وإذا فرض ورفعت تهمة على أحد وكانت ورثته بريئى الساحة منها فبعد مصادرة أمواله لا تحرم ورثته من ميراثهم الشرعي وتمتاز سائر تبعية دولتنا العلية من المسلمين وسائر الملل الأخرى بمساعداتنا هذه

الملوكية بدون استثناء ، وقد أعطيت من طرفنا الملوكي الأمنية التامة في الروح والعرض والناموس والمال بمقتضى الحكم الشرعي لكل أهالي ممالكنا المحروسة وسيعطى القرار اللازم باتفاق الآراء عن المواضيع الأخرى أيضًا وستزاد أعضاء مجلس الأحكام العدلية على قدر اللزوم وتجتمع هناك وكلاء ورجال دولتنا العلية في بعض الأيام التي ستعين ، وجميعهم يبدون أفكارهم وآراءهم بالحرية التامة بدون تحاش ، وتتقرر القوانين المقتضية المختصة بالأمن على الروح والمال وتعيين الخراج ، وستجري المكالمة اللازمة عنها بدار شورى باب السر عسكرية وكلما تقرر قانون يعرض لطرفنا الملوكي لتتويج عاليه بخطنا الملوكي حتى يكون دستورًا للعمل إلى ماشاء الله وبما أن هذه القوانين الشرعية ستوضع لإحياء الدين والدولة والملك والملة فسيؤخذ العهد والميثاق اللازم من قبلنا الملوكي بعدم وقوع أي حركة مخالفة لها وسنحلف قسمًا بالله العظيم في أودة (١) الخرقة الشريفة بحضور جميع العلماء والوكلاء وسيصير تحليفهم أيضًا ، وعلى هذا فكل من خالف هذه القوانين الشرعية من الوكلاء والعلماء أو أي إنسان كان مهما كانت صفته سيجرى توقيع العقاب اللازم عليهم بدون رعاية رتبة ولا خاطر وسيصير تدوين قانون جزاء مختص بذلك ولكون كافة المأمورين لهم راتب واف الآن فإن وجد منهم من يكون راتبه قليلاً سيصير ترقية حاله .

هذا ولينظر في مادة الرشوة الكريهة بتدوين قانون شديد لذلك ، لأنها أعظم سبب لخراب الملك وممقوتة شرعًا ولكون الإصلاحات المشروحة آنفًا ستزيل طوارىء الفقر والفاقة كلية ، فكما أنه سيصير إعلان إرادتنا المملوكية هذه للأستانة ولكافة أهالي ممالكنا المحروسة يلزم أن تبلغ أيضًا لسفراء الدول المتحابة الموجودين بالأستانة ليكونوا شهودًا على دوام هذه الإصلاحات إلى الأبد إن شاء الله تعالى ونسأل مالك الممالك أن يلهمنا التوفيق جميعًا وأن يصب على كل من خالف التي منحت وأحسن بها في السنين الأخيرة والتي منحت من قبل أجدادنا العظام للطوائف المسيحية وكافة الملل غير المسلمة الموجودين تحت ظل جناح عاطفتنا السامي بممالكنا المحروسة الملوكية وقد صار الشروع في رؤية وتسوية الامتيازات والمعافيات الحالية للعيسويين وسائر التبعة الغير المسلمة في مهلة معينة بحيث يهتمون بعرضها إلى جانب بابنا العالي بعد المذاكرة بمعرفة المجالس التي تشكل بالبطريكخانات تحت ملاحظة بابنا العالي بحسب الإصلاحات التي يستدعيها

الوقت وآثار المدنية المكتسبة وموافقة إرادتنا الملوكية ويصير توثيق الرخصة التي أعطيت لأساقفة الطائفة المسيحية من قبل ساكن الجنان السلطان أبي الفتح محمد خان الثاني وخلفائه العظام وما صار تأمينهم عليه من قبلنا بحسب الأحوال والظروف الجديدة وبعد إصلاح أصول الانتخابات الجارية الآن للبطاركة يصير إجراء كافة الأصول اللازمة في نصبهم وتعيينهم بالتطبيق لأحكام براءة البطريركية العالي مدى الحياة ، ويصير استيفاء أصول تحليف البطاركة والمطارنة والأساقفة والحاخامات بالتطبيق للصورة التي تتقرر بين بابنا العالي وجماعة الرؤساء الروحانية المختلفة ويصير منع كافة الجوائز والعوائد الجاري إعطاؤها للرهبان مهما كانت صورتها وتخصص إيرادات معينة بدلها للبطاركة ورؤساء الطوائف ويصير تعيين معاشات بوجه العدالة بموجب ما يتقرر وبحسب أهمية رتب ومناصب سائر الرهبان ولا يحصل السكوت على أموال الرهبان المسيحيين المنقولة وغير المنقولة بل يصير إحالة حسن المحافظة عليها على مجلس مركب من أعضاء تنتخبهم رهبان وعوام كل طائفة لإدارة مصالح طوائف المسيحيين والتبعة غير المسلمة والبلاد والقرى والمدن التي تكون جميع أهاليها من مذهب واحد لا يحصل إحداث موانع في بناء سائر المحلات التي تكون مثل مكاتب وإستباليات ومدافن مختصة بإجراء عاداتهم حسب هيأتها الأصلية ، وعند لزوم إنشاء هذه المحلات مجدداً بحسب استصواب البطاركة ورؤساء الملة يلزم رسمها وبيان صفة إنشائها وتقديم ذلك إلى بابنا العالي وإما أن يجرى المقتضى فيها بموجب إرادتنا السنية الملوكية المتعلقة بقبول الصور السابق عرضها وإما أن يصير بيان المعارضات المختصة بذلك في ظرف مدّة معينة وإذا وجدت طائفة من مذهب منفردة بمحل وليست مختلطة مع مذاهب أخرى فلا هذه القوانين المؤسسة سوط عذاب النقمة وأن لا ينجح له أعمالاً مدى الدهر آمين ، حرر في يوم الأحد ٢٦ شعبان سنة ١٢٥٥ » . لكن أشغلته عن إتمام هذه الإصلاحات حرب الروسيا التي قامت بسبب اختلاف فرنسا والروسيا على حماية الأماكن المقدّسة بأورشليم ودعيت بحرب القرم .

ولما انتهت هذه الحرب أصدر السلطان فرمانًا جديدًا ببيان الإصلاحات المقتضى إدخالها في الممالك المحروسة في ١١ جمادى الآخرة سنة ١٢٧٢ (١٨ فبراير سنة ١٨٥٦) وهذا نصه مترجمًا من كتاب (أس انقلاب) .

الإصلاحات الخيرية

« من أهمّ أفكارنا السامية سعادة أحوال كافة صنوف التبعة التي أودعها الله إلى يدنا الملوكية المؤيدة ولما بذلناه من هممنا الملوكية في هذا الشأن من يوم جلوسنا المقرون باليمين قد تزايد عمار وثروة مملكتنا العلية يومًا فيومًا وشوهدت جملة فوائد نافعة ، ولكون تأييد وتوسيع نطاق النظامات الجديدة التي توفقنا إلى الآن لوضعها وتدوينها بالموافقة للموقع العالي الحائزة له دولتنا العلية بين الدول المتمدنة مطلوبنا إيصالها إلى درجة الكمال ، وقد تأيدت بعناية الله تعالى وبمساعي عموم تبعتنا الملوكية الجميلة وبهمة ومعاونة الدول المتحابة ، حقوق دولتنا العلية الخارجية ولذا فهذا العصر بعد بالنسبة لدولتنا العلية مبدأ زمن الخير وبما أن من أهمّ رغاتبنا المجبولة على الشفقة تقدّم الأسباب والوسائل الداخلية المستلزمة تزايد قوّة سلطتنا العلية وعمار ممالكنا السنية وحصول تمام سعادة أحوال كافة صنوف تبعة دولتنا العلية الملوكية المرتبطة بعضها ببعض بروابط الوطنية القلبية والمتساوية الماهية في نظر شفقتنا الملوكية من كل الوجود قد أصدرنا إرادتنا الملوكية هذه بإجراء الأمور الآتية الذكر .

وهي اتخاذ التدابير المؤثرة نحو تأمين كافة التبعة الملوكية من أي دين ومذهب كانوا بدون استثناء على الروح والمال وحفظ الناموس وإخراج جميع التأمينات التي وعد بها بمقتضى الترتيبات الخيرية وخطنا الملوكي السابق تلاوته في الكلخانة من حيز القوّة إلى حيز الفعل وتقرير وإبقاء كافة الامتيازات والمعافيات الروحانية تصادف صعوبات في إجراء الخصائص المتعلقة بنفاذ عوائدها في هذا المحل علنا وإذا كانت قرية أو بلدة أو مدينة مركبة أهاليها من أديان مختلفة يمكن كل طائفة منهم ترميم وتعمير كنائسها واسبتالياتها ومقابرها بحسب الأصول الموضحة بالمحلات المخصصة لهم الموجودة محلات سكنهم بها وأما الأبنية المقتضى إنشاؤها مجدّدًا يلزم أن تعرض البطاركة والمطارنة لبابنا العالي باسترحام الرخصة اللازمة عنها فإن لم يوجد لدى دولتنا العلية موانع في الامتلاك تصدر بها رخصتنا السنية وكافة المعاملات التي تحصل فيما يماثل كل هذه الأشغال تكون مجانًا من قبل دولتنا العلية في التأمين على إجراء عوائد كل مذهب بكمال الحرية مهما كان مقدار العدد التابع لهذا المذهب وتمحى وتزال إلى الأبد من

المحررات الرسمية الديوانية كافة التعبيرات والألفاظ المتضمنة تحقير جنس لجنس آخر في اللسان أو الجنسية أو المذهب من أفراد تبعة سلطنتنا السنية ويمنع قانوناً استعمال كل وصف وتعريف يمس الشرف أو يستوجب العار بين أفراد الناس ورجال الحكومة وبما أن عوائد كل دين ومذهب موجود بممالكنا المحروسة جارية بالحرية فلا يمنع أي شخص من تبعتنا الملوكية من إجراء رسوم الدين المتمسك به ولا يؤذى بالنسبة لتمسكه به ولا يجبر على تبديل دينه ومذهبه ولكون انتخاب وتعيين خدمة ومأمورى سلطنتنا السنية منوطاً باستنساب إرادتنا الملوكية فيصير قبول تبعة دولتنا العلية من أي ملة كانت في خدماتها ومأمورياتها بحيث يكون استخدامها في المأموريات بالتطبيق للنظامات المرعية الإجراء في حق العموم بحسب استعدادهم وأهليتهم وإذا قاموا بإبقاء الشروط المقررة بالنظامات الملوكية المختصة بالمكاتب التابعة لسلطنتنا السنية بالنسبة للسنّ والامتحانات يصير قبولهم في مدارسنا الملكية والعسكرية بلا فرق ولا تمييز بينهم وبين المسلمين وعدا ذلك فإن كل طائفة مأذونة بإعداد مكاتب أهلية للمعارف والحرف والصنائع ، إنما طرق التدريس وانتخاب المعلمين يكون تحت ملاحظة مجلس المعارف المختلط المعينة أعضاؤه من طرفنا الملوكى وتحال كافة الدعاوى التجارية أو الجنائية التي تقع بين المسلمين والمسيحيين وسائر الملل غير المسلمة أو بين التبعة المسيحية وسائر التبعة غير المسلمة مع بعضهم على الدواوين المختلطة والمجالس التي تعقد من قبل هذه الدواوين ، واستماع الدعاوي يكون علنًا بمواجهة المدّعي والمدّعي عليه وتصدّق شهادة الشهود الذين يقدّمانهم بمجرد تحليفهم اليمين حسب قواعدهم ومذاهبهم والدعاوى المختصة بالحقوق العادية يصير رؤيتها بالمجالس المختلطة بالولايات والمديريات بحضور كل من القاضي والوالي ويكون إجراء هذه المحاكمات بهذه المحاكم والمجالس علنًا وإذا وجدت دعاوى مثل حقوق الميراث التي تقع بين اثنين من المسيحيين أو سائر التبعة غير المسلمة ورغب أصحاب الدعاوى رؤيتها بمعرفة المجالس أو بطرف البطريك أو الرؤساء الروحانيين بغير إحالتها على الجهة التي يرغبونها ، والمرافعات التي يصير إجراؤها بحسب قانون التجارة والجنايات ، يصير إنهاؤها بكل سرعة بعد ضبطها وتنقيحها وترجمتها للألسن المختلفة المتداولة في ممالكنا المحروسة الملوكية ونشرها أولاً فأولا ومباشرة إصلاح كافة السجون المخصوصة لحبس مستحقي التأديبات الجزائية ومن تنحصر فيهم الشبهة في مدة قليلة حسب ما تقتضيه

الإنسانية والعدالة ، وتلغى كافة المعاملات المشابهة للإيذاء والجزاءات البدنية ومن يكون مسجونًا لا يعامل بغير المعاملات الموافقة لنظامات الضبط المدوّنة من قبل سلطنتنا السنية وفضلاً عن منع الحركات التي ستقع مخالفة لها بالكلية فإنه سيصير تأديب من يأمر بإجراء ما يخالف ذلك من المأمورين ومن يجريه من الخدماء بمقتضى الجزاءات وستنظم الضبطيات بصورة تستدعي الأمنية الحقيقية والمحافظة على أموال وأرواح كافة التبعة الملوكية سواء كانوا بدار السلطنة السنية أو بالولايات والمدن والقرى وكما أن مساواة الخراج تستوجب مساواة سائر التكاليف والمساواة في الحقوق تستدعي المساواة في الوظائف فالمسيحيون وسائر التبعة غير المسلمة يسحبون ثمرة قرعة مثل المسلمين ويجبرون على الانقياد للقرار الصادر أخيرًا وتجري عليهم أحكام المعافاة من الخدمة العسكرية بتقديم البدل الشخصي أو النقدي.

ويصير تدوين القوانين اللازمة لاستخدام التبعة غير المسلمة في أقرب وقت من الزمن ونشرها وإعلانها وتنتخب أعضاء المجالس الموجودة بالولايات والمديريات من التبعة المسلمة والمسيحية وغيرهما بصورة صحيحة ، ولأجل التأمين على ظهور الآراء الحقيقية سيصير التشبث في إصلاح الترتيبات التى تجري في حق تشكيل هذه المجالس لاستحصال دولتنا العلية على الأسباب والوسائل المؤثرة للوقوف على الحقيقة وملاحظة صحة نتيجة الآراء والقرارات التي تعطى عن ذلك وبما أن مواد القوانين المدوّنة في حق بيع وتصريف العقارات والأملاك هي متساوية ولأجل أن تمنح الأجانب الفوائد الجاري منحها للأهالي سيصرّح لهم بالتصرف بالأملاك بعد الاتفاق الذي سيبرم بين دولتنا العلية والدول الأجنبية ولكون التكاليف والخراج الموزع على كافة تبعة سلطنتنا السنية لا ينظر فيه إلى أجناسهم ومذاهبهم بل جاري تحصيله بصفة واحدة فيلزم المذاكرة في التدابير السريعة لإصلاح سوء الاستعمال الواقع في أخذ واستيفاء هذه التكاليف وبالأخص العشور وما دام أن أصول أخذ العشور جارية على التوالي بدون واسطة فبدلاً عن إلزام دولتنا العلية بالإيرادات يصير اتخاذ هذه الصورة بدلاً عنها وما دامت الأصول الحالية جارية فمن يتعرض من مأموري دولتنا العلية أو من أعضاء مجالسها للدخول في الالتزامات الجاري إعلان مزادها علنًا أو أخذ حصة منها يمنع ويترتب عليه الجزاء الشديد وتتعين التكاليف المحلية بصفة لا تضر بالمحصولات ولا بالتجارة الداخلية على حسب

الإمكان وللحصــول على المبالغ المناسبة التــى تتخصص لأجل الأشغال العمــومية يصير علاوة عوائد مخصوصة على الولايات والمديريات الــتى تنتفع من الطرق والمسالك المنشأة بها برًا وبحرً بقدرها وبما أنه وضع أخيرًا ترتــيب خصوصي في حق تنظيم وتقديم دفاتر إيرادات ومصروفات سلطنتنا السنية في كــل سنة فيصير الاعتناء بإجراء كامل احكام ذاك الترتيب ومباشرة حسن تسوية المعاشات التى يصير تخصيصها لكل من المأمورين وبمعرفة مقام الصدارة الجليل يصــير جلب مأمور من المأمورين الذين سيعينــون من طرفنا الملوكي مع رؤساء كل طــائفة لأجل أن يتواجــدوا بالمجلس الأعلى لــلمذاكرة في المواد المخــتصة بعموم تبعة سلطنتنا السنية وهؤلاء المأمــورون يعينون لمدة سنة وعندما يباشرون مأموريتهم يصير تحــليفهم اليــمين ولهم أن يبدوا آراءهــم وملحوظاتهــم بكل حرية في اجــتماعات مجلسنا الأعلــى العادية والتى تكون فوق العادة بدون أن يحــصل لهم أدنى ضرر وتجري أحكام القوانــين المختصة بالإفساد والارتكــاب والظلم في حق كافة تــبعة سلطنتنــا العلية مهما كانت جنسيتهم ومأمورياتهم وذلك بالتطبيق للأصول المشروعة.

ويصير تصحيح أصــول العملة وتعمل الطرق المؤدية لاعتبار مالــية الدولة مثل فتح البنوك وتعيين الأسبــاب التي تكون منبعًا لثروة ممالكنا المحــروسة المادية وتخصيص رأس المال المقتضــى وفتح الجداول(١) والطرق اللازمة لتســهيل نقل محصولات ممالــكنا ومنع الأسباب الحائلــة دون توسيع نطاق التجارة والزراعــة وإجراء التسهيلات الحقيــقية لذلك ويلزم النظر في الأسباب المؤدية لاستفادة العلوم والمعارف الأجنبية ووضعها على التعاقب في موقع الإجراء فيا أيها الصدر الأعظم الممدوح الشيم يلزمكم إعلان هذا الفرمان الجليل العنوان الملوكي حسب أصوله بدار السعادة ، ولكل طرف من ممالكنا المحروسة ، وإجراء مقتضــيات الخصائص المشروحــة حسب ما توضح آنــفًا وبذل جل الهمة في اســتحصال واستكــمال الأسباب اللازمة والــوسائل القويــة للدوام والاستمــرار على رعاية أحكــامها الجليلة من الآن فصاعدًا ويــلزمكم معرفة ذلك وإعتماد عــلامتنا الــشريفة حــرر في أوائل شهر جمادى الآخــرة سنة ١٢٧٢هـ (١٨٥٦) أ هـ » .



الملحق الرابع

مصر والقرن الواحد والعشرون

[مقتطفات من كتاب هيكل]

{ أرقام ذات دلالة من محاضرة الأستاذ / هيكل }

والصورة تشير إلى مايلى :

ـ في مصر ٥٠ فردًا تبلـغ ثروة كل واحد منهم ما بـين ١٠٠ إلـى ٢٠٠ مليون دولار وأكثر .

ـ وفي مصر ١٠٠ فرد تتراوح ثروة كل منهم ما بين ٨٠ إلى ١٠٠ مليون دولار .

ـ وفي مصر ١٥٠ فردًا تتراوح ثـروة كل واحد منهـم ما بين ٥٠ إلى ٨٠ مـليون دولار .

ـ وفي مصر ٢٢٠ فردًا تتراوح ثـروة كل واحد منهـم ما بين ٣٠ إلى ٥٠ مـليون دولار .

ـ وفي مصر ٣٥٠ فردًا تتراوح ثـروة كل واحد منهـم ما بين ١٥ إلى ٣٠ مـليون دولار .

ـ وفي مصر ٢٨٠٠ فـرد تتراوح ثروة كل واحد مـنهم ما بين ١٠ إلى ١٥ مـليون دولار.

ـ وفي مصر ٧٠ ألف فـرد تتراوح ثروة كل واحد منهم مـا بين ٥ إلى ١٠ ملايين دولار .

وإذا أخذنا الأرقام الخمسـة الأولى من هذا الجدول فإننا في مصـر أمام حوالى ألف فرد استطاعوا في العشرين سنة الأخيرة أن يصبحوا أصحاب ثروات هائلة لا تتناسب مع الحقائق الاقتـصادية أو الحقائق الاجتماعـية السائدة في البلد . وقـد جاءت هذه الثروات الهائلة في معظمـها من عمليات تقسيم وبيع الأراضى والعقـارات وما يتصل بها ، ومن التوكيلات التجاريـة التى لا يعرف أحد حسابها ، ومن احتكار بعـض السلع كالأسمنت والحديد والسكر واللحوم (بما فيها اللحوم الفاسدة) ، ثم إن بعضها - وهو ليس قليلاً - جاء من عمولات تجارة السلاح .

ولقد كنا نقبل – ونسعد ونبارك – لو أن هذه الثروات تراكمت نتيجة لعملية الإنتاج بالمنطق الرأسمالى السليم القائم على الاستثمار وقبول مخاطره ، والقائم على احترام القوانين والتزام ضوابطها ، والقائم على دفع الضرائب والرضا بتكاليفها .

لكن الواقع الحى أمامنا أنه ـ في معظم الأحيان وباستثناء لا تزيد نسبته على عشرة في المائة فقط ـ لم يكن الأمر هو الاستثمار ومخاطره وإنما الاستغلال ونفوذه ، ولم يكن القانون وضوابطه وإنما الدوران حوله والاستهتار به ، ولم تكن الضرائب العادلة في تكاليفها وإنما الضرائب على أضعف الطبقات قدرة على أدائها وأقلها فرصة في الهرب أو التهرب منها !

ومن المفارقات أن مصر وهى واحدة من البلدان الموضوعة في قوائم الدول الفقيرة تستورد أكبر نسبة من سيارات « المرسيدس » في العالم بالقياس إلى عدد سكانها ، وذلك طبقًا للبيان السنوى (سنة ١٩٩٣) لشركة « مرسيدس بنز».

ولقد أزيد أن واضعى التقرير الذى عرضت لأحد جداوله قبل قليل لم يدخلوا في تقديراتهم فئتين من الأغنياء .

ـ فئة المصريين الذين يعملون ويعيشون خارج مصر .

ـ ثم فئة أصحاب الثروات الإحصائية ، ونموذج لهم هؤلاء الذين يملكون أراضى أو عقارات زادت قيمتها بشدة ولكن التصرف فيها محدد أو مقيد ، كالعمارات الكبيرة على شاطىء النيل مثلاً ، وبالتالى فإن ملايينهم اعتبرت إحصائية ، أى أنها موجودة وليست متحركة بما يساوى قيمتها الحقيقية . وأزيد أيضًا أننى عندما اطلعت على هذا التقرير استهولت بعض ما فيه ، وأردت أن أراجعه بمناقشته مع خبير مصرى متخصص وفي موقع يسمح له أن يعرف – وكانت خلاصة رأيه أن التقديرات الواردة في التقرير أقل كثيرًا من الواقع الحالى، والأرجح أن أرقامه تعود إلى ثلاث سنوات مضت على الأقل وكانت هى المتاحة أمام واضعيه حين بدأوا في اجراء بحثهم .

وإذن فنحن أمام وضع لا مفر من التسليم بأنه بالفعل مخيف لأن النار قريبة من الحطب بأكثر مما تحتمله سلامة الأحوال في مصر . . . . » .

« . . بل إنه حتى في النظم الوراثية تبدو قضية الخلافة ملتبسة بالظنون ولقد صدر أخيراً تقرير عن معهد واشنطن للدراسات السياسية كان عنوانه « ماذا بعد فهد ؟ » ، فالخلافة في السعودية قضية تحيط بها أجواء عائلية حرجة ويمكن أن نضيف .« ماذا بعد السلطان قابوس » في عمان وقد تزوج ابنة عمه وانتهى زواجهما بعد سنتين دون أن ينجبا ابنًا تكون له ولاية العهد ؟ وماذا بعد «الحسن» في المغرب أو بعد « الحسين» في الأردن رغم أن كليهما سمى لنفسه ولى عهد ؟

ويتصل بمشكلة الخلافة أن هناك تصلبًا في شرايين الحياة العامة في العالم العربي، فالدم لا يتدفق بحرية ولا يتجدد بحيوية ، ويكفى أن نتذكر أن أكثر حكام العرب شبابا وأصغرهم سنا ، وهو « معمر القذافى » مضى عليه في السلطة ربع قرن بأكمله ، من سنة ١٩٦٩ إلى سنة ١٩٩٤، وهذا وضع لا أظن أن له مثيلا في بقعة أخرى من عالم نقول إن عواصف التغيير تهب عليه وتهزه إلى الأعماق هزًا .

– إن العالم العربي يعيش في أسر أكبر حشد من القوانين تعرفه أى منطقة غيره فنحن نعيش تحت سلطة القوانين التى صدرت لحماية النظم الملكية ، والقوانين التى صدرت لحماية النظم الثورية ، والقوانين التي صدرت لحماية المكاسب الاشتراكية، والقوانين التي صدرت لحماية الأمن القومى ضد اسرائيل وضد الغرب ، وضد الشيوعية وضد الإرهاب ، والقوانين التى صدرت لضرورات حالة الحرب، والقوانين التى صدرت لمتقضيات حالة السلام . . . . وكله باق بصرف النظر عن تغير الظروف وتغير العصور وتغير القرون ! . . »













تراث العبيد

هذا الكتاب هو الجزء الأول من ثلاثة أجزاء لكتاب واحد . موضوعه محاولة علمية لتقصي أسباب سلوكيات مرضية تسود المجتمع المصري حكامًا ومحكومين ! تمثلت في تراث سيئ تراكم خلال أكثر من ألف وثلاثة مائة عام من القهر والإذلال ، وليس البحث في هذا بهدف جلد النفس أو إسداء النصح ، فلا نحن مرضي حتي نفعل الأولي ، ولا نحن لدينا الأمل الذي يجعلنا نرجي النصح !

لكن مواجهة هذا المجتمع بتعريته دون مواربة أو خوف ، تصبح فريضة واجبة علي من يشتغلون بعلم التاريخ الاجتماعي الذي ينتمي هذا البحث إليه ، ولعله أول إسهام فى هذا السبيل ، فنحن متدينون ، لكننا نفرغ الدين من محتواه ، ولدينا قيم خلقية هي شعارات ومأثورات دون أن يتبدي هذا في سلوكنا ، وبيننا جميعًا - كمجتمع - عقد غير مكتوب أو إتفاق "جنتلمان" علي تبادل الكذب والنفاق دون أن نكاشف بعضنا بأننا نكذب !

ولعلنا جميعًا نلاحظ تعاظم التذرع بالمظاهر الدينية
في الملبس والشعائر وما إلي ذلك . لكن تعاظم كافة ألوان
الفساد والانحراف الاجتماعي أكبر !
الكل يقول : الحكومة سيئة ، ولكن الكل لا ينتبه
إلي أن الشعب في الحقيقة أسوأ .
نقاسي من الطغاة ونحن نصنعهم . ونرمي
الآخرين بالفساد والانحلال ولا نتوقف أمام فسادنا .
أمة تنصاع للقانون ولا تفوت فرصة لاختراقه .
ونهتف لطغاتنا في حاضرهم ونلعنهم بمجرد الرحيل
فلا يبقي بيننا مثل ولا قدوة . نخاف أن يضبطنا
الآخرين متلبسين بآثامنا ، ولا نخجل من ضبط
أنفسنا متلبسين ، نخاف بعضنا ولا نخاف الله
"نخاف ما نختشيش"
وهذا كله بعضٌ من "تراث العبيد"

ممدوح الغالي

المكتبة العربية للمعارف